بسم الله الرحمن الرحيم

مُخْتَصَر إحياء عُلُوم الدِّين

للشيخ الإمام حجة الإسلام
محمد بن محمد أبو حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٥٠ هـ
صاحب الإحياء نفسه

روجع وعلق عليه
بعناية وإشراف الناشر

مؤسسة الكتب الثقافية

ملتزم الطبع والنشر والتوزيع
مؤسسة الكتب الثقافية فقط

الطبعة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

مؤسسة الكتب الثقافية

الصنائع - بناية الاتحاد الوطني - الطابق التاسع - شقة ٧٨
هاتف المكتب: ٢٤٨٢٦٣ - ٢٤٤٣٦١ -
ص.ب: ٥١١٥ / ١١٤ - برقيا: الكتبكو - تلكس: ٤٠٤٥٩
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناشر

الحمد لله الذي فطرنا على حب دينه، والتمسك بأهداب شريعته، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي جاهد لنشر تعاليم الإسلام، ومكارم الأخلاق. وعلى آله وصحبه الذين اهتدوا بهديه، ففازوا برضوان الله وثوابه.

وبعد، فقد كان لكتاب إحياء علوم الدين الذي كتبه الإمام أبو حامد الغزالي، في أوائل القرن الخامس الهجري، أكبر الأثر في صد الهجمة المادية الملحدة، والتي كانت تستهدف بنيان الدين من القواعد، عن طريق نفث سمومها بأفكار باطنية خبيثة، أعدت بتفكير هادىء، وطبخت بليل.

واليوم، والتاريخ يعيد نفسه ما زال الإمام الغزالي يقف برسائله وكتبه، ومن أنفسها كتاب الإحياء. في وجه هذه الهجمة المادية الشرسة، التي ارتدت لباس العلم والتكنولوجيا بدل الفلسفة والجدل السفسطائي.

إلا أن تكاليف الحياة والتوتر النفسي، لم يترك للناس الوقت لقراءة المطولات. ونظراً للحاجة الماسة رأينا إخراج هذا المختصر الرائع لكتاب الإحياء، رغم كثرة المختصرات إلا أن هذا يمتاز بأن الذي قام باختصاره الإمام الغزالي نفسه، حافظ فيه على لباب الكتاب والفائدة منه، كما قال في خطبة الكتاب، وقد اختصره رضي الله عنه لتعذر استصحاب الإحياء في السفر فجاء اختصاره زبدة الطلب في هذا العصر.

وقد قمنا بمراجعة الكتاب وصححنا ما فيه من هنات وأخطاء مطبعية بالاستعانة

بكتاب الإحياء وخرّجنا آياته وعلقنا بعض ما احتاج لتعليق وبذلنا في ذلك غاية الجهد ليخرج في ثوب يتفق ومكانته إجادة وغاية . والله الموفق للصواب .

أما الأحاديث الشريفة ففي كتاب (المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الاحياء من الأخبار) لمؤلفه الإمام زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم ابن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم الشهير بالحافظ العراقي غنىً لكل من أراد الدرس والمراجعة ، والكتاب مطبوع في هامش كتاب الإحياء طبعة دار الفكر بيروت فليرجع إليها . ولم ننقلها هنا حتى لا نفوت على الإمام الغزالي الغرض من مختصره بالتطويل على القارىء .

كما بذلنا جهدنا لوضع هذا السفر الجليل في متناول الجميع وأن نسهل سبيل الحصول عليه .

وفقنا الله لشكر نعمه ونصرة دينه وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .

الناشر

حجة الإسلام الغزالي
حياته وشمائله

نسبه ومولده :

هو الإمام زين الدين ، حجة الإسلام ، أبو حامد : محمد بن محمد بن محمد الغزالي ، الطوسي ، النيسابوري ، الفقيه الصوفي ، الشافعي ، الأشعري .

ولد في مدينة طوس التي كانت ثاني مدينة في خراسان بعد نيسابور ، وذلك عام ٤٥٠ هجرية .

قال ابن عساكر : ولد الإمام الغزالي بطوس سنة خمسين وأربعمائة ، وابتدأ بها في صباه بطرف من الفقه ، ثم قدم نيسابور ولازم دروس إمام الحرمين ، وجدّ واجتهد حتى تخرّج في مدة قريبة ، وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه ، وجلس للإقراء وإرشاد الطلبة في أيام إمامه ، وصنف .

وكان الإمام يتبجح به ويعتد بمكانه منه ، ثم خرج من نيسابور ، وحضر مجلس الوزير نظام الملك ، فأقبل عليه وحلّ منه محلاً عظيماً لعلو درجته ، وحسن مناظرته . وكانت حضرة نظام الملك محطاً لرجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفضلاء ، ووقع للإمام الغزالي فيها اتفاقات حسنة من مناظرة الفحول ، فظهر اسمه ، وطار صيته . فرسم عليه نظام الملك بالمسير إلى بغداد للقيام بتدريس المدرسة النظامية ، فسار وأعجب الكل تدريسه ومناظرته ، فصار إمام أهل العراق بعد أن حاز إمامة خراسان ، وارتفعت درجته في بغداد على الأمراء والوزراء والأكابر وأهل دار الخلافة ، ثم انقلب الأمر من جهة أخرى فترك بغداد ، وخرج عما كان فيه من الجاه مشتغلاً بأسباب التقوى .

وفي سنة ٤٨٩ هـ قدم دمشق وأقام بها مدة قصيرة، ثم رحل من دمشق إلى بيت المقدس، وأخذ في تصنيف كتابه الإحياء، وأخذ في مجاهدة النفس، وتغيير الأخلاق وتحسين الشمائل، وتهذيب المعاش.

فانقلب شيطان الرعونة، وطلب الرياسة، والجاه، والتخلق بالأخلاق العظيمة إلىٰ سكون، وكرم الأخلاق، والفراغ عن الرسوم والتزيينات،والتزيي بزي الصالحين وقصر الأمل، ووقف الأوقاف على هداية الخلق ودعائهم إلىٰ ما يعنيهم من أمر الآخرة، وتبغيض الدنيا، والاشتغال بها على السالكين، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية، والانقياد لكل من يتوسم فيه، أو يشتم منه رائحة المعرفة أو اليقظة لشيء من أنوار المشاهدة، حتى مرن على ذلك ولان.

ثم عاد إلىٰ وطنه لازماً بيته، مشتغلاً بالتفكر، ملازماً للوقت، مقصوداً نفيساً، وذعراً للقلوب.

مصنفاته:

ذكر الفقيه محمد بن الحسن بن عبدالله الحسيني الواسطي في كتابه «الطبقات العلية في مناقب الشافعية» ٩٨ مصنف. وذكر السبكي في «طبقات الشافعية» ٥٨ مصنف. وذكر طاش كبرى زادة في «مفتاح السعادة ومصباح السيادة» أن مصنفاته بلغت ٨٠ مصنف، وقال: «وكتبه ورسائله خارج عن حد العدة والإحصاء، ولم يتيسر لأحد معرفة أسماء مصنفاته كلها، حتى يقال أن له ألف مصنف إلا واحداً، وهذا وإن كان بعيداً عادة، ولكن من عرف شأنه ربما يصدق».

وقد تتبع الدكتور عبد الرحمن بدوي في كتابه «مؤلفات الغزالي» مصنفاته فبلغت ٤٥٧ مصنف، نذكر منها:

١ ـ **إحياء علوم الدين**: وقد طبع عدة طبعات منها طبعة بولاق سنة ١٢٦٩، ١٢٧٩، ١٢٨٢، ١٢٨٩، ١٢٨٩، واستانبول ١٣٢١، وطهران ١٢٩٣، ودار القلم، بيروت بدون تاريخ.

٢ ـ **الأدب في الدين**: وهو مطبوع ضمن «مجموعة الرسائل» القاهرة سنة ١٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م من ص ٦٣: ٩٤.

٣ ـ **الأربعين في أصول الدين**: وهو مطبوع في القاهرة سنة ٣٢٨ هـ = ١٩١٠ م، والمكتبة التجارية بالقاهرة، بدون تاريخ.

٤ ـ **أساس القياس**: ذكره الغزالي في «المستصفى» ١/٣٨، ٢/٢٣٨، ٣/٣٢٥، طبعة مصر سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م. وذكره في «الطبقات العلية في مناقب الشافعية» لمحمد بن الحسن الحسيني الواسطي. مخطوط، دار الكتب المصرية رقم ٧ مجاميع. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٦١.

٥ ـ **الإستدراج**: ذكره الغزالي في «الدرة الفاخرة» ص ٥٧ من الطبعة التي بين أيدينا. ومنه نسخة مخطوطة [برقم ١٨ تصوف عربي] آصفية.

٦ ـ **أسرار معاملات الدين**: ذكره السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى ٤/١١٦، وذكره أيضاً محمد بن الحسن في «الطبقات العلية في مناقب الشافعية». والغزالي في «منهاج العابدين» ص ٣٢. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٦٨.

٧ ـ **الإقتصاد في الإعتقاد**: طبع في القاهرة، مصطفى القباني سنة ١٣٢٠ هـ. وعلى هامش «الإنسان الكامل» للجيلاني، طبعة القاهرة ١٣٢٨ هـ. ومع «المنقذ»، و«المضنون» و«تربية الأولاد» بومباي بدون تاريخ. وترجم إلىٰ الإسبانية.

وذكره السبكي ٤/١١٦، والزبيدي في الإتحاف ١/٤١، و«الطبقات العلية».

٨ ـ **إلجام العوام عن علم الكلام**: طبع باستانبول سنة ١٢٧٨ هـ، والقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ، ١٣٠٩ هـ، ١٣٥٠ هـ بعناية محمد علي عطية الكتبي. وسنة ١٣٥١ هـ؛ إدارة الطباعة المنيرية. وترجم أيضاً إلىٰ الإسبانية.

٩ ـ **الإملاء على مشكل الإحياء**: طبع في فاس سنة ١٣٠٢؛ وعلى هامش «إتحاف السادة المتقين» للزبيدي، وعلى هامش عدة طبعات من الإحياء.

١٠ ـ **أيها الولد**: طبع ضمن مجموعة بالقاهرة عام ١٣٢٨، وعام ١٣٤٣ ضمن «الجواهر الغوالي من رسائل حجة الإسلام الغزالي». وفي إستانبول سنة ١٣٠٥، وقازان سنة ١٩٠٥ مع ترجمة تركية لمحمد رشيد. وترجم أيضاً إلىٰ الألمانية، ترجمة هامر

يرجشتل في فينا عام ١٨٣٨. وترجمه إلى الفرنسية الدكتور توفيق صباغ ضمن منشورات الأونسكو سنة ١٩٥١، بعنوان Traité du Disciple .

١١ ـ **الباب المنتحل في علم الجدل**: ذكره ابن خلكان ٣/ ٣٥٤، والسبكي ٤/ ١١٦، بعنوان: «الباب المنتحل في علم الجدل». وذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» بعنوان: «الباب المنتحل في الجدل». والدكتور عبد الرحمن بدوي ٧

١٢ ـ **بداية الهداية**: طبع عدة طبعات منها طبعة بولاق ١٢٨٧، والقاهرة ١٢٧٧، وسنة ١٣٠٣، ومع تعليقات لمحمد النواوي الجاري بالقاهرة عام ١٣٠٨ هـ، وبولاق ١٣٠٩، ولوكنو ١٨٩٣، والقاهرة ١٣٠٦، ١٣٢٦، وبمباي سنة ١٣٢٦، والقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ. والقاهرة ١٩٨٥ م مكتبة القرآن، تحقيق محمد عثمان الخشت. وترجم إلى الإنجليزية والألمانية.

١٣ ـ **البسيط في الفروع**: منه مخطوط في الديوان الهندي ١٧٦٦، والإسكوريال ط١ـ ١١٢٥، والفاتح باستانبول برقم ١٥٠٠، والسليمانية ٦٢٩، قليج علي ٣٢٧، ودمياط عمومية ٤٤، والأول والرابع والخامس والسادس منه في الظاهرية برقم ١٧٤: ١٧٦ فقه شافعي، ودار الكتب المصرية برقم ٢٧ فقه شافعي، وهو ناقص. وبرقم ٢٢٣ فقه شافعي.

١٤ ـ **غاية الغور في دراية الدور**: منه بالمتحف البريطاني، الملحق برقم ١٢٠٣ [١]، وراغب باستانبول برقم ٥٦٩ في ٧٥ ورقة، وهمبرج ٥٩، ودار الكتب المصرية رقم ٣٦٥٩، ٣٦٦٠ تصوف بعنوان: مسألة طلاق الدور.

١٥ ـ **التأويلات**: ذكره بروكلمان، ملحق ١/ ٧٤٧، برقم ٢١. ومنه مخطوطة بمكتبة آيا صوفيا باستانبول في المجموع رقم ٢٢٤٦.

١٦ ـ **التبر المسبوك في نصائح الملوك**: أصل الكتاب بالفارسية بعنوان «نصيحة الملوك». وترجمه إلى العربية علي بن مبارك بن موهوب للأتابك ألب قتلج في الموصل، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ. وطبع بالقاهرة عام ١٢٧٧ هـ، وعلى هامش «سراج الملوك» للطرطوشي، بالقاهرة عام ١٣٠٦، ١٣١٩.

١٧ ـ **تحصين المآخذ**: وهو في علم الخلاف. ذكره السبكي ٤/ ١٤٣، وابن قاضي شهبة ٨، وابن العماد في الشذرات ٤/ ١٣٠. ومؤلفات الغزالي للدكتور عبد الرحمن بدوي ١٠.

١٨ ـ **تلبيس إبليس**: ذكره السبكي ٤/ ١١٦، ومفتاح السعادة لطاش كبرى ٢/ ٢٠٨، وحاجي خليفة بعنوان تدليس إبليس ٢/ ٢٥٤.

١٩ ـ **التعليقة في فروع المذهب**: ذكره السبكي ٤/ ١٠٣، والدكتور عبد الرحمن بدوي ١.

٢٠ ـ **التفرقة بين الإسلام والزندقة**: ذكره الغزالي في «المنقذ» ص ٩٧، طبعة دمشق ١٩٣٤، وأشار إليه أيضاً في «المستصفي» ١/ ١١٧، القاهرة ١٩٣٤. وطبع في القاهرة ١٣١٩ هـ، و١٣٢٥ هـ بعنوان: «رسالة في الوعظ والعقائد». وطبع في الهند في مجموع رسائل طبعها قاضي إبراهيم في بمباي، طبع حجر سنة ١٢٨٣ هـ من ص ٣: ٢٤. وترجمه إلى الألمانية، A. L. Runge في Kiel, 1938 . ولخصه بالإسبانية Asim Palacios في El Justo Medio en la Creenzia مدريد سنة ١٩٢٩.

٢١ ـ **تفسير القرآن العظيم**: ذكره الزبيدي في «إتحاف السادة المتقين» ١/ ٤٣. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٥٣.

٢٢ ـ **تهافت الفلاسفة**: طبع في القاهرة سنة ١٣٠٢ هـ، سنة ١٣١٩، سنة ١٣٢٠، سنة ١٣٢١، ١٩٥٥. وفي بمباي طبع حجر سنة ١٣٠٤. وترجمه إلى اللاتينية C. Calonymus، ونشره عام ١٥٢٧ م، بعنوان Destretio Philosophiac، وقد طبع مرتين في البندقية سنة ١٥٢٧، وسنة ١٥٦٢. وهذه الترجمة عن الترجمة العبرية. وترجمه إلى اللاتينية عن العربية أوجستينونيفو، وشرحه، وقد طبعت هذه الترجمة في بادوا سنة ١٤٩٧ م. وترجمه إلى الفرنسية البارون كارا دي فو في مجلة «موزيون» التي تصدر في لوفان سنة ١٨٩٩.

٢٣ ـ **تهذيب الأصول**: أورده صاحب الطبقات العلية، وذكره الغزالي في «المستصفي» ١/ ٣، والدكتور عبد الرحمن بدوي ٥٩.

٢٤ ـ **جواب الغزالي عن دعوة مؤيد الملك له لمعاودة التدريس بالنظامية في بغداد**:

ذكره دولتشاه في « التذكرة » [نشرة أدوارد ج براون، ليدن سنة ١٩٠١] ص ٩٩. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٣٠.

٢٥ ـ **الجواهر اللآلىء في مثلث الغزالي**: مخطوط بدار الكتب المصرية برقم [٥٥ حروف].

٢٧ ـ **جواهر القرآن ودرره**: طبع في مكة سنة ١٣٠٢، وبمباي بالهندي سنة ١٣١١ هـ، والقاهرة سنة ١٣٢٠ هـ طبع فرج الكردي، وسنة ١٣٥٢ هـ بالمطبعة التجارية.

٢٨ ـ **حجة الحق**: ذكره الغزالي في المنقذ ص ١١٨ طبعة دمشق سنة ١٩٣٤، وصاحب « الطبقات العلية »، وذكره السبكي أيضاً ٤/ ١١٦، وذكره الغزالي في جواهر القرآن ص ٢١، طبعة القاهرة سنة ١٩٣٣، والدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٣.

٢٩ ـ **حقيقة القرآن**: ذكره الغزالي في «المستصفي» ١/ ٦٧. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٦٢.

٣٠ ـ **حقيقة القولين**: ذكره ابن خلكان ١/ ٥٨٧، وحاجي خليفة ٣/ ٨٠، وصاحب « إلطبقات العلية »، وبركلمان الملحق ١/ ٧٥٤. وتوجد منه نسخة مخطوطة في بني جامع ٨٦٥، وفي برلين برقم ٤٨٥٩ Spies BAD 21 .

٣١ ـ **الحكمة في مخلوقات الله عز وجل**: وهو الكتاب الثاني من هذا الموضوع، وسنرجىء الحديث عنه.

٣٢ ـ **خلاصة المختصر ونقاوة المعتصر**: ذكره السبكي ٤/ ١١٦، وهو خلاصة مختصر المزني، وأشار الغزالي إليه في كتابه « إحياء علوم الدين » ١/ ٣٥، وفي « جواهر القرآن » ص ٢٢، وقال إنه أصغر تصانيفه في الفقه.

ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات برقم [١٧٤ فقه شافعي]، عن النسخة السليمانية رقم ٤٤٢ في ١٠٠ ورقة.

٣٣ ـ **الدرج المرقوم بالجداول**: ذكره الغزالي في المنقذ ص ١١٨، طبعة دمشق

سنة ١٩٣٤، وذكره صاحب « الطبقات العلية » بعنوان « الجدول المرقوم ». وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٤١.

٣٤ ـ **الدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة**: وهو الكتاب الأول ضمن هذا المجموع، وسنرجىء الكلام عليه في حينه.

٣٦ ـ **الرسالة الوعظية**: وتسمى أيضاً « الوعظية »، و « مواعظ الغزالي ». طبعت ضمن « الجواهر الغوالي من رسائل الإمام الغزالي ». ص ١٥٣: ١٥٩، القاهرة ١٣٤٣ هـ. ونشرها محيي الدين صبري الكردي.

٣٧ ـ **زاد آخرت**: وقد ذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٤٨، ومنه مخطوط بليدن برقم ٢١٨٤.

٣٨ ـ **سر العالمين وكشف ما في الدارين**: طبع في بومباي، سنة ١٣١٤ هـ، والقاهرة سنة ١٣٢٤، وسنة ١٣٢٧، وطهران بدون تاريخ.

٣٩ ـ **شفاء الغليل في القياس والتعليل**: ذكره السبكي ٤/ ١١٦، وحاجي خليفة ٤/ ٥٤، والدكتور عبد الرحمن بدوي ١٢. ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم [١٥٤ أصول فقه]، والأزهرية برقم [١٠٧] ٤١٨٣ أصول فقه في ١٨١ ورقة. والأمبروزيانا رقم(119 VII) 78 .

٤٠ ـ **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**: ذكره الغزالي في «المنقذ» ص ٩٧، دمشق ١٩٣٤، والمستصفي ١/ ١١٧. وطبع في القاهرة عام ١٣١٩ هـ، ١٣٢٥ هـ بعنوان رسالة في الوعظ والعقائد. وطبع في الهند في مجموع رسائل طبعها قاضي إبراهيم في بمباي، طبع الحجر سنة ١٢٨٣ هـ من ص ٣: ٢٤.

وترجم إلى الألمانية، ترجمه A.I. Runge في Kiel, 1938 . ولخصه بالإسبانية Asim Palacios في El Justo Mrdio en la Creenzia ، مدريد سنة ١٩٢٩.

٤١ ـ **قواصم الباطنية**: ذكره الغزالي في « جواهر القرآن » ص ٢٦. والدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٤.

٤٢ ـ **الكشف والتبيين في غرور الخلق أجمعين**: طبع على هامش « تنبيه

المغرورين » للشعراني، القاهرة سنة ١٣٤٠، وطبع وحده بالقاهرة سنة ١٩٦٠، مكتبة مصطفى الحلبي.

٤٣ ـ **كيمياء السعادة**: طبع النص الفارسي في كلكتا بدون تاريخ، وطبع حجر في لولكنو سنة ١٢٧٩ هـ، وفي بمباي سنة ١٨٨٣ م.

وترجم النص الفارسي إلى التركية مصطفى الواني المتوفى سنة ١٥٩١ م، ولم يطبع، ومنه نسخة مخطوطة في آيا صوفيا برقم ١٧١٩، ١٧٢٠، ٥٢٦. وترجمه أيضاً إلى الإنجليزية عن الترجمة التركية H. A. Homes بعنوان: Alcbmy of bappiness, by Mohammed al — Chazzali, the Mohanımedan Philosophe — Albany, New York, 1873.

أما النص العربي، فقد ذكر الزبيدي في الإتحاف ٤٢/١ أنه يوجد إلى جانب النص الفارسي الكبير نص عربي صغير في أربعة كراريس. وقد طبع النص العربي ضمن مجموعة رسائل طبعها مصطفى كردي، القاهرة سنة ١٣٢٨، ١٣٤٣ هـ.

وترجم النص العربي إلى التركية مصطفى الواني، وطبعت الترجمة في استانبول سنة ١٢٦٠. وترجمت أيضاً إلى الأردية في لولكنو سنة ١٣١٣، وإلى الإنجليزية، والألمانية.

٤٤ ـ **لُباب النظر**: ذكره الغزالي في معيار العلم ص ٢٧، طبع سنة ١٩٢٧. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٩.

٤٧ ـ **محك النظر في الفقه**: ذكره الغزالي في « الإقتصاد في الاعتقاد » ص ١١، المطبعة المحمودية بالقاهرة، والدكتور عبد الرحمن بدوي ٦. ومنه مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم [مجاميع م ٢٢٧]، ومجاميع طلعت ٩٦٧.

٤٥ ـ **المستصفى في علم الأصول**: طبع في بولاق سنة ١٣٢٢ في جزئين، وعلى هامشه « فواتح الرحموت للأنصاري »، والمطبعة التجارية سنة ١٩٣٧ جزءان في مجلد واحد.

٤٦ ـ **المستظهر في الرد على الباطنية**: ذكره السبكي ١١٦/٤ بإسم « المستظهري

في الرد على الباطنية »، وذكره الغزالي في المنقذ ١١٨. وابن العماد ١٣/٤. وترجم أسين بلاثيوس قطعاً منه. وذكره الدكتور عبد الرحمن بدوي ٢٢.

٤٧ ـ **المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى**: طبع بالقاهرة سنة ١٣٢٤، وبالمكتبة العلامية بالقاهرة بدون تاريخ. ومكتبة القرآن بالقاهرة عام ١٩٨٦ بتحقيق محمد عثمان الخشت.

٤٨ ـ **المنقذ من الضلال**: طبع باستانبول سنة ١٢٨٦ هـ، سنة ١٣٠٣ هـ، وبالقاهرة سنة ١٣٠٩، وعلى هامش الإنسان الكامل. وترجم إلى الفرنسية ثلاث مرات، وإلى الانجليزية مرتين، وإلى التركية، والهولندية.

٤٩ ـ **الوجيز**: طبع بالقاهرة مطبعة المؤيد سنة ١٣١٧ في جزءين.

٥٠ ـ **الوسيط**: ذكره ابن خلكان ٣٥٤/٣، والسبكي ١١٦/٤، وابن العماد ١٢/٤. ومنه نسخة مخطوطة في دمياط برقم [عمومية ٤٣ [١٢٤ / ٣١)] ودار الكتب المصرية برقم ٢٠٦ فقه شافعي في ٤ مجلدات. والظاهرية برقم ١٢٧ : ١٢٩، ١٢٤ : ١٢٦ فقه شافعي.

وشرحه عثمان بن عبد الرحمن بن الصلاح، وسمى الشرح « شرح شكل الوسيط »، منه مخطوطة بدار الكتب المصرية، وأخرى بدمياط برقم ٤٣ [١٣٣/٤].

واختصره البيضاوي، وسمى المختصر: « الغاية القصوى » ومنه نسخة بدار الكتب المصرية، ودمياط برقم ٤٨ [٣١٢] عمومية.

هذا إلى جانب عدد كبير من المصنفات التي صنفها حجة الإسلام الغزالي لا تسعها هذه العجالة.

وفاته:

قال ابن عساكر: ومضى إلى رحمة الله تعالى يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى

الآخرة سنة خمس وخمسمائة. ودفن بظاهر قصبة طابران. والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة في الآخرة، كما خصه بقبول العلم في دنياه بمنه.

وقال ابن الجوزي في المنتظم: سأله قبيل الموت بعض أصحابه: أوصني، فقال: «عليك بالإخلاص»، فلم يزل يكررها حتى مات »[1].

(١) انظر ترجمة المصنف في: (وفيات الاعيان ١/ ٤٦٣، وطبقات الشافعية ٤/ ١٠١، وشذرات الذهب ٤/ ١٠، والوافي بالوفيات ١/ ٢٧٧، و Brock. 1:535 (419), S. 1:744، ومفتاح السعادة ٢/ ١٩١: ٢١٠. وتبيين كذب المفتري ٢٩١: ٣٠٦، ومعجم المطبوعات ٤٠٨: ١٤١٦، وآداب اللغة ٣/ ٩١٧، واللباب ٢/ ١٧٠، الاعلام ٧/ ٢٢، ٢٣. والطبقات العلية في مناقب الشافعية، مخطوط من ورقة ٨٤ أ. وإتحاف السادة المتقين ١/ ٢٧ وما بعدها، وتاريخ دمشق لابن عساكر، مخطوط ١/ ٣٤٠، وسير اعلام النبلاء، للذهبي، مخطوط المجلد الثاني عشر لوحة ٧٤ ب).

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب

قال الشيخ الإمام حجة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي رحمه الله ورضي عنه: الحمد لله على جميع نعمه، حتى على توفيقه لحمده، والصلاة على سيد المرسلين محمد نبيه ورسوله وعبده، وعلى آله وأصحابه وخلفائه من بعده، ووزرائه في عهده.

أما بعد: فإنه قد عنَّ لي في بعض أسفاري، أن أستخرج من إحياء علوم الدين لبابه، لتعذر استصحابه مع كبر حجمه، فأقدمت على ذلك، مستوفقاً من الله ومستخيراً له، ومصلياً على نبيه. وهو يشتمل على أربعين باباً.

والله الموفق للصواب.

البـاب الاول

في العلم والتعلم

أعلم أن فضيلة العلم شواهدها من القرآن كثيرة، فمنها قوله تعالى: **﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾**[١] قال ابن عباس رضي الله عنهما: للعلماء درجات فوق المؤمنين بسبعمائة درجة ما بين الدرجتين مسيرة خمسمائة عام. وقال تعالى: **﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾**[٢]. وقال تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[٣] وقال تعالى: **﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾**[٤].

ومن الاخبار قوله عليه السلام: **«العلماء ورثة الأنبياء»** وقال عليه السلام: **«أفضل الناس المؤمن العالم الذي ان احتيج إليه نفع وإن استغني عنه أغنى نفسه»**. وقال عليه السلام: **﴿الإيمان عريان ولباسه التقوى وزينته الحياء وثمرته العلم﴾**. وقال عليه السلام: **«أقرب الناس من درجة النبوة أهل العلم وأهل الجهاد أما أهل العلم فلأنهم قد دلوا الناس على ما جاءت به الرسل وأما أهل الجهاد فجاهدوا بأسيافهم على ما جاءت به الرسل»**.

وقال عليه السلام: **«العالم أمين الله في الأرض»**. وقال عليه السلام: **«تشفع يوم القيامة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»**.

وقال فتح الموصلي: أليس المريض إذا منع الطعام والشرب والدواء يموت؟ قالوا

(١) المجادلة ١١. (٢) الزمر ١٩.

(٣) فاطر ٢٨. (٤) العنكبوت ٤٣.

نعم قال كذلك القلب إذا منع عنه الحكمة، والعلم ثلاثة أيام مات. ولقد صدق إذ غذاء القلب العلم والحكمة، وبهما حياته، كما أن غذاء الجسم الطعام والشراب.

ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم، وليس يشعر به لأن شواغل الدنيا أبطلت إحساسه، فإذا كشف عنه الموت تلك الشواغل احس بألم عظيم وتحسر تحسراً لا آخر له وهو معنى قوله عليه السلام: **«الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»**.

وأما فضيلة العلم فيدل عليها قوله عليه السلام: **«إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع»**. وقال عليه السلام: **«لأن تغدو فتتعلم باباً من العلم خير من أن تصلي مائة ركعة»**.

وقال أبو الدرداء: من رأى أن الغدو إلى العلم ليس بجهاد فقد نقص في رأيه وعقله. وأما فضيلة التعليم فيدل عليها قوله تعالى: **﴿وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه﴾** قال رسول الله ﷺ لما قرأ هذه الآية: **«ما آتى الله عالماً إلا أخذ عليه من الميثاق ما أخذ على النبيين أن تبينه ولا تكتمه»**.

وقال عليه السلام لما بعث معاذاً إلى اليمن **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها»** وقال عمر رضي الله عنه **«من حدث بحديث فعمل به فله مثل أجر ذاك العمل»** وقال معاذ بن جبل في التعليم والتعلم وروايته أيضاً مرفوعاً **«تعلموا العلم فإن تعلم العلم لله حسنة، وطلبه عبادة ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه صدقة وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة والدليل على السراء والضراء، والوزير عند الأخلاء والقرين عند القرناء، ومنار سبيل الجنة، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة هداة يهتدى بهم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم وترمق أفعالهم وترغب الملائكة في حليتهم وبأجنحتها تمسحهم، ويسبح لهم كل رطب ويابس، ولهم يستغفر حتى حيتان البحر وهوامه، وسباع البر وأنعامه والسماء ونجومها، لأن العلم حياة القلوب من العمى ونور الابصار من الظلم وقوة الأبدان من الضعف، يبلغ به العبد منازل الأبرار والدرجات العلى، التفكير فيه يعدل الصيام ومدارسته بالقيام، وبه يطاع الله وبه يعبد وبه يوحد وبه يتورع وبه توصل الارحام، وهو الإمام والعمل تابعه. يلهمه السعداء ويحرمه الاشقياء.**

وأما من حيث العقل فليس تخفى فضيلة العلم إذ به الوصول إلى الله تعالى وإلى قربه وجواره وهو السعادة الأبدية واللذة السرمدية التي لا ينقضي آخرها ففيه عز الدنيا وسعادة الآخرة. والدنيا مزرعة الآخرة فالعالم بعلمه يزرع لنفسه السعادة الأبدية بتهذيب أخلاقه على ما يقتضيه العلم ولعله أيضاً بالتعليم يزرع سعادة الأبد فإنه يهذب أخلاق الناس، ويدعوهم بعلمه إلى ما يقربهم إلى الله تعالى: ﴿أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾[1] فهو يدعو الخواص بالحكمة والعوام بالمواعظ والمعاندين بالجدال فهو ينجو بنفسه وبغيره وهذا هو كمال الانسان.

فصل

في بيان العلم المحمود والمذموم وبيان فرض العين وفرض الكفاية

قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». فمما يجب عليه بعد بلوغه وإسلامه أن يعلم كلمتي الشهادتين وفهم معناهما، وليس يجب عليه إحكامهما بالبراهين، بل يكفي أن يعتقد ذلك من غير ريب وشك، ولو على سبيل التقليد.

وهكذا كان يفعل رسول الله ﷺ، بمن يسلم من أجلاف العرب ثم بعد ذلك يشتغل بتعلم ما يتجدد عليه من أوامر الله تعالى، كالصلاة بحسب تجدد الأوامر فيتعلم الصلاة عند وجوبها ويستعد لها قبل وجوبها، وكذلك الصيام، ويجب عليه تعلم الزكاة إن كان يملك ما تجب فيه الزكاة عند تمام الحول بعد الإسلام، وإنما يجب عليه ذلك بقدر الحاجة وينبه على وجوب الحج عليه ولا يلزمه المبادرة إلى تعلم علمه، كما لا تجب عليه المبادرة إلى أدائه.

ويجب عليه أن يتعلم ما يجب عليه تركه من المعاصي على ممر الأيام بحسب ما تمس إليه الحاجة، فإن خطر بباله شك في معتقداته وجب عليه الخوض في التعلم والنظر بقدر ما يزيل الشك، وتعلم العلم الذي به النجاة من المهلكات والفوز بالدرجات، وتحصيله أيضاً فرض عليك وما وراء ذلك من العلوم فرض كفاية لا فرض عين.

(1) النحل ١٢٥.

اعلم أن درجات العلوم بقدر قربها من علم الآخرة وبعدها، فكما أن علوم الشرعيات تفضل على غيرها من العلوم، فالعلم الذي يتعلق بحقائق الشرعيات يفضل على ما يتعلق بظاهر الأحكام، فالفقيه يحكم على الظاهر بالصحة والفساد ووراءه علم يعرف به كون العبادة مقبولة أو مردودة، وذلك من علوم الصوفية على ما سيأتي، والعلماء المشهورون الذين اتخذ الناس مذاهبهم واقتدوا بهم كانوا قد جمعوا بين علم الفقه وعلوم الحقائق والعمل بها.

وإنما يعرف ذلك بالكشف عن أحوالهم ونقل أقوالهم وهم خمسة: الشافعي ومالك وأبو حنيفة وأحمد بن حنبل وسفيان الثوري رحمة الله عليهم، وكل واحد منهم كان عابداً وزاهداً وعالماً في علوم الآخرة كما كان عالماً بعلوم الفقه الظاهر، الذي يتعلق بمصالح الخلق، وكانوا يريدون بجميع علومهم وجه الله تعالى.

فهذه خمس خصال اتبعهم فيها فقهاء العصر من جملتها خصلة واحدة، وهي النشر والمبالغة في تفاريع الفقه، لأن الخصال الأربع لا تصلح إلا للآخرة وهذه الخصلة الواحدة تصلح للدنيا والآخرة.

ونحن نورد من أحوالهم ما يدل على هذه الخصال الأربع:

أما الشافعي ـ رحمه الله ـ فيدل على كونه عابداً أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء، ثلث للعلم وثلث للصلاة وثلث للنوم، وقال الربيع: كان الشافعي رحمه الله تعالى يختم القرآن في رمضان ستين مرة كل ذلك في الصلاة، وكان البويطي أحد أصحابه يختم القرآن في كل ليلة مرة.

وقال الحسين الكرابيسي رحمه الله تعالى: بت مع الشافعي غير مرة فكان يصلي نحواً من ثلث الليل فما رأيته يزيد على خمسين آية فإذا أكثر فمائة لا يمر على آية رحمة إلا سأل الله تعالى لنفسه ولجميع المؤمنين ولا بآية عذاب إلا تعوذ منها وسأل الله تعالى النجاة لنفسه ولجميع المؤمنين. واقتصاره على خمسين آية يدل على تبحره في أسرار القرآن.

وقال الشافعي: ما شبعت مذ ست عشرة سنة، لأنه يثقل البدن ويقسي القلب ويزيل الفطنة ويجلب النوم ويضعف صاحبه عن العبادة. وقال: ما حلفت بالله

تعالى لا صادقاً ولا كاذباً. قال وسئل عن مسألة فسكت فقيل: ألا تجيب، فقال: حتى أعلم أن الفضل في سكوتي أو في الجواب.

وقال أحمد بن يحيى: خرج الشافعي يوماً من سوق القناديل فتبعناه، فإذا رجل يسفه على رجل من أهل العلم، فالتفت الشافعي إلينا فقال: نزهوا أسماعكم عن استماع الخنا كما تنزهون ألسنتكم عن النطق به، فإن المستمع شريك القائل وإن السفيه لينظر إلى أخبث شيء في وعائه، فيحرص أن يفرغه في أوعيتكم، ولو ردت كلمة السفيه لسعد رادها كما يشقى بها قائلها.

وقال الشافعي: كتب حكيم إلى حكيم، يقول قد أوتيت علماً فلا تدنس علمك بظلمة الذنوب فتبقى في الظلمة يوم يسعى أهل العلم بنور علمهم.

وأما زهده فقد قال رحمه الله: من قال أنه جمع بين حب الدنيا وحب خالقها فقد كذب. وسقط سوطه من يده فرفعه إليه إنسان فأعطاه جزاء عليه خمسين ديناراً، وسخاء الشافعي أشهر من الشمس.

ويدل على خوفه من الله تعالى واشتغال همه بالآخرة، ما روي عنه أنه سمع سفيان بن عيينة يروي حديثاً من الرقائق فغشي على الشافعي فقيل له قد مات فقال إن مات فقد مات أفضل أهل زمانه وقرأ بعضهم ﴿هذا يوم لا ينطقون﴾[1] الآية. فرؤي الشافعي وقد تغير لونه واقشعر جلده واضطرب اضطراباً شديداً، وخرَّ مغشياً عليه فلما أفاق، جعل يقول أعوذ بك من مقام الكذابين وإعراض الغافلين، اللهم لك خضعت قلوب العارفين وذلت لك رقاب المشتاقين، اللهم هب لي جودك وأظلني بسترك واعني واعف عن تقصيري بكرم وجهك.

وأما كونه عالماً بأسرار القلوب، فيدل عليه أنه سئل عن الرياء، فقال: على البديهة: الرياء فتنة عقدها الهوى بحبال أبصار قلوب العلماء فنظروا إليها بسوء اختيار النفوس فأحبطت أعمالهم. وقال: إذا أنت خفت على نفسك العجب فانظر رضا من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب تهرب، وأي عافية تشكر وفي أي بلاء تذكر.

(١) المرسلات ٣٥.

ويدل على أنه أراد بالفقه والمناظرة وجه الله تعالى، أنه قال: وددت أن الناس ينتفعون بهذا العلم وما نسب إلي منه شيء، وهذا قاطع في أنه لم يرد به صيتاً في الناس ومتاع الغرور. وقال: ما ناظرت أحداً قط فأحببت أن يخطىء، وما كلمت أحداً قط إلا أحببت أن يوفق ويسدد ويعان ويكون عليه رعاية من الله تعالى وحفظ، وما كلمت أحداً قط إلا وأنا أريد أن يبين الله تعالى الحق على لسانه أو على لساني.
وقال أحمد بن حنبل: ما صليت صلاة منذ اربعين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي.

وأما الإمام مالك رحمه الله تعالى، فإنه كان متحلياً بهذه الخصال الخمس، ويدل عليه أنه سئل ما تقول يا مالك في طلب العلم فقال: حسن جميل، ولكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى حين تمسي فالزمه. وقال: الشافعي رحمه الله رأيت انه سئل عن اربعين مسألة فقال في اثنتين وثلاثين منها لا ادري. وزهده وورعه أشهر من ان يذكر.

وأما أبو حنيفة رضي الله عنه، فكذلك روي أنه كان يحيي نصف الليل، فأشار إليه إنسان بأن هذا الذي يحيي كل الليل فلم يزل بعد ذلك يحيي الليل كله وقال أنا أستحي أن أوصف بما ليس فيَّ.

وكذلك أحمد بن حنبل وسفيان زهدهما وورعهما أظهر من أن يذكر، وسيأتي في أثناء الكتاب من الحكايات ما يدل على ذلك، فانظر الآن إلى الذين يدعون الاقتداء بهؤلاء صدقوا في دعواهم أم لا.

فصل

في بيان أن جميع العلوم ليست محمودة
يعني بذلك السحر والطلاسم والنجوم والفلسفة وما شابهها

أما السحر والطلاسم فإنهما مؤديان إلى أنواع من الضرر، وأما النجوم فلأنها منهي عنها. إذ قال ﷺ: «إذا ذكر النجوم فأمسكوا». وإنما أمرنا بالامساك لأن الإنسان مشغوف بالاحالة على الأسباب، يعني الوسائط المحسوسة والمتخيلة، ولعله يغفل بسببه عن مسبب الأسباب. وأما الفلسفة فلأدائها إلى أمور على خلاف الشرع، ولا ينكر أن الحسابيات لا يمكن مخالفتها وإنكارها، ولكن هي مدخل إلى ما

وراءها، فليقتصر منها إلى قدر الحاجة، ومن الطبيعيات على الطب للحاجة، ومن النجوم على معرفة المنازل ودلائل القبلة.

فصــل
في آداب المعـلم والمتعـلم

أما المتعلم فآدابه ووظائفه كثيرة ولكن ننظم تفاريقها في سبع جمل.

الوظيفة الأولى: تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق لقوله ﷺ **«بني الدين على النظافة»** وليست النظافة مرادة في الثياب بل في القلب، ويدل عليه قوله تعالى: **﴿إنما المشركون نجس﴾**[1] بين أن النجاسة لا تختص بالثياب، فما لم ينظف الباطن عن الخبائث لا يقبل العلم النافع في الدين ولا يستضيء بنور العلم، قال ابن مسعود: ليس العلم بكثرة الرواية إنما العلم نور يقذف في القلب. وقال بعض المحققين: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله. أي العلم أبى وامتنع علينا فلم تنكشف لنا حقيقته، وإنما حصل لنا حديثه وألفاظه.

الوظيفة الثانية: أن يقلل علائقه ويبعد عن وطنه، حتى يتفرغ قلبه للعلم، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك.

الوظيفة الثالثة: أن لا يتكبر على العلم، ولا يتأمر على المعلم، بل يلقي إليه زمام الاختيار. كالمريض المدنف يلقي زمام الاختيار إلى الطبيب من غير أن يتحكم عليه بشيء في استدعاء نوع من الأنواع دون نوع. وينبغي أن يواظب على خدمة المعلم كما روي أن زيد بن ثابت صلى على جنازة فقربت له بغلة ليركبها فجاء ابن عباس فأخذ بركابه فقال زيد: خل عنك يا ابن عم رسول الله. فقال ابن عباس: كذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء. فقبَّل زيد يده وقال هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا ﷺ. وقال ﷺ: **«ليس من أخلاق المؤمن التملق إلا في طلب العلم»**. وقيل العلم حرب للمتعالي كالسيل حرب للمكان العالي.

الوظيفة الرابعة: أن يحترز عن الاصغاء إلى الاختلافات من الناس، فإن ذلك

(١) التوبة ٢٨.

يورث دهشة وحيرة، فإنه يميل في أول الأمر قلبه إلى كل ما يلقى إليه خصوصاً إلى طرق التعطيل التي توافق الكسل والبطالة، ولا يجوز للمبتدئين الاقتداء بأفعال المنتهين، حتى قال بعضهم: من زارنا في البداية صار صديقاً ومن زارنا في النهاية صار زنديقاً. فإنهم في النهاية سكنت جوارحهم عن الحركات إلا في الفرائض، واستبدلوا بالنوافل سير القلوب ودوام الشهود على الدوام. والغافل يظن به البطالة والكسل **﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب﴾**[1].

الوظيفة الخامسة: أن لا يدفع فناً من فنون العلم المحمودة إلا ويخوض فيه حتى يطلع على مقصوده، فإن ساعده العمر استوفاه وإلا اختار الأهم واختيار الأهم إنما يمكن بعد الاطلاع على الكل.

الوظيفة السادسة: أن يصرف العناية إلى الأهم من العلوم، وهو علم الآخرة أعني بذلك قسم المعاملة والمكاشفة. والمعاملة تفضي إلى المكاشفة، والمكاشفة معرفة الله تعالى، وذلك نور يقذفه الله تعالى في قلب زكي بالعبادة والمجاهدة، وذلك الذي ينتهي إلى رتبة إيمان أبي بكر رضي الله تعالى عنه، الوارد فيه **«لو وزن إيمان أهل الأرض بإيمان أبي بكر رضي الله عنه لرجح»** وذلك لسر وقر في صدره لا لترتيب والحجج.

والعجب ممن يسمع هذه الأقوال من رسول الله ﷺ ثم يزدري بسمعه ما يسمعه من كلام الصوفية على وفقه، ويزعم أنه من ترهات الصوفية، فاتئد في هذا فعنده ضيعت رأس المال فكن حريصاً على معرفة ذلك السر الخارج عن بضاعة الفقهاء والمتكلمين، فلا يرشدك إليه إلا حرصك في الطلب.

فاعلم أن أشرف العلوم وغايتها معرفة الله تعالى وهذا بحر لا يدرك منتهى عوصه، وأقصى درجات البشر فيه رتبة الأنبياء والأولياء، ثم الذين يلونهم. وقد روي أن حكيمين من الحكماء المتعبدين رؤي في يد أحدهما رقعة وفيها، إن أحسنت كل شيء فلا تظن أنك أحسنت كل شيء حتى تعرف الله تعالى، وتعلم أنه مسبب

(١) النمل ٨٨.

الأسباب وموجد الاشياء، وفي يد الآخر رقعة فيها: كنت قبل أن أعرف الله أشرب وأظمأ حتى إذا عرفته رويت بلا شرب.

الوظيفة السابعة: أن يكون قصد المتعلم في الحال تحلية باطنه بما يوصله إلى الله تعالى وإلى جوار الملإ الأعلى من المقربين ولا يقصد به الرياسة والمال والجاه.

بيان وظائف المرشد المعلم:

وأحسن أحواله ما قيل من علم وعمل، فذلك الذي يدعى عظيماً في ملكوت السماء، ولا ينبغي أن يكون كالابرة تكسو غيرها وهي عارية أو ذبالة المصباح تضيء على غيرها وهي تحترق كما قيل:

صرت كأني ذبالة نصبت   تضيء للناس وهي تحترق

ومن تقلد التعليم فقد تقلد أمراً عظيماً فليحفظ آدابه ووظائفه.

الوظيفة الأولى: الشفقة على المتعلم وإجراؤه مجرى الولد، لقوله ﷺ: **«إنما أنا لكم كالوالد لولده»** بل هو الوالد على الحقيقة، لأن الأب سبب الحياة الفانية والمعلم سبب الحياة الباقية، ولذلك يقدم حقه على حق الأبوين. فأما التعليم على قصد الدنيا، فهو إهلاك وأي إهلاك، وإذا كان ذلك فليكن تلامذة الرجل الواحد متحابين، فإن العلماء وأبناء الآخرة مسافرون إلى الله تعالى وسالكون إليه الطريق والدنيا وسنيها وشهورها منازل الطريق، والترافق بين المسافرين من بلد إلى بلد يوجب التحابب والتوادد. فكيف السفر إلى الله تعالى والفردوس الأعلى ولا ضيق فيه، فليكن بعيداً من التنافس والتزاحم لقوله تعالىٰ: **﴿إنما المؤمنون إخوة﴾**[1].

الوظيفة الثانية: الاقتداء به لقوله ﷺ فلا تطلب الأجر على التعليم، قال الله تعالىٰ: **﴿لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً﴾**[2] وهو وإن كان له منّة عليهم، فلهم المنة لكونهم سبب تقربه إلى الله تعالى بغراسة العلم والإيمان في قلوبهم.

الوظيفة الثالثة: أن لا يدخر شيئاً لغد من النصيحة، كمنعه من التصدي لرتبة قبل استحقاقها، والخوض في العلم الخفي قبل إحكام الجلي.

(١) الحجرات ١٠.   (٢) الإنسان ٩.

الوظيفة الرابعة: نصح المتعلم ومنعه من الأخلاق الذميمة، لا بطريق التصريح بل التعريض، فإن التصريح يهتك حجاب الهيبة وينبغي أن يستقيم هو ثم يطالبه بالاستقامة. وإلا فالنصح لا ينفع لأن الاقتداء بالأفعال آكد من الاقتداء بالأقوال.

فصـــل

في آفات العلم وبيان علامات علماء الآخرة وعلماء السوء

قال رسول الله ﷺ: **«أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لا ينفعه الله بعلمه»** وقال ﷺ: **«من ازداد علماً ولم يزدد هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً»** واعلم أن العالم بالخوض في العلم حرم السلامة، فإما الهلاك، وإما السعادة الابدية. قال الخليل بن أحمد: الرجال أربعة: رجل يدري ويدري أنه يدري فذلك عالم فاتبعوه، ورجل يدري ولا يدري أنه يدري فذلك نائم فأيقظوه، ورجل لا يدري ويدري أنه لا يدري فذلك مسترشد فعلموه، ورجل لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فذلك جاهل فاحذروه.

وقال سفيان: يهتف العلم بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل. وقال تعالى: **﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها﴾**[1] وعلماء الآخرة هم الذين لا يأكلون الدنيا بالدين، ولا يبيعون الآخرة بالدنيا لما علموا من عز الآخرة وذل الدنيا، ومن لم يعلم مضادة الدنيا مع الآخرة ومضارتها فليس من العلماء، ومن أنكر ذلك فقد أنكر ما دل عليه القرآن والأخبار وجميع الكتب المنزلة، وقول جميع الأنبياء، ومن علم ذلك ولم يعمل به فهو أسير الشيطان، فقد أهلكته شهوته وغلبت عليه شقوته. ومن اقتدى به هلك وكيف يعد من حزب العلماء من هذه درجته.

وقال في مناجاة داود: أتدري ما أصنع بالعالم إذا آثر شهوته على محبتي، أن أحرمه لذيذ مناجاتي يا داود لا تسألن عني عالماً قد أسكرته الدنيا فيصدك عن طريق محبتي، أولئك قطاع طريق عبادي. يا داود إذا رأيت طالباً فكن له خادماً، يا داود

(١) الأعراف ١٧٥.

من رد إلي هارباً كتبته شهيداً، ومن كتبته شهيداً لم أعذبه بالنار أبداً. وكذلك قال الحسن: عقوبة العلماء موت القلب، وموت القلب طلب الدنيا بعمل الآخرة.

وقال عمر رضي الله عنه: إذا رأيتم العالم محباً للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب. وكان يقول يحيى بن معاذ الرازي لعلماء الدنيا: يا أصحاب العلم قصوركم قيصرية، وبيوتكم كسروية، وأثوابكم ظاهرية، وأخفافكم جالوتية، ومراكبكم قارونية، وأوانيكم فرعونية، ومآتمكم جاهلية، ومذاهبكم شيطانية، فأين الشريعة المحمدية؟ وأنشد:

وراعي الشاة يحمي الذئب عنها فكيف إذا الرعاة لها ذئاب

وقيل:

يا معشر القراء يا ملح البلد ما يصلح الملح إذا الملح فسد

واعلم أن اللائق بالعالم المتدين، أن يكون مطعمه وملبسه ومسكنه وجميع ما يتعلق بمعاشه في دنياه وسطاً، لا يميل إلى الترفه والتنعم ولا يبالغ في هذا الترف، إن لم يبالغ في ترف الزهد فيها. وينبغي له أن يحترز من الدخول على السلاطين وأرباب الدنيا ما أمكنه حذراً من الفتنة.

فصل
في العقل وشرفه

وهو منبع العلم، ويدل على شرفه قوله ﷺ: **«أول ما خلق الله العقل، فقال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر. قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أكرم علي منك، بك آخذ وبك أعطي، وبك أثيب وبك أعاقب»** وقال ﷺ: **«سألت جبرائيل ما السؤدد؟ قال العقل»** وحقيقة العقل غريزة يتهيأ بها إدراك المعلومات النظرية، وكأنه نور يقذف في القلب به يستعد لادراك الأشياء وذلك يتفاوت بتفاوت الغرائز والله أعلم.

***

الباب الثاني
في الاعتقاد

وفيه فصول:

فصل
في ترجمة عقيدة أهل السنة

وهي أنه تعالى وتقدس واحد لا شريك له، فرد لا مثل له، صمد لا ضد له، منفرد لا ند له، وأنه قديم لا أول له أزلي لا بداية له، مستمر الوجود لا آخر له، أبدي لا نهاية له، قيوم لا انقطاع له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال لا يقضى عليه بالانقضاء والانفصال بتصرم الآباد وانقراض الآجال، بل هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

التنزيه:

وأنه ليس بجسم مصور ولا جوهر محدود مقدر، وأنه لا يماثل الاجسام لا في التقدير ولا في قبول الانقسام، وأنه ليس بجوهر ولا تحله الجواهر، ولا بعرض ولا تحله الأعراض. بل لا يماثل موجوداً ولا يماثله موجود، ليس كمثله شيء ولا هو مثل شيء، وأنه لا يحده المقدار ولا تحويه الاقطار ولا تحيط به الجهات ولا تكتنفه الأرض والسموات، وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله وبالمعنى الذي أراده، استواء منزهاً عن المماسة والاستقرار والتمكن والحلول والانتقال لا يحمله العرش، بل العرش وحملته محمولون بلطف قدرته ومقهورون في قبضته.

وهو فوق العرش وفوق كل شيء إلى تخوم الثرى فوقية لا تزيده قرباً إلى العرش والسماء، كما لا تزيده بعداً عن الأرض والثرى، بل هو رفيع الدرجات عن

العرش كما أنه رفيع الدرجات عن الثرى، وهو مع ذلك كله قريب من كل موجود وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد وهو على كل شيء شهيد. إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء تعالى عن أن يحويه مكان، كما تقدس عن أن يحده زمان، بل كان قبل أن يخلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان، وأنه بائن عن خلقه بصفاته ليس في ذاته سواه ولا في سواه ذاته.

وأنه مقدس عن العوارض من التغيير والانتقال لا تحله الحوادث ولا تعتريه العوارض، بل لا يزال في نعوت الجلال منزهاً عن الزوال، وفي صفات كماله مستغنياً عن زيادة الاستكمال. وأنه في ذاته معلوم الوجود بالعقول مرئي الذات بالابصار، نعمة منه ولطفاً بالابرار في دار القرار، وإتماماً منه للنعيم بالنظر إلى وجهه الكريم.

الحياة والقدرة:

وأنه حي قادر جبار قاهر. لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم. ولا يعارضه فناء ولا موت. وأنه ذو الملك والملكوت والعزة والجبروت له السلطان والقهر والخلق والأمر. والسموات مطويات بيمينه. وأنه المنفرد بالخلق والاختراع المتوحد بالايجاد والابداع. خلق الخلق وأعمالهم، وقدر أرزاقهم وآجالهم. لا تحصى مقدوراته ولا تتناهى معلوماته.

العلم:

وأنه عالم بجميع المعلومات، محيط علمه بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلي لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال، لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.

الإرادة:

وأنه تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت

قليل أو كثير صغير أو كبير خير أو شر، نفع أو ضر إيمان أو كفر، عرفان أو نكر فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، كفر أو إيمان، إلا بإرادته وبقضائه وقدره وحكمته ومشيئته. لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر ولا فلتة خاطر. فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فهو المبدىء المعيد الفعال لما يريد.

لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته إلا بمحبته وإرادته، لو اجتمعت الانس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا في العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عنه. وإن إرادته قائمة بذاته في جملة صفاته لم يزل كذلك موصوفاً بها، مريداً في أزله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها فوجدت في أوقاتها كما قدرها وأرادها في أزله من غير تقدم ولا تأخر. دبر الامور كلها لا بترتيب أفكار وتربص زمان، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.

السمع والبصر:

وأنه تعالى سميع بصير يسمع ويرى، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي ولا يغيب عن رؤيته مرئي وإن دق، ولا يحجب سمعه بعد ولا يدفع رؤيته ظلام يرى من غير حدقة ولا أجفان، ويسمع من غير أصمخة وآذان كما يعلم بغير قلب ويبطش بغير جارحة ويخلق بغير آلة إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.

الكلام:

وأنه تعالى متكلم آمر ناهٍ واعد متوعد بكلام أزلي قديم قائم بذاته لا يشبه كلامه كلام الخلق فليس بصوت يحدث من انسلال هواء أو اصطكاك أجرام ولا بحرف ينقطع بأطباق شفة أو تحريك لسان.

وأن القرآن والتوراة والإنجيل والزبور كلامه وكتبه المنزلة على رسله، وأن القرآن مقروء بالألسنة مكتوب في المصاحف محفوظ في القلوب، وأنه مع ذلك قديم قائم بذات الله تعالى لا يقبل الانفصال والافتراق بالانتقال إلى القلوب والأوراق، وأن موسى ﷺ سمع كلام الله بغير صوت ولا حرف، كما يرى الأبرار ذات الله تعالى من غير جوهر ولا عرض، وإذا كانت له هذه الصفات، كان حياً عالماً قادراً مريداً

سميعاً بصيراً متكلماً بالحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام لا بمجرد الذات .

الأفعال :

وأنه لا موجود سواه ، إلا وهو حادث بفعله وفائض من عدله على أحسن الوجوه وأكملها وأعدلها وأتمها ، وأنه حكيم في أفعاله عادل في أقضيته ، لا يقاس عدله بعدل العباد ، فإن العبد يتصور منه الظلم بتصرفه في ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله تعالى ، فإنه لا يصادف لغيره ملكاً حتى يكون تصرفه فيه ظلماً . فكل ما سواه من جن وإنس وشيطان وملك وسماء وأرض وحيوان ونبات وجماد وجوهر وعرض ومدرك ومحسوس ، حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً وأنشأه بعد أن لم يكن شيئاً .

إذ كان في الأزل موجوداً وحده ، ولم يكن معه غيره ، فأحدث الخلق إظهاراً لقدرته وتحقيقاً لما سبق من إرادته ، ولما حق في الأزل من كلمته لا لافتقاره إليه وحاجته . وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالإنعام والاصلاح لا عن لزوم . وأنه لو صب عليهم العذاب صباً لكان منه عدلاً .

وأنه يثيب عباده على الطاعات كرماً لا بالاستحقاق واللزوم . وأنه وجب حقه في الطاعة بإيجابه على لسان أنبيائه لا بمجرد العقل ، ولكن بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعده ووعيده ، فوجب على الخلق تصديقهم فيما جاؤوا به .

معنى الكلمة الثانية :

وهي الشهادة للرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وأنه تعالى بعث الرسول النبي الأمي الهادي القرشي محمداً ﷺ برسالته إلى كافة العرب والعجم والجن والإنس ، فنسخ بشرعه الشرائع إلا ما قرر وفضله على سائر الأنبياء وجعله سيد البشر .

ومنع كمال الإيمان بشهادة التوحيد وهو قول لا إله إلا الله ، ما لم يقترن بها

شهادة الرسول ﷺ ، وهو قولك محمد رسول الله ، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر عنه من الدنيا والآخرة .

وأنه لا يقبل إيمان عبد حتى يؤمن بما أخبر عنه بعد الموت ، وأوله سؤال منكر ونكير ، وهما شخصان مهيبان هائلان يقعدان العبد في قبره سوياً ، ذا روح وجسد فيسألانه عن التوحيد والرسالة ، ويقولان له : من ربك وما دينك ومن نبيك وهما فتانا القبر ، وسؤالهما أول فتنة تعرض بعد الموت ، وأن يؤمن بعذاب القبر وأنه حق ، وحكمه عدل على الجسم والروح على ما يشاء .

ويؤمن بالبعث والنشور وأنه تعالى يحيي العظام وهي رميم ، كما أنشأها أول مرة ، ويرد الروح في الجسد كما هو في الدنيا قبل الموت ويجعله شخصاً سوياً . ويؤمن بالميزان ذي الكفتين واللسان ، وصفتهما في العظم مثل طباق السموات والأرض ، توزن فيهما الأعمال بقدرة الله تعالى . والصنج يومئذ مثاقيل الذر والخردل تحقيقاً لتمام العدل وتطرح صحائف الحسنات في كفة النور فيثقل بها الميزان على قدر درجاتها عند الله تعالى بفضل الله ، وتطرح صحائف السيئات في كفة الظلمة فيخفف بها الميزان بعدل الله تعالى .

وأن يؤمن بأن الساعة حق وأن الصراط حق ، وهو جسر ممدود على متن جهنم أحدّ من السيف وأدق من الشعرة ، تزل عليه أقدام الكافرين فيساقون إلى النار ، وتثبت عليه أقدام المؤمنين فيساقون إلى دار القرار .

وأن يؤمن بالحوض المورود حوض نبينا محمد ﷺ يشرب منه المؤمنون قبل دخول الجنة ، وبعد جواز الصراط من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً ، عرضه مسيرة شهر أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل ، حوله أباريق عددها عدد نجوم السماء ، فيه ميزابان من الكوثر .

ويؤمن بالحساب وتفاوت الخلق فيه إلى مناقش في الحساب ، وإلى مسامح فيه ، وإلى من يدخل الجنة بغير حساب ، وهم المقربون . ويسأل من شاء من الأنبياء عن تبليغ الرسالة ، ومن شاء من الكفار عن تكذيب المرسلين ويسأل المبتدعة عن السنة ويسأل المسلمين عن الأعمال .

ويؤمن بإخراج المؤمنين الموحدين من النار، بعد الانتقام حتى لا يبقى في جهنم موحد بفضل الله تعالى، ويؤمن بشفاعة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء ثم سائر المؤمنين، كل على حسب جاهه ومنزلته من الله عز وجل. ومن بقي من المؤمنين ولم يكن له شفيع أخرج بفضل الله تعالى فلا يخلد في النار مؤمن. بل يخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة من الإيمان.

وأن يعتقد فضل الصحابة وترتيبهم وأن أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ أبو بكر، ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضي الله عنهم، وأن يحسن الظن بجميع الصحابة ويثني عليهم، كما أثنى الله تعالى ورسوله ﷺ عليهم فكل ذلك مما وردت به الأخبار وشهدت به الآثار. فمن اعتقد جميع ذلك موقناً به، كان من أهل الحق وعصابة السنة، وفارق أهل الضلالة والبدعة. فنسأل الله كمال اليقين والثبات على الدين، لنا ولكافة المسلمين إنه أرحم الراحمين.

فصل
في وجه التدريج إلى الإرشاد

واعلم أن الصبي في أول نشوئه مستعد لقبول الحق، من غير برهان بفطرة الله تعالى. فليلق إليه ترجمة العقيدة حتى يحفظ فلا يزال يفهم بعد ذلك شيئاً فشيئاً، ويترشح في باطنه فلا يحتاج إلى أن يثبت ذلك بالبراهين، ثم لا يخوض العاقل في طلب البراهين إلا بقدر الحاجة، والحاجة فيه أن يعرض له إشكال فيتصدى لما يزيله.

وأما الخوض في علم الكلام على سبيل الابتداء فمثله كإلقاء الرجل نفسه في البحر ليسبح فإنه ربما لا يسلم اعتقاده عند الاصغاء إلى الشبه، نعم ينبغي أن يكون في الناس من يقوم به إذا مست الحاجة إليه، في دفع المبتدع أو إزالة شبهته.

فصل
معنى الإسلام هو الإذعان والتسليم
ومعنى الإيمان هو قبول القلب

والله تعالى ذكرهما في القرآن مرة فأراد بهما شيئاً واحداً فقال تعالى: ﴿ **فأخرجنا**

من كان فيها من المؤمنين فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ﴾[1] ولم يكن إلا بيت واحد. وذكرهما مرة بمعنيين مختلفين في قوله تعالى: ﴿ **قالت الأعراب آمنّا، قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا** ﴾[2] يعني أذعنتم ولم تنشرح به صدوركم.

(١) الذاريات ٣٥.   (٢) الحجرات ١٤.

الباب الثالث

في أسرار الطهارة

قال رسول الله ﷺ : « **الوضوء شطر الإيمان** » وقال ﷺ : « بني الدين على **النظافة** » وقال : « مفتاح الصلاة الطهور » وقال تعالى : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾[1] الآية .

وللطهارة أربع مراتب:

الأولى: تطهير الظاهر عن الأحداث .

والثانية: تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام .

والثالثة: تطهير القلب عن الأخلاق الذميمة .

والرابعة: تطهير السر عما سوى الله تعالى ، وهي طهارة الأنبياء والصديقين .

والطهارة في كل رتبة نصف العمل الذي فيها ففي كل رتبة تخلية وتحلية ، والتخلية نصف العمل لكون الآخر موقوفاً عليه . وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿ **قل الله ثم ذرهم** ﴾[2] فقوله ثم ذرهم تخلية عما سوى الله تعالى ، وكذلك القلب لا بد من تخليته عن الأخلاق الذميمة ، ثم تحليته بالأخلاق المحمودة ، وكذلك في الجوارح لا بد من تخليتها من الآثام ثم تحليتها بالطاعة . وكل واحد من هذه المراتب شرط للخوض فيما بعده . فتطهير الظاهر ثم تطهير الروح ثم تطهير القلب ثم تطهير السر .

فلا ينبغي أن تظن أن المراد بالطهارة ، تطهير الظاهر فحسب فيفوتك ما هو المقصود . ولا تظن أن هذه المراتب في الظاهر تدرك بالمنى وتنال بالهوينا فإنك لو شمرت له طول عمرك فربما تفوز فيه ببعض المقاصد .

---

(١) التوبة ١٠٨ . (٢) الانعام ٩١ .

فصل

في طهارة الأحداث

وهي الوضوء والغسل والتيمم ويتقدمها الاستنجاء ، ونحن نورد كيفيتها بآدابها وسننها مبتدئين بقضاء الحاجة ، لأنه سبب الوضوء .

آداب قضاء الحاجة :

ينبغي أن يبعد عن نظر الناظرين إليه في الصحراء ، وأن يستتر بشيء إن وجده ، ولا يكشف عن عورته قبل الإنتهاء إلى موضع الجلوس . وأن لا يستقبل القبلة ولا يستدبرها ، وأن لا يستقبل الشمس والقمر إلا إذا كان في بناء ، والعدول في الأبنية أيضاً مستحب . ولا يبول في الماء الراكد ولا تحت الشجرة المثمرة ولا في الجحر .

ويتوقى المواضع الصلبة ومهاب الرياح احترازاً من الرشاش . ويقدم الرجل اليسرى في دخوله واليمنى في خروجه من البناء ، ولا يبول قائماً ولا يبول في المغتسل فإنه ﷺ قال : « عامة الوسواس منه » . ولا يستصحب شيئاً عليه اسم الله أو رسوله ﷺ . ولا يدخل بيت الماء حاسر الرأس . ويقول عند الدخول : بسم الله أعوذ بالله من الخبث والخبائث أو من الخبيث الشيطان الرجيم . وعند الخروج : الحمد لله الذي أذهب عني ما يؤذيني وأبقى في ما ينفعني .

ويكون في الدخول والخروج ذاكراً الله تعالى خارج بيت الماء ، وأن يعد النبل قبل الجلوس ، وأن لا يستنجي في موضع قضاء الحاجة . وأن يستبرىء من البول بالتنحنح والنتر ثلاثاً ، وإمرار اليد على أسفل القضيب . وإن غلب عليه الوسواس فليرش الماء على سراويله . وفي الخبر أنه عليه السلام فعل ذلك أعني الرش ، ونهى أن يستنجي بروث أو عظم ، ويستنجي بثلاثة أحجار . ويستحب أن يجمع بين الماء والحجر ، واستعمال الحجر أن يضعه على المؤخر ويمر بها إلى المقدم ، وإن قدر على الإدارة كان أولى والإنقاء لا بد منه ، وبالأوتار مستحب .

كيفية الوضوء :

ولم ير رسول الله ﷺ خارجاً من الغائط إلا توضأ . قال عليه السلام : « لا

يحافظ على الوضوء إلا مسلم » وينبغي أن يبتدىء بالسواك قال ﷺ : **« صلاة على إثر سواك أفضل من خمس وسبعين صلاة بغير سواك »** . ثم يجلس للوضوء، فيقول: بسم الله الرحمن الرحيم قال ﷺ : **« لا وضوء لمن لم يسم الله تعالى »** ويقول: أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون.

ثم يغسل يديه ثلاثاً قبل أن يدخلهما الإناء ويقول اللهم إني أسألك اليمن والبركة وأعوذ بك من الشؤم والهلكة، وينوي رفع الحدث أو استباحة الصلوات، ويستديم النية إلى غسل الوجه. ثم يأخذ غرفة لفيه بيمينه فيتمضمض بها ثلاثاً ويبالغ في المضمضة والاستنشاق إلا أن يكون صائماً فيرفق، ويقول: اللهم أعني على قرارة كتابك وكثرة الذكر لك.

ثم يغرف لأنفه ويستنشق بغرفة واحدة ثلاثاً ويستنثر ما فيه ويقول فيه: اللهم أوجد لي رائحة الجنة وأنت عني راضٍ. ويقول في الاستنثار: اللهم إني أعوذ بك من روائح النار ومن سوء الدار.

ثم يغرف غرفة لوجهه ويغسل من مبتدأ سطح الجبهة إلى منتهى ما يقبل من الذقن طولاً ومن الأذن إلى الأذن عرضاً؛ ولا يجب غسل النزعتين فهما من الرأس، ويجب إيصال الماء إلى موضع التحذيف وهو ما يعتاد النساء تنحية الشعر عنه، ويجب إيصال الماء إلى منابت الشعور الأربعة، وهي الشاربان والحاجبان والهدبان والعذاران، ويجب إيصال الماء إلى ما يقبل من الوجه إذا كانت اللحية خفيفة دون الكثيفة، وحكم العنفقة كحكم اللحية في الكثافة والخفة. ويفيض الماء على ظاهر ما استرسل من اللحية، ويدخل الأصابع في محاجر العينين ومواضع الرمص ومجتمع الكحل وينقيها ويقول: اللهم بيّض وجهي بنورك يوم تبيضُّ وجوه أوليائك، ولا تسود وجهي بظلماتك يوم تسودّ وجوه أعدائك. وتخليل اللحية مستحب.

ثم يغسل يديه إلى المرفقين ثلاثاً، ويحرك الخاتم ويطيل الغرة، فإنه روي أن الحلية تبلغ موضع الوضوء. ويبدأ باليمنى ويقول: اللهم أعطني كتابي بيميني وحاسبني حساباً يسيراً. ويقول عند غسل الشمال: اللهم إني أعوذ بك أن تعطيني كتابي بشمالي أو من وراء ظهري.

ثم يستوعب رأسه بالمسح بأن يبل يديه ويلصق رؤوس أصابع اليمنى

باليسرى، ويضعهما على مقدم الرأس ويمرهما إلى القفا ويردهما إلى المقدم، هكذا يفعل ثلاث مرات ويقول: اللهم أغثني برحمتك وانزل علي من بركتك وأظلني تحت عرشك يوم لا ظل إلا ظلك.

ثم يمسح أذنيه ظاهرهما وباطنهما بماء جديد فيدخل مسبحتيه في صماخي أذنيه ويدير إبهاميه على ظاهرهما. ثم يضع الكف على الأذنين استظهاراً ويكرره ثلاثاً ويقول: اللهم اجعلني من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اللهم أسمعني منادي الجنة مع الأبرار. ثم يمسح رقبته لقوله ﷺ : **« مسح الرقبة أمان من الغل يوم القيامة »** ويقول: اللهم أعتق رقبتي من النار، ثلاثاً، وأعوذ بك من السلاسل والأغلال.

ثم يغسل رجله اليمنى ثلاثاً ويخلل بخنصره يده اليسرى من أسفل أصابع الرجل اليمنى، ويبدأ من الخنصر من الرجل اليمنى ويختم بالخنصر من اليسرى، ويقول: اللهم ثبت قدمي على الصراط يوم تزل الأقدام في النار. ويقول عند غسل القدم اليسرى: اللهم إني أعوذ بك أن يزل قدمي عن الصراط يوم تزل أقدام المنافقين. ويرفع الماء إلى أنصاف الساقين.

وإذا فرغ قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده رسوله. ويقول: سبحانك اللهم وبحمدك لا إله إلا أنت عملت سوءاً وظلمت نفسي، أستغفرك وأتوب إليك فاغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الرحيم، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين واجعلني من عبادك الصالحين واجعلني صبوراً شكوراً، واجعلني أذكرك ذكراً كثيراً، وأسبحك بكرة وأصيلاً.

فمن فعل هذا ختم على وضوئه بخاتم ورفع له تحت العرش، يسبح الله تعالى ويقدسه ويكتب له ثوابه إلى يوم القيامة.

ويكره في الوضوء أن يزيد على الثلاث وأن يسرف في الماء، ويكره أن ينفض اليد فيرش الماء وأن يتكلم في أثناء الوضوء.

كيفية الغسل:

أن يستنجي ويتوضأ كما سبق، ويؤخر غسل الرجلين فيصب الماء على شقه الأيمن ثم على شقه الأيسر ثلاثاً، ثم يدلك ما أقبل من بدنه وما أدبر.

ويخلل الشعر ويوصل الماء إلى منابت الشعر خف أو كثف فإن تحت كل شعرة جنابة، وليس على المرأة أن تنقض الضفائر إلا إذا علمت أن الماء لا يصل إلى خلالها.

ويتحفظ أن لا يمس الذكر فينتقض الوضوء، وليتعهد معاطف البدن ولا ينسى النية في افتتاح الغسل. والواجب في الوضوء النية عند غسل الوجه وغسل اليدين إلى المرفقين والمسح وغسل الرجلين إلى الكعبين والموالاة ليست واجبة في الاغتسال.

والأغسال الواجبة أربعة: الغسل لخروج المني والتقاء الختانين والحيض والنفاس.

وما عداه من الأغسال سنة كغسل الجمعة والعيدين والإحرام والوقوف بعرفة ومزدلفة ودخول مكة وثلاثة أغسال أيام التشريق ولطواف الوداع على قول، والكافر إذا أسلم غير جنب، والمجنون إذا أفاق، ولمن غسل ميتاً فالكل مستحب فافهم تغنم.

كيفية التيمم:

من تعذر عليه استعمال الماء تفقده بعد الطلب أو بمانع له عن الوصول إليه من سبع وحائل وحابس، أو كان الماء الحاضر يحتاج إليه لعطشه أو عطش رفيقه أو كان ملكاً لغيره، ولم يبع إلا بأكثر من ثمن مثله، أو كان به جراحة أو مرض يخاف من استعمال الماء فساد العضو أو شدة الضنى. فيصبر حتى يدخل عليه وقت الصلاة.

ثم يقصد صعيداً طيباً عليه تراب خالص طاهر لين ويضرب عليه يديه ضاماً بين أصابعه وينوي استباحة الصلاة ويمسح بهما وجهه كله مرة واحدة، ولا يتكلف إيصال التراب إلى منابت الشعور بحال ويستوعب بشرة وجهه بالتراب أو الغبار. ويحصل ذلك بالضربة الواحدة، فإن عرض الوجه لا يزيد على عرض الكفين.

ثم ينزع خاتمه ويضرب ضربة ثانية لليد يفرج بين أصابعه، ثم يلصق ظهور أصابع يده اليمنى ببطون أصابع يده اليسرى، بحيث لا يجاوز أطراف الأنامل من إحدى الجهتين عرض المسبحة من الأخرى.

ثم يمر يده اليسرى من حيث وضعها على ظهار ساعد اليمنى إلى المرفق، ثم

يقلب كفه اليسرى على باطن ساعد اليمنى، ويمرها إلى الكوع ويمر بطن إبهامه اليسرى على ظهر إبهامه اليمنى.

ثم يفعل باليد اليسرى كذلك.

ثم يمسح كفيه ويخلل بين أصابعه وغرض هذا التكلف الاستيعاب بضربة واحدة، ولا بأس بأن يستوعب بضربتين وزيادة إن تعذر بضربة وله أن يصلي بالتيمم فرضاً واحداً، وما شاء من النوافل.

فصل

يستحب التنظيف من الأوساخ التي تكون على الرأس، وفي الأذن وفي الأنف وتنظيف الرواجب، وهي رؤوس الأنامل وما تحت الأظفار من الوسخ. ويكره تأخير تقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة لأكثر من أربعين يوماً.

ويدخل الحمام بشرط أن يستر عورته ويحترز من الاطلاع على عورات الناس. وينوي بالدخول التنظيف لأجل الصلاة ويقول عند دخوله ما يقول عند دخول بيت الماء، وكذلك عند الخروج.

وإذا أراد تقليم الأظفار ابتدأ بمسبحة يده اليمنى ويختم بإبهامه اليمنى، وابتدأ في اليسرى بالخنصر إلى الإبهام وينبغي أن يكتحل وتراً.

وروي أنه عليه السلام كان يكتحل في اليمنى ثلاثاً وفي اليسرى اثنين ليكون الجميع وتراً.

ولا ينبغي أن يكون فعل من أفعالك خالياً عن نوع ترتيب لا بحسب الاتفاق فهو الفرق بين البهائم والآدمي فالبهيمة تحرك كيفما اتفق والآدمي كيفما أمر.

وختان الولد ينبغي أن يتأخر عن اليوم السابع من الولادة مخالفة لليهود، قال عليه السلام: «**الختان سنة للرجال ومكرمة للنساء**».

وقال النخعي عجبت لرجل عاقل طويل اللحية كيف لا يأخذ من لحيته فيجعلها بين لحيتين فإن التوسط في كل شيء حسن، ويكره في اللحية الخضاب بالسواد

والتبيض بالكبريت، ونتف الشيب منها والنقصان منها والزيادة، وتسريحها تصنعاً للرياء وتركها شعثة إظهاراً للزهد.

قال كعب: يكون في آخر الزمان أقوام يقصون لحاهم كذنب الحمامة ويعرقبون نعالهم كالمراجل أولئك لا خلاق لهم.

***

الباب الرابع

في أسرار الصلاة ومهماتها

وفيه فصول:

فصل

في فضائل الصلوات والسجود والجماعة والأذان وغيرهما

فضيلة الأذان:

قال عليه السلام: «ثلاث يوم القيامة على كثيب من مسك أذفر ولا يهمهم حساب ولا ينالهم فزع حتى يفرغ ما بين الناس: رجل قرأ القرآن ابتغاء وجه الله تعالى ورجل ابتلي بالرق في الدنيا فلم يشغله ذلك عن عمل الآخرة. ورجل أذن للصلاة».

وقال عليه السلام: «يد الرحمن على رأس المؤذن حتى يفرغ من أذانه». وقيل المراد من قوله تعالى: ﴿ومن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله﴾[1] المؤذنون.

فإذا سمعت الأذان، فقل مثل ما يقول المؤذن إلا في الحيعلتين، فإنك تقول لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وفي قوله قد قامت الصلاة أقامها الله وأدامها ما دامت السموات والأرض.

وفي التثويب صدقت وبررت. وعند الفراغ اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة والمقام المحمود الذي وعدته.

(١) فصلت ٣٣.

فضيلة المكتوبة:

قال عليه السلام: «**الصلوات كفارات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**». وقال: «**بيننا وبين المنافقين شهود العتمة والصبح لا يستطيعونها**» وقال عليه السلام: «**الصلاة عماد الدين فمن تركها ترك الدين**» ويروى أن أول ما ينظر فيه يوم القيامة من عمل العبد الصلاة، فإن وجدت تامة قبلت منه وسائر عمله وإن وجدت ناقصة ردت عليه وسائر عمله.

فضيلة إتمام الأركان:

قال عليه السلام: «**مثل الصلاة المكتوبة كمثل الميزان من أوفى استوفى**» وقال عليه السلام: «**إن الرجلين من أمتي ليقومان إلى الصلاة وركوعهما وسجودهما واحد وإن ما بين صلاتهما ما بين السماء والأرض**» وأشار إلى الخشوع. وقال عليه السلام: «**أسوأ الناس سرقة من سرق من صلاته**».

فضيلة الجماعة:

قال عليه السلام: «**صلاة الجماعة تفضل صلاة الفذ بسبع وعشرين درجة**» وقال ابن عباس: من سمع المنادي ولم يجب لم يرد خيراً ولم يرد به.

وقال عليه السلام: «**من صلى أربعين يوماً الصلاة في جماعة لا يفوته فيها تكبيرة الإحرام كتب الله له براءتين براءة من النفاق وبراءة من النار**».

فضيلة السجود:

وقال عليه السلام: «**ما تقرب العبد إلى الله تعالى بشيء أفضل من السجود الخفي**». وروي أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ: ادع الله أن يجعلني من أهل شفاعتك وأن يرزقني مرافقتك في الجنة. قال: «**أعني بكثرة السجود**».

وقال أبو هريرة أقرب ما يكون العبد إلى الله تعالى إذا سجد فأكثروا الدعاء عند ذلك.

فضيلة الخشوع:

قال الله تعالى: ﴿**وأقم الصلاة لذكري**﴾[1]. وقال عليه السلام: «**إنما الصلاة تمسكن وتواضع وتضرع وتأسف وندم، وتضع يديك فتقول اللهم اللهم فمن لم يفعل فهي خداج خداج**». وقال عليه السلام: «**إذا صليت صلاة، فصل صلاة مودع**» أي مودع لنفسه مودع لهواه سائر إلى مولاه.

وقال عليه السلام: «**من لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بعداً**» واعلم أن الصلاة مناجاة فكيف تمكن مع الغفلة.

وقال عليه السلام: «**لا ينظر الله إلى صلاة لم يحضر الرجل فيها قلبه مع بدنه**» وكان إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة سمع وجيب قلبه من ميلين.

فضيلة بناء المسجد:

قال عليه السلام: «**من بنى مسجداً لله ولو كمفحص قطاة بنى الله له قصراً في الجنة**» وقال تعالى[2]: [**إن بيوتي في أرضي المساجد وإن زواري فيها سكانها وعمارها فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارني في بيتي فحق على المزور أن يكرم زائره**].

وقال عليه السلام: «**إذا رأيتم الرجل يختار المسجد فاشهدوا له بالإيمان**». قال أنس: من أسرج سراجاً في المسجد لم تزل الملائكة وحملة العرش يستغفرون له ما دام في ذلك المسجد ضوء.

فصل
في كيفية الأعمال الظاهرة من الصلاة

ينبغي للمصلي إذا فرغ من الوضوء وطهارة الخبث والقلب والمكان ومن ستر العورة من السرة إلى الركبة. أن ينتصب قائماً متوجهاً إلى القبلة ويزاوج بين قدميه ولا يضمهما البتة فإنه عليه السلام نهى عن الصفن والصفد في الصلاة، والصفد هو

(١) طه ١٤. (٢) أي في حديث قدسي.

إقران القدمين معاً ومنه قوله تعالى: ﴿ **مقرنين في الأصفاد** ﴾[1] والصفن هو رفع إحدى الرجلين ومنه قوله عز وجل: ﴿ **إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد** ﴾[2].

ويطرق راسه ويقصر بصره على مصلاه، ويحضر النية، ولا بأس بقراءة، قل أعوذ برب الناس تحصناً بها من الشيطان.

وينوي في الظهر مثلاً ويقول بقلبه أؤدي فرض الظهر لله ليميز بقوله أؤدي عن القضاء، وبقوله الظهر عن العصر وبالفرض عن النفل، ويجتهد في استدامة ذلك إلى آخر التكبير ويحاذي بكفيه منكبيه وبإبهاميه شحمة أذنيه وبرؤوس أصابعه رؤوس أذنيه.

فذلك جمع بين الأخبار الواردة ولا يتكلف في أصابعه ضماً ولا تفريجاً ويكبر مع حضور النية كما سبق ويرسل يديه مع التكبير ويضع اليمنى على اليسرى وفوق السرة وتحت الصدر وتكون اليمنى كالمحمولة وينشر المسبحة والوسطى من اليمنى على طول ساعد اليسرى، ويقبض البنصر والخنصر على كوع اليسار، ثم يبتدىء بدعاء الاستفتاح.

وحسن أن يقال عقيب قوله الله أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً، ثم وجهت وجهي إلى قوله وما أنا من المشركين، ثم يقول سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك، ثم يقول أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ويبتدىء بقراءة الفاتحة بتمام تشديداتها وحروفها ويجتهد في الفرق بين الضاد والظاء ويقول آمين، ويمدها ولا يصل آمين بقوله ولا الضالين.

ويقرأ في الصبح بطوال المفصل، وفي المغرب بقصاره وفي الباقي من الصلوات نحو والسماء والطارق ونحو والسماء ذات البروج وما قاربها، وفي الصبح في السفر، قل يا أيها الكافرون، وقل هو الله أحد، وكذلك في ركعتي الفجر والطواف والتحية.

(١) ابراهيم ٤٩. (٢) ص ٣١.

الركوع:

ثم يركع فيراعي فيه أموراً أن يكبر للركوع وأن يرفع يديه مع تكبيرة الركوع ويمد التكبير مداً إلى الانتهاء إلى الركوع، ويضع راحتيه على ركبتيه وأصابعه منشورة على طول الساق، وينصب ركبتيه ويمد ظهره مستوياً فيكون عنقه وظهره ورأسه كالصفيحة الواحدة، وأن يجافي مرفقيه عن جنبيه بخلاف المرأة ويسبح ثلاثاً، والزيادة حسن للمنفرد.

ثم يرتفع إلى القيام وينتصب قائماً قائلاً سمع الله لمن حمده ويقول ربنا لك الحمد ملء السموات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد، ولا يطول هذا القيام إلا في صلاة الصبح للقنوت.

والسجود:

ثم يهوي إلى السجود مكبراً ماداً تكبيره إلى الانتهاء إلى السجود، فيضع ركبتيه وجبهته ويضع كفيه مكشوفتين على الأرض ويضع أولاً ركبتيه ثم يديه ثم يضع أنفه مع جبهته ويجافي مرفقيه عن جنبيه بخلاف المرأة ويفرج بين رجليه ولا تفعل ذلك المرأة، ويكون مخوياً ولا تكون المرأة مخوية.

ويضع يديه على الأرض حذاء منكبيه ولا يفرج بين الأصابع ولا يفرش ذراعيه على الأرض كما يفرش الكلب فإنه منهي عنه. ويقول سبحان ربي الأعلى ثلاثاً ولا بأس بالزيادة للمنفرد.

ويرفع رأسه من السجود مكبراً فيطمئن جالساً على رجله اليسرى وينصب قدمه اليمنى ويضع يديه على فخذيه ولا يتكلف ضم الأصابع، ويقول رب اغفر لي وارحمني وارزقني واهدني وعافني واعف عني. ويأتي بالسجدة الثانية كما سبق ويستوي منها جالساً جلسة خفيفة للاستراحة، ثم يقوم فيضع اليد على الأرض ولا يقدم إحدى رجليه ويمد التكبير إلى انتهاء القيام.

التشهد:

ثم يتشهد في الركعة الثانية، وفي التشهد الأول يجلس على الرجل اليسرى ويصلي على النبي ﷺ وتكون أصابعه اليمنى مقبوضة إلا المسبحة، فيشير بها عند

قوله لا إله إلا الله وفي التشهد الأخير يستكمل الدعاء المأثور ويجلس على وركه الأيسر.

ويقول عند الفراغ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ويلتفت يميناً بحيث يرى خده وكذلك يفعل شمالاً. وينوي الخروج من الصلاة وينوي السلام على من عن يمينه وعن يساره من الملائكة والمسلمين ولا يمد السلام.

تمييز الفرائض والسنن:

الفرض من جملة ما ذكرناه اثنا عشر. النية، وقول الله أكبر، والقيام، والفاتحة، والانحناء في الركوع إلى أن تنال راحتاه ركبتيه مع الطمأنينة، والاعتدال عنه قائماً، والسجود مع الطمأنينة، والاعتدال عنه قاعداً، والجلوس للتشهد الأخير، والتشهد الأخير، والصلاة على رسول الله ﷺ، والسلام الأول.

فصل
في الشروط الباطنية من أعمال القلب

فمنها الخشوع قال تعالى: ﴿ **أقم الصلاة لذكري** ﴾[1]: وقال عليه السلام: « **كم من قائم حظه من الصلاة التعب والنصب** » واعلم أن الصلاة إنما هي ذكر وقراءة ومناجاة ومحاورة، وذلك لا يكون إلا بحضور القلب وتمامه يحصل بالتفهيم والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء، وعلى الجملة كلما زاد العلم بالله زادت الخشية وحصل الحضور.

فإذا سمعت الأذان ينبغي أن يستحضر القلب هول النداء يوم القيامة وتتشمر بظاهرك وباطنك للإجابة والمسارعة، فإن المسارعين إلى هذا النداء هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر، فإن وجدت قلبك مملوءاً بالفرح والاستبشار

(١) طه ١٤.

مشغوفاً إلى الابتدار، فسيكون مثل ذلك في ذلك النداء ولذلك قال عليه السلام: « **ارحنا يا بلال** » إذ كانت قرة عينه في الصلاة.

فالطهارة طهارة السر عما سوى الله فيها تتم هذه الصلاة، فإنك إن سترت العورة بالثياب فما الذي يستر عورتك في الباطن عن الله، فتأدب بين يدي الله واعلم أنه يطلع عليك وعلى سرك فتواضع بظاهرك وباطنك وانظر لو قمت بين يدي الملك كيف تكون، ولا نسبة بينه تعالى وتقدس وبين الملوك فالكل عبيده.

فإذا فعلت ذلك فلا تكون كاذباً في قولك وجهت وجهي وفي قولك حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين، وقولك صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله، فاحذر أن يكون هذا كذباً، فيكون سبب هلاكك وينبغي أن تذكر كبرياء الله وعظمته عند ركوعك وسجودك وتعلم ذلك بصغارك. والله برحمته أهلك لمناجاته فلا أقل من التأدب والحضور بقلبك بين يديه.

قال ﷺ: « **إن الله تعالى مقبل على المصلي ما لم يلتفت** » فاحفظ ظاهرك وباطنك عن الالتفات. وقال عليه السلام: « **إن العبد ليصلي ولا يكتب له من صلاته لا نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا خمسها ولا سدسها ولا عشرها وإنما يكتب للرجل من صلاته ما عقل منها** » وقال بعضهم إن العبد يسجد السجدة عنده أنه يقرب بها إلى الله تعالى ولو قسمت ذنوبه في سجدته على أهل مدينته لهلكوا، قيل وكيف ذلك قال يكون ساجداً عند الله تعالى وقلبه مصغ إلى هوى ومشاهد لباطل قد استولى عليه.

فصل
في القدوة والإمامة

قال عليه السلام: « **الأئمة ضمناء** » ولا ينبغي أن يتقدم على قوم يكرهونه وما دام يقدر المريد على اختيار الأذان لا يختار الإمامة فإنه أسلم، والأصح أن الإمامة أفضل لمن يستقل بأعبائها ولذلك داوم عليه السلام عليها وينبغي أن يراعي أوقات الصلاة فيصلي في أوائل الأوقات فأول الوقت رضوان الله، وآخره عفو الله ورضوان الله أولى من عفو الله.

وينبغي له أن يكون له ثلاث سكتات هكذا نقل عنه ﷺ ، أولها عند الإسرار بدعاء الاستفتاح وهي الأولى والثانية بعد قراءة الفاتحة وقبل افتتاح السورة، وهي نصف الأولى والثالثة بعد الفراغ من السورة، وقبل الهوي للركوع وهي أخفها .

ولا ينبغي أن يسابق المأموم الإمام، بل لا يهوي للركوع ما لم يستقر الإمام في الركوع، وهكذا في جميع الأركان، وقيل إن الناس يخرجون من الصلاة على ثلاثة أقسام، طائفة بخمس وعشرين صلاة وهم الذين يكبرون ويركعون بعد ركوع الإمام، وطائفة بصلاة واحدة وهم الذين يساوونه، وطائفة بلا صلاة وهم الذين يسبقون الإمام.

وقد اختلفوا في أن الإمام هل ينتظر في ركوعه لحوق من دخل لينال فضل الجماعة، ولعل الأولى أنه لا بأس به مع الإخلاص إذا لم يظهر تفاوت ظاهر ويقول في قنوت صلاة الصبح. اللهم اهدنا والقوم يؤمنون إلى قوله إنك تقضي ولا يقضى عليك، فإذا انتهى إليه فالقوم يوافقونه سراً في القراءة أو يقولون أشهد.

فصل
في فضل الجمعة وآدابها وسننها وفرائضها

قال النبي ﷺ : « **من ترك الجمعة ثلاثاً من غير عذر طبع على قلبه** » وفي لفظ آخر نبذ الإسلام وراء ظهره، وفي حديث أنس عن النبي ﷺ أنه قال: « **أتاني جبرائيل عليه السلام وفي كفه مرآة بيضاء، وقال هذه الجمعة يفرضها عليك ربك لتكون لك عيداً ولأمتك من بعدك، قلت فما لنا فيها، قال لكم فيها خير ساعة من دعا فيها بخير قسم له، أعطاه الله سبحانه إياه، أو ليس له، قسم ذخر له ما هو أعظم منه، وهو سيد الأيام عندنا ونحن ندعوه في الآخرة يوم المزيد، قلت ولم، قال إن ربك عز وجل اتخذ وادياً في الجنة أفيح من المسك الأبيض، فإذا كان يوم الجمعة نزل من عليين على كرسيه فيتجلى لهم حتى ينظروا إلى وجهه** ».

واعلم أنها لا تنعقد إلا بأربعين ذكراً مكلفين أحراراً مقيمين لا يظعنون عنه شتاء ولا صيفاً وينبغي أن لا تكون الجمعة مسبوقة بأخرى إلا في بلدة كبيرة ظن تعذر اجتماع الناس في جامع واحد فيجوز اثنان وثلاثة بقدر الحاجة.

والخطبتان فيها فريضتان، والقيام فيهما فريضة، والجلسة بينهما فريضة، وفي الأولى أربع فرائض، التحميد وأقله الحمد لله، والثانية الصلاة على رسول الله، والثالثة الوصية بتقوى الله، والرابعة قراءة آية من القرآن، وكذلك الثانية فرائضها أربعة، إلا أنه يجب فيها الدعاء بدل القرآن، واستماع الخطبتين واجب من الأربعين.

وأما السنن فإذا زالت الشمس وأذن المؤذن وجلس الإمام على المنبر انقطعت الصلاة سوى التحية، والكلام لا ينقطع إلا بافتتاح الخطبة، ويستحب فيه الثياب البيض والطيب والغسل، والبكور مستحب. قال النبي ﷺ : « **من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشاً أقرن، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة، فإذا خرج الإمام طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة عند المنبر يستمعون الذكر، فمن جاء بعد ذلك فإنما جاء لحق الصلاة ليس له من الفضل شيء** ».

تفصيل الساعات:

الأولى: إلى طلوع الشمس والثانية: إلى ارتفاعها والثالثة: إلى انبساطها والرابعة والخامسة: بعد الضحى الأعلى إلى الزوال، وينبغي أن لا يتخطى رقاب الناس، ولا يمر بين أيديهم ويجلس بحيث لا يمر أحد بين يديه، ويطلب الصف الأول، فإذا فرغ من الصلاة فيذكر الله كثيراً ويحسن مراقبة الساعة التي في يوم الجمعة.

ويكثر الصلاة على رسول الله ﷺ قال عليه السلام: « **أكثروا الصلاة علي في الليلة الغراء واليوم الأزهر** » يعني يوم الجمعة وليلتها، ويستحب الصدقة في هذا اليوم خاصة، ويستحب أن لا يجلس إذا دخل المسجد حتى يصلي أربع ركعات يقرأ فيهن مائتي مرة قل هو الله أحد.

وإن قدر على أن يجعل يوم الجمعة للآخرة فلا يشتغل فيه بشيء من أشغال الدنيا فإنها كفارة لما بين الجمعتين، وروي أن من سافر في ليلة الجمعة دعا عليه ملكاه ويحرم بعد طلوع الفجر إلا إذا كانت الرفقة تفوت.

فصل
في النوافل

ولا ينبغي أن يترك النوافل فهي جوابر للفرائض، والفرض رأس المال والنوافل بمنزلة الربح، ولا يترك الرواتب كما عرف، ولا يترك صلاة الضحى وهي ركعتان أو أربعة وزيادة، ولا يترك التهجد، وإحياء ما بين العشاءين وركعتي الصبح، فإنهما خير من الدنيا وما فيها ويدخل وقتهما بطلوع الصبح الصادق، وهو المستطير دون المستطيل.

فصل
في صلاة العيدين

وصلاة العيدين سنة مؤكدة وشعار من شعائر الدين، ويراعى فيه عدة أمور، الأول التكبير ثلاثاً نسقاً فيقول الله أكبر الله أكبر الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، لا إله إلا الله وحده لا شريك له، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون.

يفتتح التكبير ليلة الفطر إلى الشروع في صلاة العيد وتكبير يوم النحر ويفتتح التكبير عقب الصبح يوم عرفة إلى آخر النهار يوم الثالث عشر في أكمل الأقوال، ويكبر عقيب الصلاة المفروضة وقيل عقيب النوافل أيضاً.

ويستحب الغسل والتزين عند الخروج، ويستحب إخراج الصبيان والعجائز، ويستحب أن يخرج من طريق ويرجع من طريق، ويستحب الخروج إلى الصحراء إلا بمكة وبيت المقدس إلا بعذر المطر، ووقت الصلاة فيه ما بين طلوع الشمس إلى الزوال.

ووقت الذبح للضحايا ما بين ارتفاع الشمس بقدر ركعتين وخطبتين إلى آخر يوم الثالث عشر، ويستحب تعجيل صلاة الأضحى لأجل الذبح، وتأخير صلاة الفطر لأجل تفريق صدقة الفطر قبلها، وليخرج الناس مكبرين.

وإذا بلغ الإمام المصلى لا يجلس ولا يتنفل ويقطع الناس التنفل وينادى الصلاة جامعة، ويصلي الإمام ركعتين يكبر في الأولى سوى تكبيرة الإحرام والركوع

سبع تكبيرات، ويقول بين كل تكبيرتين سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

ويقول وجهت وجهي عقيب تكبيرة الإفتتاح، ويؤخر الإستعاذة إلى ما وراء الثامنة ويقرأ (ق)، واقتربت الساعة، والتكبيرات الزائدة في الثانية خمسة، ويخطب بعد الصلاة خطبتين، بينهما جلسة.

ومن فاتته صلاة العيد قضاها، فإذا فرغ من الصلاة يستعجل بالتضحية، وقد ضحى رسول الله ﷺ بكبش وقال: **«بسم الله والله أكبر هذا عني وعمن لم يضح من أمتي»** وقال عليه الصلاة والسلام: **«من رأى هلال ذي الحجة وأراد أن يضحي فلا يأخذن من شعره ولا من أظفاره شيئاً»**.

فصل
في صلاة الكسوف

قال رسول الله ﷺ: **«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله وإلى الصلاة»** فإذا خسف الشمس والقمر نودي الصلاة جامعة، ويصلي الإمام بالناس في المسجد ركعتين، فيركع في كل ركعة ركوعين أوائلها أطول من أواخرها، ويجهر ويستحب أن يمد الصلاة إلى انكشافها.

فصل
في صلاة الاستسقاء

فيأمر الإمام الناس بصيام ثلاثة أيام، وما استطاعوا من الصدقة والتوبة والخروج من المظالم، ثم يخرج بهم اليوم الرابع وبالعجائز والصبيان متنظفين في ثياب بذلة واستكانة متواضعين بخلاف صلاة العيد، ويصلي بهم ركعتين مثل صلاة العيد سواء.

ثم يخطب خطبتين بينهما جلسة خفيفة ولكن الإستغفار معظم الخطبتين، وينبغي في الخطبة الثانية أن يستدبر الناس ويستقبل القبلة ويحول رداءه في هذه الحالة تفاؤلاً بتحويل الحال، هكذا فعل رسول الله ﷺ فيجعل أعلاه أسفله وما على اليمين

على اليسار وما على الشمال على اليمين وكذلك يفعل الناس ويدعون في هذه الحالة، وفي هذه الساعة سراً.

ثم يستقبلهم فيختم الخطبة ويدعون أرديتهم محولة كما هي حتى ينزعوها متى نزعوا الثياب. ويقول اللهم كما أمرتنا بدعائك ووعدتنا بإجابتك فقد دعوناك كما أمرتنا فأجبنا كما وعدتنا، اللهم فامنن علينا بمغفرة ما قارفنا وإجابتك في سقيانا وسعة رزقنا برحمتك يا أرحم الراحمين.

الباب الخامس

في أسرار الزكاة

قال الله تعالى: ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله ﴾[1] الآية. والمراد به منع الزكاة، والزكاة إحدى مباني الإسلام وإحدى أركانه الخمس، وقال أبو ذر: انتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في ظل الكعبة فلما رآني قال عليه السلام: « **الأكثرون هم الأخسرون ورب الكعبة قلت من هم قال عليه السلام الأكثرون أموالاً إلا من قال هكذا وهكذا من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله وقليل ما هم، ما من صاحب إبل ولا بقر ولا غنم لا يؤدي زكاتها إلا جاءت يوم القيامة أعظم ما كانت وأسمنها تنطحه بقرونها وتطؤه بأظلافها كلما نفدت أخراها عادت إليه أولاها حتى يقضى بين الناس** ». وهذا الحديث في الصحيحين مخرج والله أعلم.

فصل

وأسباب وجوب الزكاة باعتبار معلقاتها ستة

زكاة النعم والنقدين والتجارة وزكاة الركاز والمعادن وزكاة المعشرات وزكاة الفطر.

الأول زكاة النعم:

ولا تجب هذه الزكاة وغيرها إلا على حر مسلم ولا يشترط البلوغ فتجب في مال الصبي والمجنون.

وأما المال:

فشروطه خمسة: أن يكون نعماً سائمة باقية حولاً نصاباً كاملاً مملوكاً على الكمال.

(١) التوبة ٣٤.

فالأول أن يكون نعماً، فلا زكاة إلا في الإبل والبقر والغنم، وأما المتولد من الشاة والظباء والخيل والحمير فلا زكاة فيها، الثاني السوم فلا زكاة في معلوفة، وينبغي أن يكون نصاباً كاملاً.

أما الإبل:

فلا شيء فيها حتى تبلغ خمساً وفيها شاة جذعة من الضأن، وهي التي تكون في السنة الثانية، وثنية من المعز وهي التي تكون في السنة الثالثة، وفي عشر شاتان، وفي خمس عشرة ثلاث شياه، وفي عشرين أربع شياه، وفي خمس وعشرين بنت مخاض وهي التي في السنة الثانية، فإن لم تكن في ماله فابن لبون ذكر وهو الذي في السنة الثالثة، يؤخذ وإن كان قادراً على شرائها، وفي ست وثلاثين بنت لبون، ثم إذا بلغت ستاً وأربعين ففيها حقة وهي التي في السنة الرابعة، فإذا صارت إحدى وستين ففيها جذعة وهي التي في السنة الخامسة، فإذا صارت ستاً وسبعين ففيها بنتا لبون، فإذا صارت إحدى وتسعين ففيها حقتان، فإذا صارت إحدى وعشرين ومائة ففيها ثلاث بنات لبون، فإذا صارت مائة وثلاثين فقد استقر الحساب ففي كل أربعين بنت لبون وفي كل خمسين حقة.

وأما البقر:

فلا شيء فيها حتى تبلغ ثلاثين ففيها تبيع وهو الذي طعن في السنة الثانية، ثم في أربعين مسنة وهي التي طعنت في السنة الثالثة، ثم في الستين تبيعان، واستقر الحساب ففي كل أربعين مسنة وفي كل ثلاثين تبيع والله أعلم.

وأما الغنم:

فلا زكاة فيها حتى تبلغ أربعين ففيها شاة جذعة من الضأن أو ثنية من المعز، ثم لا شيء فيها حتى تبلغ مائة وعشرين وواحدة ففيها شاتان إلى مائتين وواحدة ففيها ثلاث شياه، إلى أربعمائة ففيها أربع شياه، ثم استقر الحساب ففي كل مائة شاة، وصدقة الخليطين كصدقة المالك الواحد في النصيب وشرط الخلطة أن يكونا في جميع الأحوال معاً وخلطة الجوار كالشيوع.

أما المعشرات:

فيجب العشر في كل مستنبت مقتات بلغ ثمانمائة مَن.

وأما زكاة النقدين:

فإذا تم الحول على مائتي درهم بوزن مكة نقرة خالصة ففيها خمسة دراهم، وأما نصاب الذهب فعشرون ديناراً خالصة بوزن مكة وفيها ربع العشر، وما زاد في الذهب والفضة ولو دانقاً فبحسابه، وتجب الزكاة في التبر والحلي المحظور، ولا زكاة في شيء من المعادن إلا في الذهب والفضة ففيها بعد الحفر والتحصيل وبعد الطحن والتخليص ربع العشر على أصح القولين، وهل يعتبر النصاب وفي الحول قولان، وفي قول يجب الخمس فعلى هذا لا يتعين الحول وفي النصاب قولان.

وأما صدقة الفطر:

فهي واجبة على لسان رسول الله ﷺ على كل مسلم فضل عن قوته وقوت من يقوته يوم الفطر وليلته صاع مما يقتات بصاع رسول الله ﷺ وهو منوان وثلثا مَن، يخرجه من جنس قوته أو من أفضل منه وقسمتها كقسمة زكاة الأموال، قال النبي ﷺ: « **أدوا زكاة الفطر عمن تمونون** ».

فصل
في أداء الزكاة وشرائطه

فأول الشرائط النية، وهو أن ينوي بقلبه زكاة الفطر ونية الولي تقوم مقام نية المجنون والصبي ونية السلطان تقوم مقام نية المالك الممتنع لا ينبغي أن يؤخر زكاة الفطر عن يوم الفطر ويدخل وقتها بغروب الشمس آخر يوم من شهر رمضان ووقت تعجيلها شهر رمضان كله.

ومن أخر زكاة ماله مع التمكن عصى ولم تسقط عنه بتلف ماله والتمكن بمصادفة المستحق فإن لم يصادف وتلف ماله سقط.

وينبغي أن يقسم ماله بين الأصناف الموجودين في بلده ويستوعبهم وقد عدم من الأصناف الثمانية صنفان في أكثر البلاد وهم المؤلفة قلوبهم والعاملون على الزكاة ويوجد في جميع البلاد أربعة أصناف: الفقراء والمساكين والغارمون والمسافرون وصنفان يوجدان في بعض البلاد دون البعض وهم الغزاة والمكاتبون، فما صادف من الأصناف في بلده قسم مال الزكاة بعددهم فما خص كل واحد من الأصناف

صرفه إلى ثلاثة أنفار منهم فصاعداً، ولا تجب التسوية في هذا التفريق بين آحاد الصنف الواحد.

وإذا قدر على إعطاء الزكاة لمن تحلى بخصال الخير لقبض الزكاة فالأولى أن يفعل ذلك وذلك أن يكون ورعاً عالماً مستور الحال وأن يكون من أقاربه، فكل من وجدت فيه هذه الخصال كان أقرب إلى القبول والله أعلم.

فصل
في القابض للزكاة

ولا يستحق إلا حر مسلم ليس بهاشمي ولا مطلبي ويجوز الصرف للصبي والمجنون بشرط أن يقبض عنهما الولي.

وهذا بيان الأصناف الثمانية:

الأول: الفقير وهو من ليس له مال ولا قدرة على الكسب.

والثاني: المسكين وهو الذي لا يفي دخله بخرجه.

والثالث: السعاة وهم الذين يجمعون مال الزكاة.

والرابع: وهم المؤلفة قلوبهم وهو الشريف الذي أسلم وهو مطاع في قومه وفي قومه وفي إعطائه ترغيب لقومه في الإسلام.

والخامس: المكاتب ويجوز دفع سهمه إليه وإلى سيده والسيد لا يدفع زكاته إلى مكاتب نفسه.

والسادس: الغارمون وهم من عليهم قرض استقرضوه لمباح وهو فقير لا يملك ما يؤدي به الدين فإن استقرضه لمعصية لا يعطى ما لم يتب، وإن كان غنياً ولكن استقرضه لمصلحة أو إطفاء فتنة جاز أن يعطى.

والسابع: الغزاة وهم الذين ليس لهم مرسوم في ديوان المرتزقة فيصرف إليهم سهمهم وإن كانوا أغنياء.

والثامن: ابن السبيل وهو المسافر الذي ليس معه مال حاضر يصرفه إلى مأربه لسفر. هذا إذا كان السفر مباحاً. ويعتمد على قوله في دعوى الفقر والمسكنة والسفر

والغزو ويسترد من الغازي والمسافر إذا لم يف بما وعد وما وراءه من الأصناف لا بد فيها من البينة والله أعلم.

فصل
في صدقة التطوع

قال رسول الله ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة**» وقال ﷺ: «**ما أحسن عبد الصدقة إلا أحسن الله الخلافة على ذريته**» وقال ﷺ: «**الصدقة تسد سبعين باباً من الشر**». وسئل ﷺ: «**أي الصدقة أفضل فقال أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا ولفلان كذا**». ولا بأس بالاخفاء والاظهار على حسب ما شاء.

وكان إبراهيم الخواص والجنيد رضي الله عنهما يرون أن أخذ الصدقة أفضل من أخذ الزكاة لأن فيها مزاحمة الفقراء، ولأن لها شرائط كثيرة وربما لا يكون تمامها موجوداً في الآخذ وذهب بعضهم إلى أن أخذ الزكاة أولى فإن فيه إعانة على أداء الواجب وفيه أيضاً كسر للنفس ومذلة، والأمر في ذلك على الجملة متقارب فافهم تغنم والله أعلم.

***

الباب السادس

في أسرار الصيام

قال رسول الله ﷺ حكاية عن ربه عز وجل: « **كل حسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به** » وقال عليه السلام: « **والذي نفس محمد بيده لخلوق فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك. يقول الله تعالى إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي فالصيام لي وأنا أجزي به** ». وقال عليه السلام: « **إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مجاريه بالجوع** » ولذلك قال لعائشة رضي الله عنها « **داومي قرع باب الجنة. قالت: بماذا قال. بالجوع** »، وقال عليه السلام: « **لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء فالصوم يعين على كسر الشهوات** » وسيأتي في باب كسر الشهوتين.

فصل

اعلم أنه يثبت هلال شهر رمضان بقول عدل واحد، ولا يثبت هلال شوال إلا بقولين عدلين، وسواء قضى القاضي به أو لم يقض فكل يعمل بغلبة ظنه، ويجب التبييت وهو أن ينوي بالليل. ويجب أن ينوي فريضة صوم شهر رمضان ولو نوى ليلة الشك أن أصوم إن كان من رمضان لم يجزه.

والصوم هو الإمساك عن إيصال شيء إلى الجوف فيفسد بالأكل والشرب والسعوط والحقنة ولا يفسد بالفصد والحجامة والاكتحال وإدخال ميل في الاحليل والأذن إلا أن يقطر فيه ما يبلغ إلى المثانة. وما يكون من غير قصد، كغبار الطريق وسبق ذبابة إلى جوفه، وفي المضمضة والاستنشاق لا يفطر ما لم يبالغ.

وإن أكل في طرف النهار على ظن أنه ليل فتبين أنه نهار فسد صومه فإن أكل أو

شرب أو جامع ناسياً لم يفطر. والاستسقاء يفسد الصوم، وإن ذرعه القيء لم يفسد صومه، وإن اقتلع نخامة من صدره أو حلقه لا يفسد صومه، رخصة لعموم البلوى، ولا تجب الكفارة إلا بالجماع ولا تجب بالاستمناء والأكل والشرب، والكفارة عتق رقبة فإن لم يجد فصوم شهرين فإن عجز فإطعام ستين مسكيناً مداً مداً.

فصل

اعلم أن الصوم ثلاث درجات: صوم العموم، وصوم الخصوص، وصوم خصوص الخصوص، أما صوم العموم فهو كف البطن والفرج عن قضاء الشهوة، وأما صوم الخصوص فهو كف السمع والبصر واللسان واليد والرجل وسائر الجوارح عن الآثام. وأما صوم خصوص الخصوص فصوم القلب عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية وكفه عما سوى الله بالكلية.

ويحصل الفطر في كل صوم بما عنه الصوم قال ﷺ: « **خمس يفطرن الصائم: الكذب والغيبة والنميمة واليمين الكاذبة والنظر بشهوة** ». فحفظ الجوارح عن المعاصي لا بد منه في صوم الخواص.

فصل

وينبغي أن لا يستكثر من الطعام الحلال فما ملىء وعاء أبغض إلى الله تعالى من المعدة. وينبغي أن يكون قلبه مضطرباً بين الرجاء والخوف أقبل صيامه أم كان نصيبه منه الجوع والعطش والنصب. قيل رب امرىء كان نصيبه من صومه الجوع والنصب إذ المقصود من الصوم الكف عن الشهوات، وليس ذلك مقصوراً على الامتناع عن تناول الطعام والشراب فلعله أقدم على نظر أو غيبة أو نميمة أو كذب فكل ذلك مفطرات للصوم.

فصل

في التطوع بالصيام

اعلم أن استحباب الصوم يتأكد بالأيام الفاضلة، وفواضل الأيام بعضها يوجد في كل سنة وبعضها في كل شهر وبعضها في كل أسبوع، أما في السنة بعد أيام رمضان فيوم عرفة ويوم عاشوراء والعشر الأول من ذي الحجة والعشر الأول من المحرم

وجميع الأشهر الحرم مظان الصوم، وكان رسول الله ﷺ يكثر من صوم شعبان حتى يظن أنه من رمضان.

وفي الخبر أفضل الصيام بعد صوم شهر رمضان شهر الله المحرم، وقال عليه الصلاة والسلام: « **صوم يوم من شهر رمضان أفضل من ثلاثين من غيره وصوم يوم من شهر حرام أفضل من ثلاثين يوماً من صوم غيره ومن صام الخميس والجمعة والسبت من الأشهر الحرم كتب الله له عبادة سبعمائة عام** ».

والأشهر الفاضلة: ذو الحجة والمحرم ورجب وشعبان، والأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب، واحد فرد وثلاثة سرد.

وأما ما يتكرر في الشهر فأول الشهر وأوسطه وهو من الأيام البيض وآخره، والأيام البيض الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر، وأما ما يتكرر في الأسبوع فالاثنين والخميس والجمعة، وصوم الدهر شامل للكل ولكن اختلفوا في كراهيته، وقال ﷺ: « **أفضل الصيام صوم أخي داود** » ولعل الإشارة إليه بقوله ﷺ: « **عرضت علي مفاتيح خزائن الدنيا وكنوز الأرض فرددتها وقلت أجوع يوماً وأشبع يوماً أحمدك إذا شبعت وأتضرع إليك إذا جعت** » وقد روي أنه عليه السلام: « **ما صام شهراً كاملاً قط إلا رمضان** ».

الباب السابع

في أسرار الحج وما فيه

وقد أنزل الله تعالى في الحج: ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[1] الآية وقال عليه الصلاة والسلام: « **من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً** ».

فصل

في فضيلة الحج وفضيلة مكة والمدينة وبيت المقدس وشد الرحال إلى المشاهد

قال الله تعالى: ﴿ **وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالاً** ﴾[2] الآية وقال عليه الصلاة والسلام: « **ما رؤي الشيطان في يوم أصغر ولا أدحر ولا أحقر ولا أغيظ منه يوم عرفة** » وقال ﷺ: « **من خرج من بيته حاجاً أو معتمراً فمات كان له أجر الحاج المعتمر إلى يوم القيامة** ».

قال بعض السلف: إذا وافق يوم الجمعة يوم عرفة غفر لأهل عرفة كلهم وهو أفضل يوم في الدنيا وفيه حج رسول الله ﷺ حجة الوداع وكان واقفاً إذ نزلت عليه هذه الآية ﴿ **اليوم أكملت لكم دينكم** ﴾[3] قال أهل الكتاب لو أنزلت علينا هذه الآية لجعلناها يوم عيد فقال عمر رضي الله عنه: أشهد لقد أنزلت في يوم عيدين اثنين في يوم عرفة ويوم جمعة على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة.

وقال عليه الصلاة والسلام: « **اللهم اغفر للحاج ولمن استغفر له الحاج** » وروي أن علي بن موفق حج عن رسول الله ﷺ حججاً قال: فرأيت رسول الله ﷺ في المنام

(١ و٣) المائدة ٣. (٢) الحج ٢٧.

فقال لي يا ابن الموفق حججت عني؟ قلت نعم قال ولبَّيت عني؟ قلت نعم قال فإني أكافئك بها يوم القيامة وآخذ بيدك في الموقف فأدخلك الجنة والخلائق في كرب الحساب.

فضيلة البيت ومكة:

قال عليه السلام: «**إن الله قد وعد البيت أن يحجه في كل سنة ستمائة ألف فإن نقصوا أكملهم الله تعالى بملائكته وإن الكعبة تحشر يوم القيامة كالعروس إلى الموقف وكل من حجها متعلق بأستارها يسعون حولها يوم القيامة حتى تدخل الجنة فيدخلون معها**». وفي الخبر أن الحجر ياقوتة من يواقيت الجنة وأنه يبعث يوم القيامة له عينان ولسان ينطق به، يشهد لمن استلمه بحق وصدق.

وكان ﷺ يقبله كثيراً وقبله عمر رضي الله عنه، وقال إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك ثم بكى، فالتفت فرأى علياً وراءه فقال له علي لا تقل كذا، فقال يا أبا الحسن ههنا تسكب العبرات، فقال علي يا أمير المؤمنين بل هو يضر وينفع، قال وكيف؟ قال إن الله تعالى قد أخذ الميثاق على الذرية كتب عليهم كتاباً ثم ألقمه هذا الحجر فهو يشهد للمؤمنين بالوفاء ويشهد على الكفار بالجحود، قيل فذلك هو معنى قول الناس عند الاستلام اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك.

وروي عن الحسن البصري أن صوم يوم مكة بمائة ألف وصدقة درهم بمائة ألف وكذا كل حسنة بمائة ألف وقال ﷺ: «**أنا أول من تنشق عنه الأرض ثم آتي أهل البقيع فيحشرون معي ثم آتي أهل مكة فأحشرهم بين الحرمين**» ويقال لا تغرب الشمس من يوم إلا ويطوف بهذا البيت رجل من الأبدال، ولا يطلع الفجر من ليلة إلا طاف به واحد من الأوتاد، وإذا انقطع ذلك كان سبب رفعه من الأرض فيصبح الناس فيرون الكعبة قد رفعت لا يرى لها أثر، وهذا إذا أتى عليها سبع سنين لم يحجها أحد.

ثم يرفع القرآن من المصاحف فيصبح الناس فإذا الورق أبيض، يلوح ليس فيه حرف ثم ينسخ القرآن من القلوب فلا يذكر منه كلمة، ثم يرجع الناس إلى

الأشعار والأغاني والاخبار الجاهلية، ثم يخرج الدجال وينزل عيسى فيقتله، والساعة عند ذلك بمنزلة الحامل المقرب يتوقع ولادتها.

فضيلة المقام بمكة وكراهيته:

كرهه بعضهم خوفاً من السآمة، وكذلك قال الإمام عمر رضي الله عنه خشية أن يأنس الناس بهذا البيت، وكان يضرب الحاج إذا حجوا ويقول يا أهل اليمن يمنكم ويا أهل الشام شامكم ويا أهل العراق عراقكم. وقيل أيضاً تهييج الشوق لينبعث عند المفارقة داعية العود، وقال تعالى: **﴿مثابة للناس وأمناً﴾** أو قيل للخوف من ركوب الخطايا والذنوب بها وذلك محظور.

ويدل على فضيلة المقام لمن يقدر على الوفاء بحقها أنه عليه الصلاة والسلام لما عاد إلى مكة استقبل الكعبة وقال: «**إنك لخير أرض الله وأحب بلاد الله إلي ولولا أني أخرجت منك ما خرجت منك**».

فضيلة المدينة:

ما بعد مكة بقعة أفضل من المدينة قال عليه الصلاة والسلام: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام**» وبعد المدينة الأرض المقدسة قال ﷺ الصلاة فيها بخمسمائة صلاة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «**صلاة في مسجد المدينة بعشرة آلاف صلاة وصلاة في المسجد الأقصى بألف صلاة وصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة**».

فصل
في شروط وجوب الحج وصحته وأركانه وواجباته ومحظوراته

أما الشرائط المصححة فهو الوقت والإسلام، فيصح حج الصبي المميز ويحرم بنفسه ويحرم الولي عنه، إذا لم يكن مميزاً ويفعل به ما يفعل بنفسه ووقت الإحرام هو شوال وذو القعدة وتسع من ذي الحجة إلى طلوع الفجر من يوم النحر.

ومن أحرم بالحج في غير هذا الوقت فهي عمرة إذ جميع السنة وقت العمرة،

وشروط وقوعه عن حجة الإسلام خمسة: الحرية والإسلام والبلوغ والعقل والوقت.

فإن أحرم الصبي أو العبد ولكن عتق العبد وبلغ الصبي بعرفة أو بالمزدلفة فعاد إلى عرفة قبل طلوع الفجر يوم النحر أجزأهما عن حجة الإسلام، لأن الحج عرفة وليس عليهما دم. وتشترط هذه الشرائط في وقوع العمرة عن فرض حج الإسلام إلا الوقت.

وأما الشرط في وقوع الحج نفلاً عن الحر البالغ فبراءة ذمته عن حجة الإسلام فحج الإسلام متقدم ثم القضاء لمن أفسده في حالة الوقوف ثم النذر ثم النيابة ثم النفل، وهذا الترتيب مستحق ولا يقع إلا كذلك وإن نوى خلافه.

وشرط لزوم الحج الحرية والاستطاعة ومن لزمه فرض الحج لزمه فرض العمرة ومن أراد دخول مكة لزيارة أو تجارة ولم يكن حطاباً، لزمه الاحرام على قول ويتحلل بعمل عمرة أو حج.

وأما الاستطاعة فنوعان أحدهما المباشرة وذلك الصحة وأمن الطريق والخصب فيها، وأن لا يكون بحراً خطراً وأن يملك نفقة ذهابه وإيابه إلى وطنه ونفقة من يلزمه نفقته في هذه المدة بعد أداء الديون وأن يقدر على كراء الراحلة.

النوع الثاني إستطاعة المعضوب بماله، وهو أن يستأجر من يحج عنه بعد فراغ الأجير عن حجة الإسلام لنفسه، والابن إذا عرض الطاعة على الأب الزمن صار به مستطيعاً ويجوز التأخير بعد الاستطاعة، ولكن بشرط سلامة العاقبة وإلا لقي الله تعالى عاصياً.

والأركان التي لا يصح الحج بدونها خمسة: الإحرام والطواف والسعي بعده والوقوف بعرفة والحلق على قول. وأركان العمرة كذلك إلا الوقوف.

والواجبات المجبورة بالدم ستة: الإحرام في الميقات وعلى تاركه شاة، والرمي ففيه الدم قولاً واحداً وأما الصبر بعرفة إلى غروب الشمس والمبيت بمزدلفة والمبيت بمنى وطواف الوداع فهذه الأربعة يجبر تركها بالدم على أحد القولين وفي الثاني فيها دم على سبيل الاستحباب.

وأما وجوه أداء الحج والعمرة فثلاثة:

الأول: الافراد وهو الأفضل، وذلك أن يقدم الحج وحده فإذا فرغ خرج إلى الحل وأحرم واعتمر، وأفضل الحل الاحرام بالعمرة من الجعرانة ثم التنعيم ثم الحديبية وليس على المفرد دم، إلا أن يتطوع.

الثاني: القران وهو أن يجمع فيقول لبيك بحج وعمرة فيصير محرماً. ويكفيه أعمال الحج وتندرج العمرة تحت الحج كما يندرج الوضوء تحت الغسل، إلا أنه إذا طاف وسعى قبل الوقوف فسعيه محسوب من النسكين، وأما طوافه فغير محسوب لأن شرط طواف الفرض في الحج أن يقع بعد الوقوف. وعلى القارن دم شاة إلا أن يكون مكياً فلا شيء عليه لأنه لم يترك الميقات إذ ميقاته مكة.

الثالث: التمتع وهو أن يجاوز الميقات بعمرة ويتحلل بمكة ويتمتع بالمحظورات إلى وقت الحج ثم يحرم بالحج ولا يكون متمتعاً إلا بخمس شرائط:

أحدها: أن لا يكون من حاضري المسجد الحرام وحاضره من كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة.

الثاني: أن يقدم العمرة على الحج.

الثالث: أن تكون عمرته في أشهر الحج.

الرابع: أن لا يرجع إلى ميقات الحج ولا إلى مثل مسافته لإحرام الحج.

الخامس: أن تكون حجته وعمرته عن شخص واحد، فبهذه الأوصاف يصير متمتعاً ويلزمه دم شاة فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج قبيل يوم النحر متفرقة أو متتابعة وسبعة إذا رجع إلى أهله فهي عشرة إن شاء تباعاً أو متفرقاً والأفضل الإفراد ثم التمتع ثم القران.

وأما محظورات الحج والعمرة فستة:

الأول: لبس القميص والسراويل والخف والعمامة بل ينبغي أن يلبس إزاراً ورداء ونعلين فإن لم يجد نعلين فمكعباً فإن لم يجد إزاراً فسراويل ولا بأس بالمنطقة والاستظلال بالمحمل ولكن لا يغطي رأسه فإن إحرامه في رأسه، وللمرأة أن تلبس المخيط غير أن لا تستر وجهها بما يماسها فإن إحرامها في وجهها.

الثاني: التطيب فليتجنب كل ما يعده العقلاء طيباً فإن تطيب أو لبس فعليه دم شاة.

الثالث: الحلق والقلم وفيهما الفدية وهي دم شاة ولا بأس بالكحل ودخول الحمام والفصد والحجامة وترجيل الشعر.

الرابع: الجماع وهو مفسد قبل التحلل الأول وفيه بدنة أو بقرة أو سبع شياه، وإن كان بعد التحلل لزمه البدنة ولم يفسد حجه.

الخامس: مقدمات الجماع وهي القبلة والملامسة التي تنقض التطهير مع النساء فهو محرم وفيه شاة، وكذا في الاستمناء.

ويحرم النكاح والانكاح ولا دم فيه لأنه لا ينعقد.

السادس: قتل صيد البر أعني ما يؤكل أو ما هو متولد من الحلال والحرام فإن قتل صيداً فعليه مثل لحمه من النعم يراعى فيه التقارب في الخلقة والله أعلم.

فصـــل

في ترتيب الأعمال الظاهرة من أول السفر إلى الرجوع إلى الوطن

وهي عشر جمل:

الأولى: في السير من أول الخروج إلى الاحرام، وهي ثمانية: التوبة ورد المظالم وقضاء الديون وإعداد نفقة من يمونه إلى الرجوع ورد الودائع وأن يكون ما يستصحبه حلالاً.

الثانية: التماس رفيق صالح ينتفع بدينه.

الثالثة: أن يصلي قبل الخروج ركعتين يقرأ فيهما قل يا أيها الكافرون وقل هو الله أحد فإذا فرغ رفع يديه وقال اللهم أنت الصاحب في السفر وأنت الخليفة في الأهل والمال والولد والأصحاب احفظنا واياهم من كل آفة وعاهة وبلية.

الرابعة: إذا وصل إلى باب الدار قال بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله، رب أعوذ بك أن أضل أو أُضل أو أزل أو أُزل أو أظلم أو أُظلم أو أجهل أو يجهل علي.

الخامسة: في الركوب فإذا ركب الدابة قال بسم الله وبالله والله أكبر توكلت على الله حسبي الله سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون.

السادسة: النزول والسنة أن لا ينزل حتى يحمى النهار ويكون سيره في الليل، قال عليه الصلاة والسلام: **«عليكم بالدلجة فإن الأرض تطوى بالليل ما لا تطوى بالنهار»**.

السابعة: أن يحذر المشي وحده خيفة الاغتيال.

الثامنة: أن يقول مهما علا نشزاً من الأرض بعد أن يكبر ثلاثاً اللهم لك الشرف على كل شرف ولك الحمد على كل حال. ومهما هبط سبح، ومهما خاف الوحشة قال سبحان الملك القدوس رب الملائكة والروح جللت السموات والأرض بالعزة والجبروت.

الجملة الثانية في آداب الاحرام من الميقات إلى دخول مكة وهي خمسة:

الأول: الاغتسال وينوي به غسل الاحرام ويتم ذلك بتقليم الأظفار وقص الشارب وما يلحق به.

الثاني: أن يفارق الثياب المخيطة كما سبق ويتطيب ولا بأس ببقاء جرم الطيب وريحه كما نقل.

الثالث: أن ينوي الاحرام عند حركته أو حركة دابته منبعثاً ويكفي مجرد النية لانعقاد الاحرام ولكن السنة أن يقرن بالنية لفظ التلبية فيقول لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك. وإن زاد قال لبيك وسعديك والخير كله بيديك والرغبة إليك، لبيك بحجة حقاً حقاً تعبداً ورقاً، اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آل محمد وسلم.

الرابع: إذا انعقد إحرامه يستحب أن يقول: اللهم إني أريد الحج فيسره لي وأعني على أداء فرضه وتقبله مني.

الخامس: يستحب ترديد التلبية في دوام الإحرام.

الجملة الثالثة في آداب دخول مكة إلى الطواف وهي ستة :

الأول: الاغتسال بذي طوى لدخول مكة، والاغسال المسنونة في الحج تسعة :

الأول: للاحرام ثم لدخول مكة ثم لطواف القدوم ثم للوقوف بعرفة ثم بمزدلفة ثم ثلاثة أغسال لرمي الجمار الثلاث ولا غسل لرمي جمرة العقبة ثم لطواف الوداع ولم ير الشافعي في الجديد الغسل لطواف الزيارة ولطواف الوداع فتعود إلى سبعة .

الثاني: أن يقول عند الدخول إلى أول الحرم وهو خارج مكة، اللهم هذا حرمك وأمنك فحرم لحمي ودمي وبشري على النار وأمني من عذابك يوم تبعث عبادك واجعلني من أوليائك وأهل طاعتك يا رب العالمين.

الثالث: أن يدخل مكة من جانب الأبطح وهي من ثنية كدا، بفتح الكاف عدل رسول الله ﷺ من جادة الطريق إليها، ويخرج من ثنية كدا بضم الكاف فالأولى هي العليا والثانية هي السفلى.

الرابع : إذا دخل مكة وانتهى إلى رأس الردم فعندما يقع بصره على البيت فليقل، لا إله إلا الله والله أكبر اللهم أنت السلام ومنك السلام ودارك دار السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، اللهم إن هذا بيتك عظمته وكرمته وشرفته اللهم فزده تعظيماً وزده تشريفاً وتكريماً.

الخامس: إذا دخل المسجد الحرام فليدخل من باب بني شيبة وليقل، بسم الله وبالله ومن الله وإلى الله وفي سبيل الله وعلى ملة رسول الله ﷺ فإذا قرب من البيت قال الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى اللهم صل على سيدنا محمد عبدك ونبيك وعلى إبراهيم خليلك وعلى جميع أنبيائك ورسلك .

وليرفع يديه وليقل: اللهم إني أسألك في مقامي هذا في أول مناسكي أن تقبل توبتي وتتجاوز عن خطيئتي وتضع عني وزري، الحمد لله بلغني بيته الحرام الذي جعله مثابة للناس وأمناً وجعله مباركاً وهدى للعالمين، اللهم إني عبدك والبلد بلدك

والحرم حرمك والبيت بيتك جئت أطلب رحمتك أسألك مسألة المضطر الخائف من عقوبتك الراجي لرحمتك الطالب لمرضاتك .

السادس: أن يقصد الحجر الأسود بعد ذلك ويمسه بيده اليمنى ويقبِّله ويقول، اللهم أمانتي أديتها وميثاقي تعاهدته اشهد لي بالموافاة، فإن لم يستطع التقبيل فليمش في مقابلته ويقول ما سبق ثم لا يعرج على شيء دون طواف القدوم إلا أن يجد الناس في المكتوبة فيصلي معهم ثم يطوف.

الجملة الرابعة في الطواف: فإذا أراد أن يطوف أي طواف كان، فعليه ستة أمور:

منها أن يراعي شروط الصلاة في الطواف فإن الطوف صلاة إلا أنه أبيح فيه الكلام وليضبع في ابتداء الطواف وهو أن يجعل وسط إزاره تحت إبطه اليمنى ويجمع طرفيه على منكبه الأيسر ويقطع التلبية عند ابتداء الطواف ويشتغل بالأدعية التي سنوردها.

الثاني: إذا فرغ من الاضطباع فليجعل البيت على يساره وليقف عند الحجر الأسود وليتنح عنه قليلاً ليكون الحجر قدامه وليجعل بينه وبين البيت قدر ثلاث خطوات ليكون قريباً من البيت، فإنه أفضل ولكيلا يكون طائفاً على الشاذروان، فإنه من البيت، وعند الحجر الاسود وقد يتصل الشاذروان بالأرض ويلبس به والطائف عليه لا يصح طوافه لأنه طائف في البيت ثم في هذا الموقف يبتدىء.

الطواف الثالث: أن يقول قبل مجاوزة الحجر بل في ابتداء الطواف باسم الله وبالله والله أكبر، اللهم إيماناً بك وتصديقاً بكتابك ووفاء بعهدك واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ، ويطوف فأول ما يجاوز الحجر الأسود وينتهي إلى باب البيت يقول: اللهم هذا البيت بيتك كما سبق.

الرابع: أن يرمل في ثلاثة أشواط ويمشي في الأربعة الأخيرة على السكينة واستلام الحجر والركن اليماني مستحب في كل شوط.

الخامس: إذا تم الطواف سبعاً فليأتِ الملتزم وهو بين الحجر والباب وهو موضع استجابة الدعوة وليلتزم بالبيت ويتعلق بأستار الكعبة وليضع عليه خده الأيمن

ويبسط ذراعيه وكفيه عليه ويقول: اللهم يا رب البيت العتيق أعتق رقبتي من النار وأعذني من الشيطان الرجيم وأعذني من كل سوء وقنعني بما رزقتني وبارك لي فيما آتيتني اللهم إن هذا البيت بيتك والعبد عبدك وهذا مقام العائذ بك من النار اللهم اجعلني من أكرم وفدك عليك، وليحمد الله كثيراً وليصل على محمد ﷺ وعلى جميع الرسل.

السادس: إذا أفرغ من ذلك ينبغي أن يصلي خلف المقام ركعتين يقرأ في الأولى: قل يا أيها الكافرون وفي الثانية سورة الاخلاص وهما ركعتا الطواف وقال الزهري مضت السنة بأن يصلي لكل سبع ركعتين.

الجملة الخامسة: في السعي فإذا فرغ من الطواف، فليخرج من باب الصفا فإذا انتهى إلى الصفا وهو جبل فيستحب أن يرقى فيه درجاً في حضيض الجبل بقدر قامة الرجل رقي رسول الله ﷺ حتى بدت له الكعبة، وابتداء السعي من أصل الجبل كان.

ولكن بعض تلك الدرج مستجد؛ فينبغي أن لا يخلفها وراء ظهره فلا يكون متمماً للسعي وإن ابتدأ من ها هنا سعى بينه وبين المروة سبع مرات، فإذا انتهى إلى المروة صعدها وأقبل بوجهه على الصفا مرة فقد حصل السعي مرة فإذا عاد إلى الصفا حصلت مرتان يفعل ذلك سبعاً.

فإذا فعل ذلك فرغ من طواف القدوم والسعي وهما سنتان، والطهارة مستحبة للسعي بخلاف الطواف ففيه واجبة فإذا سعى فينبغي له أن لا يعيد السعي بعد الوقوف ويكتفي بهذا ركناً فإنه ليس من شرط السعي أن يتأخر عن الوقوف وإنما ذلك شرط في طواف الركن نعم من شرطه أن يقع بعد الطواف أي طواف كان.

الجملة السادسة: في الوقوف وما قبله الحاج إذ انتهى يوم عرفة إلى عرفات فلا يتعرض لطواف القدوم ودخول مكة قبل الوقوف، وإذا وصل قبل ذلك بأيام وطاف طواف القدوم فيمكث محرماً إلى اليوم السابع من ذي الحجة.

فيخطب الإمام بمكة خطبة بعد الظهر عند الكعبة ويأمر الناس بالاستعداد للخروج إلى منى يوم التروية والمبيت بها وبالغد، ومنها إلى عرفات لإقامة فرض

الوقوف بعد زوال الشمس إذ وقت الوقوف من الزوال إلى طلوع الفجر الصادق من يوم النحر فينبغي أن يخرج إلى منى ملبياً ويستحب له المشي من مكة في المناسك إلى انتهاء الحج إن قدر عليه.

والمشي من مسجد إبراهيم إلى الموقف أفضل وآكد فإذا انتهى إلى منى قال: اللهم إن هذه منى فامنن علي بما مننت به على أوليائك وأهل طاعتك وليمكث هذه الليلة بمنى وهو مبيت منزل لا يتعلق به نسك فإذا أصبح يوم عرفة صلى الصبح فإذا طلعت الشمس على ثبير سار إلى عرفات، ويقول: اللهم اجعلها خير غدوة غدوتها وأقربها من رضوانك وأبعدها من سخطك اللهم إليك غدوت وإياك اعتمدت ووجهك أردت فاجعلني ممن يباهي به اليوم من هو خير مني وأفضل يوم القيامة.

فإذا أتى عرفات، فليضرب خباءه بنَمِرَة قريباً من المسجد، فثم ضرب رسول الله ﷺ قبته ونمرة هي ببطن عرفة دون الموقف ودون عرفة وليغتسل للوقوف، فإذا زالت الشمس خطب الإمام خطبة وجيزة وقعد وأخذ المؤذن في الأذان والإمام في الخطبة الثانية، ووصل الإقامة بالأذان وفرغ الإمام مع إتمام إقامة المؤذن.

ثم يجمع بين الظهر والعصر بأذان وإقامتين وقصر الصلاة وراح إلى الموقف بعرفة، ولا يقف في وادي عرفة، وأما مسجد إبراهيم فصدره في الوادي وأخرياته من عرفة فمن وقف في صدر المسجد لم يحصل له الوقوف بعرفة، ويتميز مكان عرفة من المسجد بصخرات كبار والأولى أن يقف عند الصخرات بقرب الإمام مستقبل القبلة وليكثر من أنواع التحميد والتسبيح والتهليل والثناء على الله تعالى والدعاء والتوبة ولا يصوم في هذا اليوم ليقوى على المواظبة على الدعاء .

وينبغي أن لا ينفصل عن طرف عرفة إلا بعد الغروب ليجمع بين الليل والنهار في عرفة وإن أمكنه الوقوف ساعة من اليوم الثامن عند إمكان الغلط في الهلال فهو الحرم ومن فاته الوقوف ساعة حتى طلع الفجر يوم النحر فقد فاته الحج فعليه ان يتحلل من إحرامه بأعمال العمرة ثم يريق دماً لأجل الفوات ثم يقضي.

وليكن أهم أشغاله في هذا اليوم الدعاء فإنه ترجى الاجابة في هذا الجمع وهذا اليوم وهذه البقعة، وأولى الدعاء المأثور في يوم عرفة أن يقول لا إله إلا الله وحده لا شريك له،له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل

شيء قدير، اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً وفي بصري نوراً، اللهم اشرح لي صدري ويسر لي أمري.

الجملة السابعة: في بقية أعمال الحج بعد الوقوف من المبيت والرمي والنحر والحلق والطواف، ثم يجمع بين المغرب والعشاء بمزدلفة في وقت العشاء قاصراً لها بأذان واقامتين ليس بينهما نافلة ولكن يجمع نافلة المغرب والعشاء والوتر بعد الفريضتين، ويبدأ بنافلة المغرب.

ومن خرج منها في النصف الأول من الليل ولم يبت فعليه دم واجب، وإحياء هذه الليلة الشريفة من محاسن القربات لمن يقدر عليه، ثم مهما انتصف الليل يأخذ في التأهب للرحيل ويتزود الحصى منها ففيها أحجار رخوة فليأخذ سبعين حصاة فإنه قدراً لحاجة ولا بأس بأن الحصى صغيراً، ثم ليغلس لصلاة الصبح وليأخذ في السير حتى إذا انتهى إلى المشعر الحرام وهو آخر المزدلفة ، فيقف ويدعو إلى الاسفار.

ويقول: اللهم بحق المشعر الحرام والشهر الحرام والركن والمقام بلغ روح سيدنا محمد منا التحية والسلام وأدخلنا دار الإسلام يا ذا الجلال والإكرام.

ثم يندفع منها قبل طلوع الشمس حتى ينتهي إلى موضع يقال له وادي محسر فيستحب أن يحرك دابته حتى يقطع عرض الوادي، فإن كان راجلاً أسرع في المشي، ثم إذا أصبح يوم النحر خلط التلبية بالتكبير فينتهي إلى منى سائراً ومواضع الجمرات وهي ثلاثة، فيجاوز الأول والثاني فلا شغل له معهما يوم النحر حتى ينتهي إلى جمرة العقبة وهي على يمين مستقبل القبلة في الجادة.

والمرمى مرتفع قليلاً في سفح الجبل فيرمي جمرة العقبة، بعد طلوع الشمس بقدر الرمح قبل الذبح فيستقبل القبلة وإن استقبل الجمرة فلا بأس ويرمي سبع حصيات رافعاً يده ويكبر ويقول مع كل حصاة: اللهم تصديقاً بكتابك واتباعاً لسنة نبيك.

فإذا رمى قطع التلبية والتكبير، إلا التكبير عقيب فرائض الصلاة من ظهر يوم النحر إلى عقيب العصر آخر أيام التشريق.

ثم ليذبح الهدي إن كان معه والأولى أن يذبح بنفسه وليقل بسم الله والله أكبر اللهم منك وبك ولك تقبل مني كما تقبلت من خليلك إبراهيم عليه السلام.

والتضحية بالبدنة أفضل، ثم بالبقرة ثم بالشاة والشاة أفضل من مشاركة سبعة في البدنة، قال رسول الله ﷺ: **«خير الأضحية الكبش الأقرن»**. والبيضاء أفضل من الصفراء والسوداء، وليأكل منه إن كان هدي تطوع ولا يضحين بالجذعاء والعضباء والجرباء والشرقاء والخرقاء والمقابل والمدبرة.

ثم ليحلق بعد ذلك والسنة أن يستقبل القبلة ويبتدىء بمقدم رأسه فيحلق الشق الأيمن إلى العظمين المشرفين على القفا، ثم يحلق الباقي ويقول اللهم أثبت لي بكل شعرة حسنة وامح عني بها سيئة وارفع لي بها عندك درجة.

والمرأة تقص الشعر والأصلع يستحب له إمرار الموسى على الرأس، ومهما حلق بعد رمي الجمرة فقد حصل له التحلل الأول وحل له كل المحظورات إلا النساء والصيد.

ثم يسير إلى مكة ويطوف كما ذكرناه وهذا الطواف ركن في الحج ويسمى طواف الزيارة وأول وقته بعد نصف الليل من ليلة النحر وأفضل وقته يوم النحر ولا آخر لوقته بل له التأخير، ولكن يبقى مقيداً بالإحرام فلا تحل له النساء إلا بعد هذا الطواف.

فإذا طاف تم التحلل وارتفع الإحرام بالكلية ولم يبق إلا رمي أيام التشريق والمبيت بمنى وهي واجبات بعد زوال الاحرام على سبيل الاتباع للحج.

وأسباب التحلل ثلاثة: الرمي والحلق والطواف الذي هو ركن.

وفي الحج أربع خطب: خطبة يوم السابع، وخطبة يوم عرفة، وخطبة يوم النحر، وخطبة يوم النفر الأول، كلها عقب الزوال وكلها أفراد الا خطبة يوم عرفة فإنها خطبتان بينهما جلسة.

إذا فرغ من الطواف عاد إلى منى للمبيت والرمي فيبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة القر لأن الناس في غد يقرون في منى ولا ينفرون.

فإذا أصبح اليوم الثاني من العيد وزالت الشمس اغتسل للرمي وقصد الجمرة الأولى التي تلي عرفة وهي على يمين الجادة، ويرمي إليها سبع حصيات، فإذا أنفذها

انحرف قليلاً عن متن الجادة ووقف مستقبل القبلة وحمد الله تعالى وهلله وكبره ودعا مع الخشوع قدر قراءة سورة البقرة.

ثم يتقدم إلى الجمرة الوسطى ويرمي كما رمى الاول ويقف كما وقف للأول، ثم يتقدم إلى جمرة العقبة ويرمي سبعاً ولا يعرج على شغل.

ثم يرجع إلى منزله ويبيت تلك الليلة بمنى وتسمى ليلة النحر الأول.

ويصبح فإذا صلى الظهر في اليوم الثاني من التشريق رمى إحدى وعشرين حصاة كاليوم الذي قبله، ثم هو مخير بين المقام بمنى وبين العودة إلى مكة فإن خرج من منى قبل غروب الشمس فلا شيء عليه، وإن صار إلى الليل فلا يجوز له الخروج بل لزمه المبيت حتى يرمي في يوم النحر الثاني إحدى وعشرين حصاة كما سبق.

وفي ترك المبيت والرمي إراقة دم ويتصدق باللحم، وله أن يزور البيت في ليالي منى بشرط أن لا يبيت إلا بمنى كما كان رسول الله ﷺ يفعل ذلك.

الجملة الثامنة: في صفة العمرة وما بعدها إلى طواف الوداع وهو أن يغتسل ويلبس ثياب الإحرام ويحرم بالعمرة وينوي ويلبي ويقصد مسجد عائشة ويصلي ركعتين، ثم يعود إلى مكة ملبياً حتى يدخل المسجد الحرام. فإذا دخل المسجد ترك التلبية وطاف وسعى سبعاً. فإذا فرغ حلق رأسه وقد تمت عمرته.

الجملة التاسعة: في طواف الوداع وهو أن ينجز أشغاله ويشد رحاله ويشتغل بالوداع فيطوف سبعاً من غير رمي واضطباع، فإذا فرغ صلى ركعتين خلف المقام ويشرب من ماء زمزم، ثم يأتي الملتزم ويدعو ويتضرع ويلتمس الرضا والمغفرة.

الجملة العاشرة: في زيارة المدينة وآدابها قال رسول الله ﷺ: **«من زارني بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي»**، وقال عليه الصلاة والسلام: **«من وجد سعة ولم يزرني فقد جفاني»** وقال ﷺ: **«من جاءني زائراً لا يهمه إلا زيارتي كان حقاً على الله أن أكون له شفيعاً»**.

فمن قصد زيارة المدينة فليصلّ على رسول الله ﷺ كثيراً في طريقه، فإذا وقع بصره على حيطان المدينة وأشجارها قال: اللهم هذا حرم رسولك فاجعل لي وقاية من النار وأماناً من العذاب وسوء الحساب.

وليغتسل قبل الدخول من بئر الحرة وليطيب وليلبس أنظف ثيابه فإذا دخلها فليدخل إليها متواضعاً معظماً لها وليقل: بسم الله وعلى ملة رسول الله رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً.

ثم يقصد المسجد فيدخله ويصلي بجنب المنبر ركعتين، ويجعل عمود المنبر حذاء منكبه الأيمن ويستقبل السارية التي إلى جانبها الصندوق وتكون الدائرة التي في قبلة المسجد بين عينيه، فذلك موقف رسول الله ﷺ.

ثم يأتي قبر النبي ﷺ فيقف عند وجهه وذلك بأن يستدبر القبلة ويستقبل القبر على نحو من أربعة أذرع من السارية ويجعل القنديل على رأسه، وليس من السنة والاحترام أن يمسّ الجدار ولا أن يقبله ثم يقول: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا نبي الله، السلام عليك يا أمين الله، السلام عليك يا حبيب الله، السلام عليك يا صفوة الله، السلام عليك يا خيرة الله، السلام عليك يا أحمد، السلام عليك يا محمد، السلام عليك يا شفيع، السلام عليك يا عاقب، السلام عليك يا بشير، السلام عليك يا نذير، السلام عليك يا طه، السلام عليك يا أكرم ولد آدم، السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا رسول رب العالمين، السلام عليك يا سيد المرسلين، السلام عليك يا خاتم النبيين، السلام عليك يا قائد الخير، السلام عليك يا فاتح البر، السلام عليك يا نبي الرحمة، السلام عليك يا سيد الأمة، السلام عليك يا قائد الغر المحجلين.

السلام عليك وعلى أهل بيتك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين وأزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين.

جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، صلى الله عليك كلما ذكرك الذاكرون وغفل عن ذكرك الغافلون.

وصلى الله عليك في الأولين والآخرين أفضل وأكمل وأعلى وأجلّ وأطيب وأطهر ما صلى على أحد من خلقه كما استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وصفيه وأمينه وخيرته من خلقه وأشهد أنك قد بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين.

فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين الطاهرين وكرم وشرف.

وإن كان قد أوصي بتبليغ سلام فيقول السلام عليك من فلان.

ثم يتأخر قدر ذراع، ويسلم على الصديق رضي الله عنه لأن رأسه عند منكب رسول الله ﷺ، ورأس عمر رضي الله عنه عند منكب أبي بكر رضي الله عنهما.

ثم يتأخر قدر ذراع ويسلم على الفاروق. ويقول: السلام عليكما يا وزيري رسول الله ﷺ المعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً القائمين في أمته بعده بأمور الدين، تتبعان في ذلك آثاره وتعملان بسنته فجزاكما الله خير ما جزى وزيري نبي على دينه خيراً.

ثم يرجع فيقف عند رأس رسول الله ﷺ بين القبر والأسطوانة ويستقبل القبلة وليحمد الله وليمجده وليكثر من الصلاة على رسول الله ﷺ، ثم يقول: اللهم إنك قلت:

﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك واستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً﴾(١).

اللهم قد سمعنا قولك وأطعنا أمرك وقصدنا نبيك مستشفعين به إليك في ذنوبنا وما أثقل ظهورنا من أوزارنا تائبين من زللنا معترفين بخطايانا، فتب علينا اللهم واشفع نبيك هذا فينا وارحمنا بمنزلته عندك وحقه عليك.

اللهم اغفر للمجاهدين والمهاجرين والانصار ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، اللهم لا تجعله آخر العهد من قبر نبيك ومن حرمك برحمتك يا أرحم الراحمين ثم يأتي الروضة فيصلي فيها، ويكثر من الدعاء لقوله عليه الصلاة والسلام: **«ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة ومنبري على حوضي»**.

(١) النساء ٦٤.

ويدعو عند المنبر، ويستحب أن يضع يده على الرمانة السفلى.

ويستحب أن يخرج يوم الخميس فيزور قبور الشهداء، فيصلي الغداة في مسجد رسول الله ﷺ، ويخرج للزيارة ويعود إلى المسجد لصلاة الظهر حتى لا يفوته فريضة في الجماعة في المسجد.

ويستحب أن يخرج في كل يوم إلى البقيع بعد السلام على رسول الله ﷺ، ويزور قبر الحسن بن علي رضي الله عنه، ويزور قبر عثمان، ويزور قبر علي بن الحسين بن علي، ومحمد بن علي، وجعفر بن محمد، والعباس رضوان الله عليهم أجمعين.

ويصلي في مسجد فاطمة رضي الله عنها، ويزور قبر إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، وقبر صفية عمة رسول الله ﷺ.

وينبغي أن لا يتجر ليكون قصده العبادة وحدها ومهما أمكنه أن يوسع النفقة على غيره فعل، ويكون توجهه إلى الحج توجهاً إلى الله تعالى فلا ينساه في كل حال، ويتبرأ من الحول والقوة فافهم تغنم والله أعلم.

* * *

الباب الثامن

في تلاوة القرآن

قال رسول الله ﷺ : « **من قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استصغر ما عظمه الله تعالى** . وقال عليه السلام : « **ما من شيء أفضل منزلة عند الله يوم القيامة من القرآن** » لا نبي ولا ملك ولا غيره .

وقال ﷺ : « **إن الله عز وجل قرأ طه ويسٓ قبل أن يخلق الخلق بألفي عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل عليهم هذا وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تنطق بهذا** » .

فصل

في ذم تلاوة الغافلين

قال أنس بن مالك : رُبّ تال للقرآن والقرآن يلعنه . وقال أبو سليمان الداراني : الزبانية أسرع إلى حملة القرآن الذين يعصون الله تعالى منهم إلى عبدة الأوثان . حين عصوا الله بعد القرآن .

فقد ورد في التوراة : يا عبدي أما تستحي مني يأتيك كتاب من بعض إخوانك وأنت في الطريق تمشي فتعدل عن الطريق فتقعد لأجله وتقرأه وتدبره حرفاً حرفاً حتى لا يفوتك منه شيء وهذا كتاب أنزلته إليك أنظر كم فصلت لك فيه من القول ، وكم كررت عليك فيه لتأمل طوله وعرضه ، ثم أنت معرض عنه أفكنت أهون عليك من بعض إخوانك يا عبدي ، يقص عليك بعض إخوانك حديثاً فتقبل عليه بكل وجهك وتصغي إلى حديثه بكل قلبك ، فإن كلمك متكلم أو شغلك شاغل عن حديثه أومأت إليه أن كف وها أنا ذا مقبل عليك ومحدث لك وأنت تعرض عني بقلبك أفجعلتني أهون عندك من بعض إخوانك تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

فصل

وينبغي أن يكون على وضوء وعلى هيئة الأدب قائماً أو جالساً ، وأفضله ما يقرأه في الصلاة قائماً وقال ﷺ : « **من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفهمه** » .

وكرهوا أن يختم كل ليلة ، ولعل الختم في كل أسبوع قريب ، والترتيل مستحب في تلاوة القرآن . وقال ﷺ : « **إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فتحازنوا** » .

وينبغي أن يراعي حق آية السجدة فيسجد سواء سمعه من غيره أو قرأ هو بنفسه إذا كان على وضوء ، وفي القرآن أربع عشرة سجدة ، وفي الحج سجدتان ، وليس في صٓ سجدة .

فصل

ينبغي أن تكون قراءته بتعظيم وتدبر ، فإن الله تعالى لطف بخلقه في نزوله عن عرش جلاله إلى درجة إفهام خلقه حتى أوصل معاني كلامه الذي هو صفة ذاته إلى أفهام خلقه ، وكيف تجلت لهم تلك الصفة في طي حروف وأصوات ولولا استتار كنه جمال كلامه بكثرة حروف لما ثبت لسماع الكلام عرش ولأثرى ولتلاشى ما بينهما من عظمة سلطانه وسبحات نوره .

ولولا تثبيت الله موسى عليه الصلاة والسلام لما أطاق سماع كلامه كما لم يطق الجبل مبادي تجلية حيث صار دكاً دكاً ، وليكن تعظيم المتكلم حاضراً في قلبه مساوقاً كأنه مبلغ له في قراءته ويظن أن الله تعالى يخاطبه بذلك .

فصل

قال عليه الصلاة والسلام : «**إن للقرآن ظهراً وبطناً واحداً ومطلعاً**» . وقال علي كرم الله وجهه ورضي عنه : لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب . فتبين أن أسرار القرآن لا تنقضي وعجائبه لا تحصى .

وذلك على قدر طهارة القلب ويدل على أن التفسير ليس مسموعاً منقولاً كالتنزيل قوله عليه الصلاة والسلام لابن عباس« **اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل**» قال تعالى : ﴿**لعلمه الذين يستنبطونه منهم**﴾(١) أثبت لأهل العلم استنباطاً فيدل على أنه لا يتوقف على محض السماع والله أعلم فافهم تغنم والله أعلم .

(١) النساء ٨٣.

الباب التاسع

في الأذكار والدعوات

قال الله تعالى: ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ فإذا قضيتم الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم ﴾[2] وقال عليه الصلاة والسلام: « ذاكر الله في الغافلين كالحي بين الأموات » وقال عليه الصلاة والسلام: « ذاكر الله في الغافلين كشجرة خضراء في وسط الهشيم ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل فيه إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله فيمن عنده » وقال: « ما قعد قوم مقعداً لم يذكروا الله ولم يصلوا على رسول الله ﷺ إلا كان حسرة عليهم يوم القيامة » وقال ﷺ: « أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له ».

وقال النبي ﷺ: « من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد ثلاثاً وثلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وختم المائة بلا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، غفرت ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر ».

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قال: يا رسول الله تولت عني الدنيا وقلت ذات يدي قال عليه السلام: « أين أنت من صلاة الملائكة وتسبيح الخلائق وبها يرزقون» قال: قلت وماذا يا رسول الله؟ قال: « سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله، مائة مرة ما بين طلوع الفجر إلى أن تصلي الصبح تأتيك الدنيا راغمة صاغرة ويخلق الله تعالى من كل كلمة ملكاً يسبح الله تعالى إلى يوم القيامة لك ثوابه ».

---

(١) غافر ٦٠. (٢) النساء ١٠٣.

وقال ﷺ : « **إذا قال العبد الحمد لله ملأت ما بين السماء والأرض فإذا قال الحمد لله الثانية ملأت ما بين السماء السابعة إلى الأرض السفلى . فإذا قال الحمد لله الثالثة قال الله تعالى سل تعطَ** » وقال ﷺ : « **الباقيات الصالحات هن لا إلّه إلا الله وسبحان الله والله أكبر والحمد لله ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العلي العظيم** » .

وقال ﷺ : « **ما من رجل يقولها إلا غفرت له ذنوبه ولو كانت مثل زبد البحر** » رواه ابن عمر رضي الله عنه . وأعلم أن النافع من جملة الأذكار ما حضر فيه القلب ، وما عداه فهو قليل الجدوى فإن المقصود الأنس بالله وذلك بالمداومة على الذكر مع حضور القلب ، وبذلك تؤمن من سوء الخاتمة والله أعلم .

فصـل
في آداب الدعاء

فليسترصد الأوقات الشريفة ، ويكون على الوضوء مستقبل القبلـة ، ويكون بخفض الصوت والتضرع موقناً بالإجابة ملحاً فيه ، ويفتح الدعاء بذكر الله تعـالى وبالصلاة على رسوله ﷺ ، وبرد المظالم قبل إقباله على الدعاء .

فضيلة الصلاة على رسول الله ﷺ :

روي أنـه عليه الصـلاة والسـلام جاء ذات يوم البشرى ترى في وجهـه ، فقال ﷺ : « **أنه جاءني أخي جبريل عليه السلام فقال أما ترضى يا محمد أن لا يصلي عليك أحد من أمتك مرة إلا** [illegible] **عليه عشراً** » وقال : « **من صلى علي صلت عليه الملائكة ما صلى** [illegible] **ذلك أو ليكثر** » .

وقال ﷺ : [illegible] **صلى علي في كتاب لم تزل الملائكة يستغفرون له ما دام اسمي في ذلك الكتاب** » .

فضيلة الاستغفار :

قـال الله تعـالى : ﴿ **والـذين إذا فعلـوا فاحشـة أو ظلمـوا أنفسهـم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم** ﴾[1] وقال تعـالى : ﴿ **والمستغفـرين بالأسحـار** ﴾[2] وقـال عليه

(١) آل عمران ١٣٥ . (٢) آل عمران ١٧ .

الصلاة والسلام : « إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم والليلة سبعين مرة » وقال عليه الصلاة والسلام : « ما أصر من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » .

وقال عليه الصلاه والسلام : « من عمل ذنباً فعلم أن الله قد اطلع عليه غفر له وإن لم يستغفر » وقال النبي ﷺ : « يقول الله عز وجل يا عبادي كلكم مذنب إلا من عافيته فاستغفروني أغفر لكم ومن علم أني ذو قدرة على أن أغفر له غفرت له ولا أبالي » .

وقال ﷺ : « من قال سبحانك ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت غفرت ذنوبه ولو كانت كدبيب النمل » . وقال فضيل بن عياض استغفار بلا إقلاع توبة الكذابين .

فصل

ويستحب أن يفتتح الدعاء بقوله : سبحان ربي العلي الأعلى الوهاب لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو حي لا يموت وهو على كل شيء قدير، رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً .

ثم قال : اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، وأعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان الرجيم وشركه .

وقل : اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني وأهلي ومالي، واللهم استر عوراتي وآمن روعاتي . واعلم أن الدعوات كثيرة فاشتغل منها بما رأيت نفسك فيها حاضرة والسلام على من اتبع الهدى .

الباب العاشر

في الأوراد

اعلم أن الله تعالى جعل الأرض ذلولاً لعباده ليتخذوها منزلاً ويتزودوا منها محترزين من مصائبها ومعاطبها، ويتحققوا أن العمر يسير بهم سير السفينة براكبها .

فالناس في هذا العالم سفر وأول منازلهم المهد وآخرها اللحد والوطن هو الجنة أو النار، والعمر مسافة السفر وسنوه مراحله وشهوره فراسخه وأيامه أمياله، وأنفاسه خطواته، وطاعاته بضاعته وأوقاته رأس ماله وشهواته وأغراضه قطاع طريقه، وربحه الفوز بلقاء الله في دار السلام مع الملك الكبير والنعيم المقيم، وخسرانه البعد من الله تعالى والعياذ بالله مع الانكال والإغلال والعذاب الأليم في دركات الجحيم، فالغافل ولو عن نفس من عمره متعرض إلى حسرة لا نهاية لها وخسران لا تدرك له نهاية .

فصل

في فضيلة الأوراد وترتيبها وأحكامها

قال الله تعالى : ﴿ إن لك في النهار سبحاً طويلاً واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلاً ﴾[1] وقال الله تعالى : ﴿ واذكر اسم ربك بكرة وأصيلاً ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلاً طويلاً ﴾[2] .

فإن أردت أن تسعد سعادة لا تشقى بعدها فاستوعب جميع نهارك وليلك بالطاعة، فإن سيد المرسلين ﷺ مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر أمر بذلك، فأنت بالمداومة أحق وأمرك في الخطر فلا تشتغل بالكسب والأمور

(١) المزمل ٧.   (٢) الانسان ٢٥.

الدنيوية إلا بقدر حاجتك وما عدا ذلك فاستعمله في طريق الآخرة ولا تترك قيام الليل. قال عليه الصلاة والسلام: « **لا بد من قيام الليل ولو قدر حلب شاة** ».

ولا ينبغي أن تستجلب للنفس النوم بتمهيد الفرش الوطية بل تشتغل بالصلاة والذكر إلى أن يغلبك النوم. وقال النبي ﷺ: « **يعقد الشيطان على ناصية أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد، يضرب مكان كل عقدة عليك ليل طويل فارقد فإن استيقظ وذكر الله تعالى انحلت عقدة، فإن توضأ انحلت عقدة، فإن صلى انحلت عقدة، فأصبح نشيطاً طيب النفس وإلا أصبح خبيث النفس كسلان** ».

وفي الخبر أنه ذكر عنده عليه الصلاة والسلام رجل نام كل الليل حتى أصبح فقال: « **ذاك بال الشيطان في أذنه** »وقال النبي ﷺ: « **ركعتان يركعهما العبد في جوف الليل خير له من الدنيا وما فيها. ولولا أنني أشق على أمتي لفرضتها عليهم** ».

بيان الليالي والأيام الفاضلة:

والأيام قد سبق ذكرها أما الليالي فخمسة عشر وهي أوتار، العشر الأخير من رمضان، وليلة السابع عشر من رمضان، فهي ليلة صبيحة يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فيه كانت وقعة بدر.

وأما الليالي الأخر، فأول ليلة من المحرم، وليلة عاشوراء، وأول ليلة من رجب، وليلة النصف منه، وليلة سبع وعشرين منه، وهي ليلة المعراج، وفيها صلاة مأثورة، فقد قال النبي ﷺ: « **للعامل في هذه الليلة حسنات مائة سنة فمن صلى فيها اثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة قٓ يتشهد في كل ركعتين ويسلم في آخرهن ثم يقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر مائة مرة ويستغفر مائة مرة ويصلي على النبي ﷺ مائة مرة ويدعو لنفسه ما شاء من أمر دنياه وآخرته ويصبح صائماً فإن الله تعالى يستجيب له دعاءه كله إلا أن يكون في معصية** ».

وأما ليلة النصف من شعبان، ففيها مائة ركعة في كل ركعة فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص عشر مرات، ويستحب على الخصوص إحياء ليلتي العيدين قال عليه الصلاة والسلام: « **من أحيا ليلتي العيدين لم يمت قلبه يوم تموت القلوب** » وآخر ليلة من ذي الحجة وفيها فضل عظيم.

تم ربع العبادات، ويتلوه ربع العادات

الباب الحادي عشر

في آداب الأكل والشرب

وينبغي أن يكون أكلك على نية التقوي به على طاعة الله تعالى وعبادته بعد كونه حلالاً على ما سيأتي ذكره؛قال الله تعالى: ﴿ **يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً** ﴾[1].

وإذا كان أكلك لله فهو جدير بأن تقدم عليه غسل اليد لقوله عليه الصلاة والسلام: « **الوضوء قبل الطعام ينفي الفقر وبعده ينفي اللمم** » وينبغي أن يكون على السفرة فذلك أقرب إلى السنة، وكان عليه السلام إذا أتي بطعام وضعه على الأرض لأنه أقرب إلى التواضع وكان ﷺ يقول: « **لا آكل متكئاً إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأشرب كما يشرب العبد** » وقيل أربع أحدثن بعد رسول الله ﷺ: **الموائد والمناخل** والأشنان والشبع.

ولا نقول إن الأكل على الموائد منهي عنه فليس كل مبدع منهياً عنه، وينبغي أن يحسن الجلسة على السفرة في أول جلوسه ويستديمها **هكذا كان يفعل رسول الله ﷺ** وربما جثى للأكل على ركبتيه وجلس على ظهر قدميه، وربما نصب رجله اليمنى وجلس على اليسرى.

ويكره الأكل والشرب نائماً ومتكئاً إلا ما يتنقل به، وليعزم على قلة الأكل والشرب فإنه لا يصدق في نية الأكل للعبادة إلا بذلك، قال النبي ﷺ: «**ما ملأ ابن ادم وعاء شراً من بطنه، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه، فإن لم يفعل فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس**».

(١) المؤمنون ٥١.

فإذاً ينبغي أن لا يقدم على الطعام إلا بعد الجوع فإن الشبع على الشبع يقسي القلب، ويمسك قبل الشبع ولا ينتظر لذيذ الأطعمة والأدم، فإن من كرامة الخبز أن لا ينتظر به الأدم.

وينبغي أن يجتهد في تكثير الأيدي وإن كان من أهله وولده فخير الطعام ما كثرت عليه الأيدي، كان عليه السلام لا يأكل وحده رواه أنس رضي الله عنه.

فصل
في آداب الأكل

وهو أن يبدأ باسم الله في أوله، وبالحمد في آخره، وحسن أن يقول بسم الله مع كل لقمة حتى لا يشغله الشره عن ذكر الله، فيقول في اللقمة الأولى بسم الله وفي الثانية بسم الله الرحمن وفي الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم ويجهر به ليذكر غيره.

ويأكل باليمنى ويبدأ بالملح ويختم به ويصغر اللقمة ويجود مضغها ولا يمد اليد إلى أخرى ما لم يبلغ الأولى، وأن لا يذم مأكولاً، كان ﷺ لا يسب طعاماً قط إن كان أعجبه أكله وإلا تركه.

وأن يأكل مما يليه إلا الفاكهة، وكان ﷺ يقول: **«كل مما يليك ثم كان يدير يده على الفاكهة»** فقيل له في ذلك فقال ﷺ: **«ليس هو نوعاً واحداً»**.

وأن لا يأكل من ذروة القصعة ومن وسط الطعام، بل يأكل من استدارة الرغيف وأن لا يقطع بالسكين لا الخبز ولا اللحم فقد نهي عنه قال ﷺ: **«انهشوا نهشاً»** ولا يوضع على الخبز القصعة ولا غيرها إلا ما يؤكل به قال النبي ﷺ: **«أكرموا الخبز فإن الله تعالى أنزله من بركات السماء»** ولا يمسح يده في الخبز.

وقال النبي ﷺ: **«إذا وقعت لقمة أحدكم فليأخذها وليمط ما كان بها من أذى ولا يدعها للشيطان، وليلعق أصبعه»** ولا ينفخ في الطعام الحار فإن ذلك منهي عنه.

ويأكل من التمر الأوتار ولا يجمع بين التمر والنوى على طبق، وأما الشرب فليأخذ الكوز بيمينه ويقول: بسم الله ويشرب به مصاً لا عباً، فإن الكباد من العب ويقول بعد الشرب: الحمد لله الذي جعله عذباً فراتاً برحمته، ولم يجعله ملحاً أجاجاً بذنوبنا.

وكل ما يدار على القوم يدار يمنة ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله تعالى في أواخرها، ويسمي في أوائلها، فإذا فرغ من الطعام يستحب أن يلتقط فتات الطعام، ويتخلل، ويقال أن من لعق القصعة وشرب ماءها كان له عتق رقبة ويقول: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وتنزل البركات اللهم لا تجعله قوة على معصيتك، ويقرأ سورة الإخلاص ولإيلاف قريش.

ولا يقوم حتى يرتفع الطعام والمائدة وإن كان لغيره فليدع له ويقول: أكل طعامكم الأبرار وأفطر عندكم الصائمون وصلت عليكم الملائكة. ويستحب أن يقول الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا سيدنا ومولانا. ثم يتمم بغسل يديه.

فصل

وإذا كان في جمع فيصبر إلى أن يمد له من هو أكبر منه سناً إلا أن يكون هو المتبوع ويتحدثون بما فيه خير، ويرفق برفيقه ولا يحلف على أحد، قال الحسن بن علي رضي الله عنه: الطعام أهون من أن يحلف عليه، ولا بأس بإعادة قوله كل ثلاثاً.

وإذا أكرمه غيره بتقديم الطشت إليه فليقبل، اجتمع أنس بن مالك وثابت البناني فقدم أنس الطشت إليه فامتنع قال أنس رضي الله عنه: **إذا أكرمك أخوك** فاقبل كرامته ولا تردها فإنما يكرم الله عز وجل.

ولا بأس بالاجتماع في الطشت على غسل اليد ويستحب أن يجمع ماء الكل في الطشت ما أمكن قال عليه الصلاة والسلام: **«اجمعوا وضوءكم جمع الله شملكم»**.

وحسن أن يصب صاحب المنزل الماء على أيديهم، ويمنة يدار الطشت، وينبغي أن لا يفعل ما يكرهه القوم من النظر إليهم في أكلهم ومن نفض اليد في القصعة، والإمساك قبلهم إظهاراً لقلة أكله، قال جعفر بن محمد: إذا قعدتم مع الإخوان على المائدة فأطيلوا الجلوس فإنها ساعة لا تحسب عليكم من أعماركم.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تزال الملائكة تصلي على أحدكم ما دامت مائدته موضوعة بين يديه حتى ترفع»**، وقال الحسن: كل نفقة ينفقها الرجل على نفسه وأبويه فمن دونهم، يحاسب عليها غداً إلا نفقة الرجل على إخوانه في الطعام فإنها

له حجاب من النار وقال علي رضي الله عنه: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إلي من أن أعتق رقبة».

وكانوا إذا اجتمعوا على قراءة القرآن لا يتفرقون إلا عن ذواق. وفي الخبر: يقول الله عز وجل يوم القيامة يا ابن آدم جعت فلم تطعمني فيقول كيف أطعمك وأنت رب العالمين فيقول الله تعالى جاع أخوك المسلم فلم تطعمه ولو أطعمته كنت أطعمتني.

وقال عليه الصلاة والسلام: « **إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها أعدها لمن ألان الكلام وأطعم الطعام وصلى بالليل والناس نيام** » ولا ينبغي أن يمشي إلى الطعام الذي لم يدع إليه ففي الخبر أن من مشى إلى طعام لم يدع إليه مشى فاسقاً وأكل حراماً إلا إذا كان يعلم من ذلك الرجل فرحه به. قصد رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما منزل أبي الهيثم بن التيهان وأبي أيوب الأنصاري لأجل طعام يأكلونه وكانوا جياعاً.

فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وعلم أنه يفرح فيقدم طعامه ويأكله. ومن الأداب أن لا يقترح على أخيه شيئاً معيناً فلعله يعسر عليه إلا إذا وثق به وإن اقترح عليه أحد الشيئين فليختر أيسرهما عليه ولا بأس أن يقول لهم اقترحوا ما شئتم ففيه الثواب الجزيل.

فقد روى جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **من لذذ أخاه بما يشتهي كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة ورفع له ألف ألف درجة وأطعمه الله تعالى من ثلاثة جنات جنة الفردوس وجنة عدن وجنة الخلد** » وأن لا يقول له هل أقدم لك مطعماً بل ينبغي أن يقدم له فإن اشتهى أكل وإلا رفع، هكذا قاله الثوري.

فصل
في آداب الضيافة

قال عليه الصلاة والسلام: « **لا تتكلفوا للضيف فتبغضوه، فإن من أبغض الضيف فقد أبغض الله ومن أبغض الله فقد أبغضه الله** » والإجابة سنة للفقير والغني وفي بعض الكتب المنزلة: سر ميلاً عد مريضاً، سر ميلين شيع جنازة سر ثلاثة أميال أجب دعوة.

وقال ﷺ لو دعيت إلى كراع لأجبت وهو موضع على أميال من المدينة، أفطر عليه السلام لما بلغه في رمضان وقصر عنه في سفره.

ويفطر إذا كان صائماً من التطوع، فإدخال السرور على قلبه أفضل ويمتنع من الإجابة إن كان الطعام الموضوع أو الفراش فيه شبهة، أو كان الداعي فاسقاً أو ظالماً أو مبتدعاً أو طالباً بذلك للمباهاة.

وينوي بالإجابة طاعة لا قضاء شهوة، ولا يخرج من منزل المضيف إلا بإذنه.
وروي أن ابن عمر قال: كنا نأكل على عهد رسول الله ﷺ ونحن نمشي ونشرب ونحن قيام. ويستحب أن يحمل طعام إلى أهل الميت. فافهم تغنم والله أعلم وإليه المرجع والمآب.

الباب الثاني عشر

في آداب النكاح

إعلم أن العلماء اختلفوا فيه، حتى ذهب بعضهم إلى أنه أفضل من التخلي للعبادة. واعترف آخرون بفضله ولكن قدموا عليه التخلي، ما لم تتق نفسه إلى النكاح، وذهب بعضهم إلى أن الأفضل في زماننا تركه إذ غالب الأكساب محظورة، وأخلاق النساء مذمومة.

ويدل على الترغيب فيه قوله تعالى: ﴿ **وانكحوا الأيامى منكم** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين** ﴾[2] وقال النبي ﷺ: « **النكاح سنتي فمن أحب فطرتي فليستن بسنتي** ».

ويدل على الترغيب عنه قوله ﷺ: « **خير الناس بعد المائتين الخفيف الحاذ الذي لا أهل له ولا ولد** » وقال ﷺ: « **يأتي على الناس زمان يكون هلاك الرجل على يد زوجته وأبويه وولده يعيرونه بالفقر ويكلفونه ما لا يطيق فيدخل المداخل التي يذهب فيها دينه فيهلك** ».

فصل

في فوائد النكاح

هي كثيرة فمنها الولد الصالح، وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، وثواب المجاهدة، في القيام لنفقتهم. فإن كان الولد صالحاً لحقه بركة دعائه، وإن توفي كان له شفيعاً. وآفات النكاح أنه يعسر عليه الإنفاق من الحلال وطلبه وهو

(١) النور ٣٢. (٢) الفرقان ٧٤.

واجب، ولعله أيضاً يقصر عن القيام بحقها فلها حقوق، ويلزمه حسن الاحتمال والرفق بهن، وهذا لا يقوى عليه إلا الأقوياء.

ومن الآفات العظيمة أن يكون الأهل والولد شاغلين عن دوام ذكر الله تعالى، وسلوك طريق الآخرة، ولعله يورث البخل في الغالب وهو من المهلكات.

وقد نبهناك على الفوائد والآفات، وهو يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال فاختبر حالك واختر لنفسك ما هو أقرب لك إلى طريق الآخرة والله أعلم.

فصل

فيما يختار حالة العقد من أحوال المرأة وشروط العقد

وشروطه حتى ينعقد أربعة: إذن الولي فإن لم يكن فالسلطان، ورضا المرأة إن كانت ثيباً بالغة، وحضور شاهدين ظاهري العدالة.

وينعقد بمستوري الحال وإيجاب وقبول متصل بلفظ الإنكاح أو التزويج أو معناهما الخاص، بكل لسان من شخصين مكلفين ليس فيهما امرأة سواء كانا هما الزوج والولي أو وكيلهما.

وأما آدابه فتقديم الخطبة مع الولي لا في حال عدتها، ولا في حال سبق خطبة من غيره، فقد نهى رسول الله ﷺ عن الخطبة على الخطبة.

ومن آدابه الخطبة قبل النكاح ومزج التحميد بالإيجاب والقبول، فيقول المزوج بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله ﷺ زوجتك، فيقول الزوج كذلك ثم يقول قبلت نكاحها على هذا الصداق.

وإلقاء أمر الزوج على البكر مستحب فإنه أقرب إلى الإلفة، وكذلك يستحب تقديم النظر إليها ومن الآداب إحضار جمع من أهل الصلاح للاستظهار وراء العدلين.

وينبغي أن ينوي بالنكاح غض البصر وطلب الولد الصالح وتكثير الأمة، ومن الشرائط أن لا تكون رقيقة ما دام الزوج قادراً على مهر الحرة، ولا تكون محرمة من

الرضاع فإنه يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، والمحرم خمس رضعات وما دونها لا يحرم.

وأما الخصال المطلوبة لدوام العيش فثمانية: الدين والخلق الحسن وخفة المهر والولادة والبكارة والنسب وأن لا تكون قرابة قريبة، فكل ذلك مما دلت عليه الآثار والأخبار.

فصل

في آداب المعاشرة وما على الزوج والزوجة

أما الزوج فعليه الوليمة قال عليه الصلاة والسلام: **«أولم ولو بشاة»** وعليه حسن المعاشرة والرعاية وحسن السياسة، في الغيرة والنفقة والتعليم والقسم والتأديب في النشوز والوقاع ويكره العزل.

وإذا ولد له ولد فيؤذن في أذن المولود، كذلك روي عنه ﷺ وان يحسن اسمه قال عليه الصلاة والسلام: **«إنكم تدعون يوم القيامة بأسمائكم فأحسنوا أسماءكم»** ومن كان له اسم يكره فيستحب تبديله، فعل ذلك رسول الله ﷺ وقال عليه الصلاة والسلام: **«لا تجمعوا بين اسمي وكنيتي»** ويستحب التحنيك بالتمر أو بحلاوة.

وعلى المرأة طاعته في جميع الأحوال والشفقة على أحواله وأمواله والرفق بأقاربه، وقد روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: **«حرم الله على كل آدمي دخول الجنة قبلي غير أني أنظر عن يميني فإذا امرأة تبادرني فأقول ما لهذه تبادرني الباب؟ فيقال لي يا محمد هذه امرأة حسناء وكان عندها يتامى لها فصبرت حتى بلغ أمرهم الذي بلغ فشكر الله تعالى لها ذلك»**.

وروي أنه عليه السلام قال: **«لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا المرأة على الزوج أربعة أشهر وعشراً»** ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة والله أعلم.

***

الباب الثالث عشر

في آداب الكسب والمعاش

وفيه فصول:

يدل على فضله قوله عليه الصلاة والسلام: **«من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا الهم في طلب المعيشة»** وقال عليه الصلاة والسلام: **«التاجر الصدوق يحشر يوم القيامة مع الصديقين والشهداء»** وفي الخبر أن الله تعالى يحب المؤمن المحترف، وقد ورد أيضاً قوله ﷺ: **«ما أوحي إلي أن أجمع المال وكن من التاجرين، ولكن أوحي إلي أن سبح بحمد ربك وكن من الساجدين واعبد ربك حتى يأتيك اليقين»**.

وأعلم أن السؤال لا يخلو عن نوع من الكراهية، فالكسب أولى إلا في حق من يتعلق به مصالح المسلمين فعند ذلك يكون ترك الكسب والقيام بتلك المصالح أولى، فيكتفي من مال المصالح أو غيرها، ولهذا أشارت الصحابة على أبي بكر رضي الله عنه لما ولي الخلافة بترك التجارة فتركها، وكان يكتفي من مال المصالح وهو يقوم بمصالح الخلق.

فصل

في بيان شروط صحة المعاملات

أما البيع فله ثلاثة أركان: العاقد والمعقود عليه واللفظ.

فلا ينبغي أن يعامل أربعاً: الصبي والمجنون والعبد والأعمى، ويجوز البيع من الكافر ولكن لا يباع منه المصحف والعبد المسلم ولا يباع منه السلاح إن كان من أهل الحرب، ولا يجوز بيع الخمر والودك النجس والعاج ولا شراؤها.

ويجوز بيع الدهن الذي نجس بوقوع نجاسة فيه، ولا يجوز بيع الكلب والحشرات والملاهي، ويجوز بيع ما عليه الصور من الفرش واستعمالها لقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «اتخذي منها نمارق» ولا يجوز استعمالها منصوبة ويجوز موضوعة.

وينبغي أن يكون مملوكاً مقدوراً على تسليمه معلوم العين، وينبغي أن يأتي بلفظ الإيجاب والقبول، وفي المحقرات والمطعومات قول أو وجه خرجه ابن سريج أنه يكفي فيها المعاطاة لمسيس الحاجة. وأما الربا فقد ورد فيه تهديدات كثيرة فليحترز منه، والسلم مباح وكذا الاجارة وشرائطها مستوفاة في كتب الفقه فلتطالع.

فصل

في بيان العدل والإحسان واجتناب الظلم في المعاملات

اعلم أن المعاملة قد يفتي المفتي فيها بالصحة، ولكن تشتمل على نوع من الظلم يتعرض به العامل لسخط الله تعالى.

فمنه الاحتكار وهو في الطعام والمحتكر ملعون، وفيه تشديدات عظيمة ومنه إخفاء العيوب، فإن فيه خيانة ومنها تعديل الميزان ففي تركه تغليظات عظيمة وفيه قوله تعالى: ﴿**ويل للمطففين**﴾[1] وبالجملة فجميع أنواع التلبيس محرم، فلا يجوز أن يقدم على شيء لا يريد شراءه، ويطلب بما فوق ثمنه ترغيباً للمشتري فيه. ونهي عن بيع حاضر لبادٍ ولو اشترى الشيء بمسامحة من رفيقه أو ولده فليذكره للمشتري، حتى لا يعول على شرائه.

وينبغي أن يحسن وهو أن لا يغبن غيره بما لم تجر العادة بمثله، والمساهلة في البيع والشراء مندوب إليها قال عليه الصلاة والسلام: «**رحم الله امرءاً سهل البيع سهل الشراء سهل القضاء سهل الاقتضاء**».

فمن اغتنم دعاء رسول الله ﷺ يكون في معاملته ربح الدنيا والآخرة، وقال ﷺ: «**من أنظر معسراً أو تركه له حاسبه الله حساباً يسيراً**» ومن الإحسان أن يقيل

(١) المطففين ١.

من يستقيله. قال عليه الصلاة والسلام: «**من أقال نادماً صفقته أقال الله تعالى عثرته يوم القيامة**».

فصل

وينبغي أن لا تشغلك التجارة فتطلب الربح في الدنيا وتضيع رأس المال في الآخرة، فتخسر خسراناً مبيناً، فلتكن نيتك من التجارة الكسب في طلب الحلال والتعفف عن السؤال وتحصيل الزاد لتتفرغ به لطلب الآخرة.

واعلم أن السلف رضي الله تعالى عنهم كرهوا أخذ الأجرة على ما هو من قبيل العبادات، وفروض الكفايات كغسل الأموات ودفنهم والأذان وصلاة التراويح، وإذا كان يريد بتجارته ما قدمناه فلا يشغله سوق الدنيا عن سوق الآخرة وهو المساجد. قال الله تعالى: ﴿**رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله**﴾[1] وذلك بأن يلازم من أول الصبح إلى ضحوة النهار المساجد، ويرجع اليها عند فرائض الصلوات.

فكلما أقرع الأذان سمعه يترك ما هو فيه من المعاملات الدنيوية، كان بعضهم إذا سمع الأذان وقد رفع المطرقة لا يوقعها بل يتركها، وليكن بقلبه في السوق ذاكراً لله تعالى. فقد ورد فيه فضائل. وقال ﷺ: «**من دخل السوق فقال: لا إلّه إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت، وهو حي لا يموت بيده الخير وهو على كل شيء قدير**». كتب الله له ألفي ألف حسنة.

وينبغي أن يكون مراقباً لمعاملاته حتى لا يجري فيها ما يتعذر عليه الخروج من عهدته يوم الحساب، فإنه سيحاسب على ما جرى منه من المعاملات ويطالب فيها بنيته وبحقوق الناس أحفظها، أم ضيعها، والله أعلم بالصواب.

***

(١) النور ٣٧.

الباب الرابع عشر

في الحلال والحرام

روي عن ابن مسعود أنه ﷺ قال: «**طلب الحلال فريضة على كل مسلم**». وقد ركن من استولى عليه الكسل إلى أنه لم يبق الحلال فاسترسل في كل شيء، وذلك جهل فقد قال ﷺ: «**الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات**».

فضيلة الحلال: قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً**﴾[1]. وقال ﷺ: «**من أكل الحلال أربعين يوماً نور الله قلبه وأجرى ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه**». وفي رواية، زهده الله في الدنيا.

وروي أن سعداً سأل رسول الله ﷺ أن يسأل الله تعالى أن يجعله مستجاب الدعوة فقال عليه الصلاة والسلام: «**أطب طعمتك تستجب دعوتك**». وفي حديث ابن عباس عن النبي ﷺ: «**أن لله ملكاً على بيت المقدس ينادي كل ليلة من أكل حراماً لم يقبل منه صرف ولا عدل**». فقيل الصرف النافلة والعدل الفريضة.

وقال ﷺ: «**من اشترى ثوباً بعشرة دراهم وفي ثمنه درهم حرام لم يقبل الله صلاته ما دام عليه**» وقال النبي ﷺ: «**كل لحم نبت من الحرام فالنار أولى به**».
وقال ﷺ: «**من لم يبال من أين اكتسب المال لم يبال الله تعالى من أين أدخله النار**».
وقال ﷺ: «**العبادة عشرة أجزاء فتسعة منها في طلب الحلال**» روي مرفوعاً وموقوفاً.

وقال ﷺ: «**من أصاب مالاً من مأثم فوصل به رحماً، أو تصدق به أو أنفقه في سبيل الله جمع الله له ذلك جميعاً ثم قذفه في النار**». وروي أن الصديق رضي الله عنه شرب

(١) المؤمنون ٥١.

لبناً من كسب عبده ثم سأل عبده فقال تكهنت لقوم فأعطوني فأدخل أصبعه في فيه وجعل يقيء حتى ظننت أنه ستخرج روحه، ثم قال: اللهم إني استغفرك وأعتذر إليك مما حملت العروق وخالط الأمعاء. وفي الخبر أنه عليه الصلاة والسلام أخبر بذلك فقال: أو ما علمتم أن الصديق لا يدخل جوفه إلا طيباً.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: لا يقبل الله صلاة امرىء في جوفه حرام وقال سهل رضي الله عنه: من أراد أن يكاشف بأحوال الصديقين فلا يأكل إلا حلالاً طيباً ولا يعمل إلا في سنة أو ضرورة.

فصل

في بيان درجات الحلال

واعلم أنه تحل الأموال المأخوذة من أهل الحرب بأي طريق أخذت، وما يملك بالاصطياد أو الاحتطاب أو يستخرج من المعادن وما يؤخذ من أهل الحرب إنما يحل بعد إخراج الخمس، إذا كان بقتال من السلطان. والطين الذي يؤكل إنما يحرم على من يتضرر به وقد وردت مناهي تشعر بعموم التحريم فينبغي أن يحترز منه.

بيان درجات الحلال والحرام:
اعلم أن الحرام كله خبيث إلا أن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب إلا أن بعضه أطيب.

فأول الدرجات وأقلها ان يحترز مما يفتي الفقهاء بتحريمه.

الدرجة الثانية: ورع الصالحين وهو الامتناع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، وإن كان المفتي يرخص فيه بناء على الظاهر، ولكنه من مواقع الشبه على الجملة.

الدرجة الثالثة: ما لا تحرمه الفتوى ولا شبهة في حله ولكن يخاف أداؤه إلى محرم، وهو ترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس.

الدرجة الرابعة: ما لا بأس به أصلاً ولا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس ولكنه يتناول لغير الله تعالى ولا على نية التقوي به على العبادة، أو يتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية تحريم أو معصية والامتناع منه ورع الصديقين.

فصل
في بيان مراتب الشبهات

قال رسول الله ﷺ : **«الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات لا يعلمها كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لعرضه ودينه ومن وقع في الشبهات واقع الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه»** .

بيان القسم المتوسط: وهو الشبهة، ومثاله أن الماء من المطر حلال قطعاً قبل أن يقع في ملك الغير وأما الحرام المحض فكالخمر مثلاً ومثارات الشبهة خمس:

أولها: ما وقع الشك في سببه المحرم والمحلل، وذلك لا يخلو إما أن يكون متعادلاً أو غلب أحد الاحتمالين، فإن تعادل الاحتمالان، كان الحكم لما عرف قبله فيستصحب، وإن غلب أحد الاحتمالين كان الحكم للغالب، وتبين ذلك بأربعة أقسام:

القسم الأول: أن يكون التحريم معلوماً ثم يقع الشك في المحلل، مثاله أن يرمي السهم إلى صيد فيجرحه، ويقع في الماء فيصادفه ميتاً ولا يدري أنه مات بالغرق أو بالجرح، فهذا حرام لأن الأصل التحريم إلا إذا مات بطريق معين، وقد وقع الشك في الطريق المعين فلا يترك اليقين بالشك والله أعلم.

القسم الثاني: أن يعرف الحل ويشك في المحرم، فالحكم للحل كما إذا نكح رجلان امرأتين، وطار طائر فقال أحدهما إن كان هذا غراباً فامرأتي طالق، وقال الآخر إن لم يكن غراباً فامرأتي طالق، وبقي ملتبساً فلا يحكم بتحريم البتة ما لم يتبين والله أعلم.

القسم الثالث: أن يكون الاصل التحريم، ولكن طرأ ما أوجب تحليله بظن غالب فهو مشكوك فيه والغالب حله، مثاله أن يرمي إلى صيد فيغيب ثم يدركه ميتاً وليس عليه أثر سوى سهمه ولكن يحتمل انه مات بسقطة أو بسبب آخر فإن ظهر سبب آخر من صدمة أو سقطة التحق بالقسم الأول وقد اختلف قول الشافعي رحمه الله تعالى في هذا القسم والمختار أنه حلال.

القسم الرابع: أن يكون الحل معلوماً، ولكن يغلب على الظن طرء ان محرم

بسبب معتبر شرعاً، فيرتفع الاستصحاب لضعفه ويحكم بغالب الظن، مثاله أن يغلب على ظنه نجاسة أحد الإناءين بالاعتماد على علامة معينة توجب غلبة الظن فتوجب تحريم شربه، كما أوجبت منع الوضوء به.

المثال الثاني للشبهة: شك منشؤه الاختلاط وذلك بأن يختلط الحرام بالحلال فيشتبه الأمر، ولا يتميز والخلط لا يخلو إما أن يقع بعدد لا يحصر من الجانبين أو من أحدهما أو بعدد محصور، وإن اختلط المحصور فلا يخلو إما أن يكون اختلاط امتزاج كالمائعات أو اختلاط استبهام مع التمييز كالأعبد وغيرها، وذلك يتبين بأقسام ثلاثة:

القسم الأول: أن تستبهم العين بعدد، كما لو اختلطت ميتة بعشر مذكيات أو رضيعة بعشرة نسوة، فهذا يوجب الاجتناب بالاجماع إذ لا مجال للاجتهاد فيها.

القسم الثاني: حرام مصور بحلال غير محصور كما لو اختلطت عشرة رضائع بنسوة بلد كبير، فلا يحرم نكاح أهل البلد والعلة الغلبة والحاجة جميعاً إذ كل من ضاع له محرم لا يمكن أن يسد عليه باب النكاح، ومن علم أن مال الدنيا خالطه حرام لا يحرم عليه الأكل والبيع، إذ ما جعل الله عليكم في الدين من حرج لأنه لما سرق في زمان رسول الله ﷺ مجن وعباءة لم يمتنع أحد من شراء المجن والعباءة في الدنيا فافهم تغنم والله أعلم.

القسم الثالث: أن يختلط حرام لا يحصر بحلال لا يحصر، كالأموال في زماننا هذا والذي أختاره أنه لا يحرم تناول شيء بعينه إلا أن تقترن بتلك العين علامة معينة إلا أن تركه ورع.

ومن جملة العلامات يد السلطان الظالم إلى غير ذلك من المعاملات التي ستأتي ويدل على ذلك ما ذكرناه أن في زمان رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لم يتركوا المعاملات وأخذ الأموال، مع كثرة أثمان الخمور وأموال الربا في يد أهل الذمة، ومن جملة الشبهات أن يكون الشيء مما قد اشتري في الذمة، ولكن قضي ثمنه من مال حرام، إلا أن يكون تسليم الطعام قبل قبض الثمن بطيب قلب فأكله قبل قضاء الثمن فهو حلال بالاجماع، ولا ينقلب بأداء المال في مقابلته من الحرام حراماً. بل عليه أن لا تبرأ ذمته فكأنه لم يقض الثمن ولا يحرم ما أكل، وإن أبرأ ذمته مع العلم بكون الثمن حراماً فهو يوجب براءة الذمة والحل والله أعلم.

فصـــل
في التجسس والسؤال

اعلم أنه لا يحمد على كل حال ولا يترك بكل حال، فإن كان من يأخذ المال من يده على زي أهل الصلاح فحاله كافية، وإن كان على زي أهل الظلم والفسق فكذلك أيضاً، وإن كان مستور الحال لا على زي أهل الصلاح والتجار ولا على زي أهل الظلم، فالظاهر الاكتفاء بعدالة الإسلام.

ومنهم من جوز السؤال وإذا كان للرجل إدرار ودخول من الحرام ومال السلطان ودهقنة، فالورع تركه ومنهم من نظر إلى الأكثر وجعل الاعتبار به، قال الحرث المحاسبي رحمه الله تعالى: إن من كان له صديق أو أخ فلا ينبغي أن يسأله لأنه ربما يبدو له ما كان مستوراً عنه، فيؤدي إلى الغضب وهو معصية في الحال.

واعلم أنه لا فائدة في السؤال ممن بعض ماله حرام لأنه ربما يكذب لغرض. فالأولى أن يكون السؤال من غيره والله أعلم.

فصـــل
في الخروج من المظالم المالية

إعلم أن من تاب وفي يده مال مختلط فعليه وظيفة في تمييز الحرام وإخراجه ووظيفة أخرى في مصرف المخرج.

الوظيفة الأولى: في كيفية التمييز والإخراج، فإن كان معيناً من جهة غصب أو وديعة أو غيره فهو سهل، وإن كان مختلطاً مثلاً بأن يعلم أن قدر نصف المال حرام، أو بكسب تجارة فيها كذب وخيانة فعليه تمييز ذلك القدر، وإن لم يعلم قدره أخذ بالاحتياط وغالب الظن واليقين.

الوظيفة الثانية: في المصرف، فإذا ميز الحرام، فإن كان له مالك معين يصرف إليه، وإن لم يكن صرف لوارثه، وإن كان غائباً انتظر حضوره أو تكلف الإيصال إليه حيث هو، وإن لم يكن له مالك معين تصدق به أو صرفه إلى مصالح المسلمين من الرباطات والمساجد والقناطر.

وحسن أن يسلمه إلى القاضي إن كان أميناً وإلا لم تبرأ ذمته بالتسليم إلى قاض

خائن، وقد ورد أخبار وآثار تدل على جواز التصدق بهذا المال الحرام وصرفه إلى المصالح، وقد أمر رسول الله ﷺ بالتصدق بالشاة المصلاة؛ التي قدمت إليه فكلمته بأنها حرام فقال رسول الله ﷺ أطعموها الأسارى.

فصـــل
في إدارات السلاطين وصلاتهم

وهو نوع من الاصلاحات وينبغي أن ينظر فيه، فلا يأخذه إن كان من الخراج الموظف للمسلمين والمصادرات، ويحل إن كان من المواريث والأموال الضائعة والفيء والغنيمة والجزية، بشرط أن يكون في صرفه إليه مصلحة أو حاجة. وذهب عمر رضي الله عنه إلى أنه ما من مسلم إلا وله في بيت المال حق.

واعلم أن الجزية أربعة أخماسها للمصالح وخمسها لجهات معينة، وإن كان يأخذ مال السلطان ليتصدق به على الفقراء فمن الورعين من أمسك عنه ومنهم من اقدم عليه، ولعل الأولى الإقدام عليه بشرط أن لا يرغب فيه لنفسه ولا يقتدي به غيره، ولا يظن بأخذه من السلطان أن ماله حلال فيجترىء بسببه على أمثاله والله أعلم فافهم تغنم.

الباب الخامس عشر

في آداب الصحبة

اعلم أن التحابب في الله تعالى والأخوة في دينه من أفضل القربات، وهو ثمرة حسن الخلق وكلاهما محمودان، أما حسن الخلق فقال تعالى فيه: **﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾**(١) وأما الأخوة والألفة فقال تعالى فيهما: **﴿فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾**(٢) وقال تعالى: **﴿لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم﴾**(٣) الآية. وقال ﷺ: **«إن أقربكم مني مجلساً أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون»**.

وقال ﷺ: **«المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف»** وقال ﷺ: **«من أراد الله به خيراً رزقه خليلاً صالحاً إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه»**. وقال عليه الصلاة والسلام: **«من آخى أخاً في الله تعالى رفعه الله تعالى درجة في الجنة لا ينالها بشيء من عمله»**.

بيان معنى الأخوة في الله تعالى وتمييزها عن الأخوة في الدنيا:

قال ﷺ: **«الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»**.

وقال: **«إن روحي المؤمنين المتقيين ليلتقيان على مسيرة يوم وما رأى أحدهما صاحبه قط»** فالانسان يحب غيره إما لذاته لكونه جميلاً محبوباً في ذاته، أو لكونه وسيلة إلى غرض خارج عن ذاته وذلك الغرض متعلق بمصالح الدنيا.

وإما أن يكون وسيلة إلى حظ في الآخرة، وإما أن يكون لله وفي الله لا ينال به دنيا ولا آخرة، بل لكونه من عباد الله. فمن أحب شيئاً أحب من أحبه وهذا هو الأخوة في الله. وهو كما قال مجنون بني عامر حيث يقول:

(١) القلم ٤. (٢) آل عمران ١٠٣. (٣) الانفال ٦٣.

أمرّ على الديار ديار ليلى ... أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ... ولكن حب من سكن الديارا

وكما لا بد من الحب في الله، فلا بد من البغض في الله، فمن أحب إنساناً لكونه حبيب حبيبه ومطيعاً له فلا بد أن يبغض عدوه لكونه عاصياً له.

فصل

اعلم أن كل أحد لا يصلح للصحبة. قال ﷺ: **«المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»** فلابد من اعتبار عدة خصال. أن يكون عاقلاً حسن الخلق، غير فاسق ولا مبتدع ولا حريص على الدنيا، أما العقل فهو رأس المال قال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه:

فلا تصحب أخا الجهل وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى حليماً حين آخاه
يقاس المرء بالمرء إذا ما المرء ماشاه
وللشيء من الشيء مقاييس وأشباه
وللقلب على القلب دليل حين يلقاه

كيف والأحمق يضرك وهو يريد أن ينفعك.

وقال بعضهم:

إني لآمن من عدو عاقل ... وأخاف خلاً يعتريه جنون
فالعقل فن واحد وطريقه ... أدري فأرصد والجنون فنون

ولذلك قيل مقاطعة الأحمق قربان إلى الله تعالى، وكذا الفاسق لا فائدة في صحبته لأن من يخاف الله لا يصر على كبيرة ومن لا يخاف الله لا تؤمن غائلته، وقال الله تعالى: **﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه﴾**(١) والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يدري، وكذا المبتدع.

وأما حسن الخلق فقد جمعه علقمة في وصيته لابنه رحمه الله لما حضرته الوفاة: يا

(١) الكهف ٢٨.

بني إن عرضت لك إلى صحبة الرجال حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإن صحبته زانك، وإن قعدت بك مؤنة مالك إصحب من إذا مددت يدك بخير مدها، وإن رأى حسنة عدها، وإن رأى منك سيئة سدها، اصحب من إذا سألته أعطاك، وإن سكت ابتداك، وإن نزلت بك نازلة واساك، اصحب من إذا قلت صدق قولك، وإذا حاولت أمراً آمرك، وإن تنازعتما آثرك.

وقال علي بن أبي طالب:

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ريب زمان صدعك ... شتت فيه شمله ليجمعك

وكان في السلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقوم بحاجاتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم بماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهم إلا عينه، بل كانوا يرون منه ما لا يرونه من أبيهم في حياته.

ويحسن أن يكون عالماً بعد الورع لينتفع بعلمه أيضاً. قال لقمان: يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتك فإن القلوب تحيا بالحكمة كما تحيا الأرض الميتة بوابل القطر.

فصل
في حقوق الأخوة والصحبة

اعلم أن عقد الأخوة رابطة بين شخصين كعقد النكاح بين الزوجين، فإذا انعقدت الأخوة، فذلك يوجب حقوقاً عليك في المال والنفس واللسان والقلب، بالعفو والدعاء والإخلاص والوفاء وترك التكلف.

الأول: في المال أن يكون وأقله مثل عبدك فيكون أمره من مهماتك وأوسطه أن يكون مثلك، فإن الأخوة توجب الشركة والمساواة وأعلاها أن تؤثره عليك فتخل بأمر نفسك لينتظم حاله وهو من أعلى الدرجات، فقد ورد في الآثار أخبار كثيرة. قال رسول الله ﷺ: **«أنه ما اصطحب اثنان قط إلا كان أحبهم إلى الله تعالى أرفقهما بصاحبه»**.

الثاني: الإعانة بالنفس في قضاء الحاجات والقيام بها قبل السؤال، وهذا له درجات توازي ما سبق من درجات المال في المقامات الثلاثة.

الثالث: أن لا تواجهه بشيء يكرهه. قال أنس رضي الله عنه: كان رسول الله ﷺ لا يواجه أحداً بشيء يكرهه.

واعلم أنك لو كنت تطلب من هو خال من العيوب فلا تجد، قال الشافعي رضي الله عنه: ما أحد من المسلمين يطيع الله فلا يعصيه، ولا أحد يعصي الله فلا يطيعه، فمن كانت طاعته أغلب من معاصيه فهو عدل، فإذا كان هذا عدلاً في حق الله تعالى فهو في حقك أولى. فكن ممن يظهر الجميل ويستر القبيح لأن الله تعالى وصف بذلك في الدعاء، فقيل يا من يظهر الجميل ويستر على القبيح.

واعلم ان المرضي عند الله تعالى من يتخلق بأخلاقه وهو ستار العيوب غفار الذنوب. واعلم أنه لا يتم إيمان الرجل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ولا شك أنه ينتظر منه ستر العورات والعفو عن الزلات وأن يكتم سره، وقد قيل: قلوب الأحرار قبور الأسرار، وقيل: إن قلب الأحمق في فيه، ولسان العاقل في قلبه، وقال ابن المعتز:

ومستودعي سراً تبوأت كتمه ... فأودعته صدري فصار له قبرا

الرابع: النطق بما يحبه من المدح من غير خروج عن الحق. قال عليه الصلاة والسلام: **«إذا أحب أحدكم أخاه فليخبره»** وذلك لأنه يوجب زيادة في الحب وما أحسن ما قيل في هذا المعنى:

خذ من خليلك ما صفا ... ودع الذي فيه الكدر
فالعمر أقصر من معا ... تبة الخليل على الغير

وقيل بيت مفرد:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعث أي الرجال المهذب

الخامس: الوفاء والإخلاص وذلك بالثبات على الحب ومداومته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، روي أنه ﷺ أكرم عجوزاً دخلت عليه فقيل له في

ذلك فقال: «**إنها كانت تأتينا أيام خديجة**». واعلم أن حسن العهد من الإيمان وأن كرم العهد من الدين وينبغي أن ترى الفضل أبداً للإخوان لا لنفسك. وقيل فيه:

تـذلل لمن إن تذللـت له ... يرى ذاك للفضـل لا للبله
وجانـب صداقـة من لا يزا ... ل على الأصدقـاء يرى الفضـل له

فصـل
في حقوق المسلم والرحم والجوار

أما حقوق المسلم فهو أن يسلم عليه إذا لقيه، ويجيبه إذا دعاه، ويشمته إذا عطس، ويعوده إذا مرض، ويشهد جنازته إذا مات، ويبر قسمه إذا أقسم، وينصح له إذا استنصحه، ويحفظه بظهر الغيب إذا غاب، ويحب له ما يحب لنفسه، ويكره له ما يكره لنفسه، وقال رسـول الله ﷺ: «**أربـع من حق المسلمـين عليك: أن تعـين محسنهم وأن تستغفر لمذنبهم وأن تدعو لمدبرهم وأن تجيب نائبهم**».

ومنها أن لا تؤذي أحداً من المسلمين بفعل ولا قول، قال رسـول الله ﷺ: «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**» وقال عليه الصلاة والسلام: «**المؤمن من آمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم**» وقال ﷺ: «**المهاجر من هجر السوء واجتنبه**».

ومنها أن يتواضع لكل مسلم ولا يتكبر عليه فإن الله تعالى لا يحب كل مختال فخور. وإن تكبر عليك أحد فتحمل لقوله تعالى: ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾[1].

ومنها أن لا يسمع بلاغات الناس لا على نفسه ولا على غيره، ولا يفعل هو أيضاً قال ﷺ: «**لا يدخل الجنة قتات**».

ومنها أن لا يزيد في الهجر لمن يعرفه على ثلاثة أيام، ولا يدخل على أحد إلا بإذنه، ويخالق الجميع بخلق حسن، فيوقر المشايخ ويرحم الصبيان ويكون مع كافة الخلق طلق الوجه، ولا يعد لمسلم بوعد إلا ويفي به، ومنها أن يصلح ذات البين بين المسلمين.

(١) الاعراف ١٩٩.

قال رسـول الله ﷺ: «**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟** قالوا: بلى، فقال رسول الله ﷺ: **إصلاح ذات البين وأن يستر عورات المسلمين**» ومنها أن يتقي مواضع التهم، ويشفع لمن له حاجة عند من له عنده منزلة، وأن يبدأ بالسلام قبل الكلام، وأن يصون عرض أخيه وماله من ظلم غيره ما وجد إليه سبيلاً.

ومنها أنه إذا بلي بذي شر يجامله ويداريه، ومنها أن يزور قبورهـم فيدعـو لميتهم.

وأما حقوق الجوار:

فاعلم أن الجار يستحق ما يستحقه المسلمون كافة وزيادة بسبب الجوار، قال النبي ﷺ: «**الجيران ثلاث جار له حق واحد وجار له حقان وجار له ثلاث حقوق؛ فالجار الذي له ثلاث حقوق الجار المسلم ذو الرحم والجار الذي لـه حق واحد الجـار المشرك والجار الذي له حقـان الجار المسلم**» فـإثباتـه الحق للمشرك لسبب الجـوار دل على تأكد حق الجوار.

وقال ﷺ: «**ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**» وقال ﷺ «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره**».

وأما حقوق الأقارب والرحم، فقال عليه الصلاة والسلام: «**يقول الله تعالى أنا الرحمن الرحيم وهذه الرحم وشققت لها إسماً من إسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته**» وقال الله عز وجل لموسى صلـوات الله عليه وسلامـه: يا موسى إنـه من بر والديه وعقني كتبته براً ومن عق والديه وبرني كتبته عاقاً.

حقوق المملوك: وقد كان آخر ما وصى به رسـول الله ﷺ أنه قال: «**اتقوا الله فيا ملكت أيمانكم أطعموهم مما تأكلون واكسوهم مما تلبسون ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون فما أحببتم فأمسكوا وما كرهتم فبيعوا ولا تعذبوا خلق الله تعالى فإن الله ملككم إياهم ولو شاء الله ملكهم إياكم**».

البـاب السـادس عشـر

فـي العـزلة

اعلم أنه قد اختلف الناس فيها، فذهب بعضهم إلى استحباب العزلة وتفضيلها على المخالطة، مثل سفيان الثوري وإبراهيم بن أدهم وداود الطائي والفضيل بن عياض وسليمان الخواص وبشر الحافي.

وذهب أكثر التابعين إلى استحباب المخالطة واستكثار الإخوان للتعاون على البر والتقوى، واستدل الجميع بما ورد في الأخوة والإلفة من قوله عليه الصلاة والسلام لما أتي برجل كان قد أتى الجبل ليتعبد فيه فقال ﷺ: **« لا تفعل أنت ولا أحد منكم، لصبر أحدكم في بعض مواطن الإسلام خير من عبادة أحدكم أربعين عاماً »**.

واستدل من فضل العزلة كفضيل رضي الله عنه بقول رسول الله ﷺ لعبدالله ابن عامر الجهني لما قال يا رسول الله ما النجاة؟ قال ﷺ: **« ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وابك على خطيئتك »**.

فصـل
في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

واعلم أن الأمر فيه يختلف باختلاف الأشخاص، أما فوائد العزلة فالتمكن من المواظبة على الطاعات، وتربية العلم والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء والغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع عن الأخلاق الذميمة وكذلك يتفرغ لمصالح دنياه من الحرف والصناعات.

فالفائدة الأولى: الفراغ للعبادة والتفكير والاستئناس بالله تعالى ومناجاته

ومطالعة الملكوت، وذلك إنما يأتي بالعزلة ومفارقة الخلق، ولهذا قال بعض الحكماء: ولا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالأنس بكتاب الله تعالى، والمتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله والذاكرون الله تعالى عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله واتقوا الله بذكر الله.

ولا شك أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الفكر والذكر، وكذلك كان رسول الله ﷺ في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء فإذا دام الرجل على الخلوة انتهى أمره إلى ما قال الجنيد رضي الله عنه: أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أني أكلمهم.

وقيل لبعضهم ما حملك على الوحدة فقال: لست وحدي إنما أنا جليس الله فإذا أردت الله أن يناجيني قرأت كتاب الله وإذا أردت أنا أناجيه صليت، وقيل بينما أويس القرني جالس: إذ أتاه هرم بن حيان فقال له: ما جاء بك، قال: جئت لانس بك قال: ما كنت أدري أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره، وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به، وقلت أخلو بربي وإذا رأيت الصبح أدركني استوحشت كراهة لقاء الناس، وأن يجيئني من يشغلني عن ربي.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة الخلق فقد قل عمله وعمي قلبه وضيع عمره.

الفائدة الثانية: التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة، وهي الغيبة والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسيأتي ذكره في موضعه. وعلى الجملة الحكم بأن الأولى واحد منهما على الإطلاق محال، فإنه يختلف باختلاف الأشخاص والإعتدال هو الأولى، وهو أن لا ينقبض كل الانقباض فتفوته الفوائد الموقوفة على المخالطة، ولا ينبسط كل الإنبساط فتفوته فوائد العزلة.

وينوي بالعزلة أن يعتزل الناس من شره، ويقبل بكليته على ذكر ربه، ولا يطيل الأمل فتأمن نفسه ذلك، لتخيل طول الأمل وينوي الجهاد الأكبر بالعزلة وهو جهاد النفس كما قالت الصحابة رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر والله أعلم فافهم تغنم والله أعلم وإليه المرجع والمآب.

***

الباب السابع عشر

في السفر

اعلم أن السفر سفران، سفر بالظاهر في آفاق الأرض وأقطارها، وسفر بالباطن إلى الله تعالى، وهو ما دل عليه قوله تعالى حكاية عن خليله إبراهيم: ﴿ **إني ذاهب إلى ربي سيهدين** ﴾[1] ويدل على السفرين جميعاً قوله تعالى: ﴿ **سنريهم آياتنا في الآفاق** ﴾[2] الآية فالسفر الأعظم هو السفر بالسر إلى الله تعالى، وهذا المسافر سيره أبداً في جنة عرضها السموات والأرض في منازل لا تضيق مواردها ومناهلها بكثرة الواردين بل تتضاعف بكثرة المسافرين.

ومن حرم هذا السفر فقد حرم الخير كله، وبقي في حضيض لا يرفع عنه أبد الآبدين. وجميع الآداب والسنن التي وردت بها الأخبار والآيات هي آداب لهذا السفر، وهو سفر الآخرة وأما السفر الظاهر الذي يختص بنقل الأقدام وقطع المنازل فنحن نبين فائدته وآدابه في فصول.

فصل

ينبغي أن يصحح أولاً لقصد السفر نيته، إما لحج أو زيارة عالم أو ولي إما حياً أو ميتاً أو للمقام بالثغور والمرابطة بها، أو الفرار مما لا يطاق من خلل في الدين أو الدنيا أو لتجارة في طلب الحلال، حتى لا تكون حركته لمحض الدنيا فيضيع تعبه ونصبه.

واعلم أن النفس إنما تظهر رذائلها وخبائثها باختلاف الأحوال. وذلك في

(١) الصافات ٩٩. (٢) فصلت ٥٣.

السفر كثير، وقد بينا بعض آداب السفر في كتاب الحج، والرخص التي تثبت في السفر هي، المسح على الخف ثلاثة أيام، بعد أن يكون لبس الخف بعد تمام الوضوء، والتيمم للفرض، والقصر والجمع، وأداء النوافل على الراحلة، وأداؤها ماشياً، والفطر وينبغي أن يتعلم دلائل القبلة والمنازل فيما يتهيأ له من السفر، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب فافهم تغنم والله أعلم.

* * *

البـاب الثامـن عشـر

فـي السمـاع والوجـد

اعلم أن السماع قد اختلف الناس فيه، فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه، ونبين حقيقة السماع وإباحته فنقول السماع هو استماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى محرك للقلب، وليس في جملة ذلك إلا التذاذ حاسة السمع والقلب فهو كالتذاذ حاسة البصر بالنظر إلى الخضرة، والتذاذ القلب به، وقد قال الله تعالى: ﴿ يزيد في الخلق ما يشاء ﴾[1] ففسروه بالصوت الحسن.

وقال ﷺ في أبي موسى الأشعري: « لقد أوتي مزماراً من مزامير آل داود » وفي الحديث: « ما بعث الله نبياً إلا وهو حسن الصوت » ومحال أن يقال هو مباح لكتاب الله تعالى وتلاوته، فإن استماع صوت العندليب مباح، فإذا كان استماع الصوت الطيب مباحاً فبأن يكون موزوناً لا يحرم، كيف وأصوات الغناء موزونة نوعاً من الوزن، لها مقاطع ومباد متناسبة، وهذا لا يختلف بخروج هذا الصوت الطيب من خلق آدمي أو طير أو غيرهما.

وينبغي أن يقاس على أصوات الطيور، ما يخرج من الأجسام كالطبل والقضيب والدف والقصب، فلا يستثنى من جملتها إلا ما ورد النص بتحريمه، وذلك كالأوتار والمزامير التي كانت معتادة للشرب، إذا اقتضى المنع من شرب الخمر أن يمنع من متمماته وتوابعه مبالغة في الفطام، حتى اقتضى ذلك كسر الدنان في الابتداء.

ويدل على ما ذكرناه من جوازه ما روي عن الصحابة من التغني بالأبيات حتى

(١) فاطر ١.

روي في الصحيحين عن أبي بكر وبلال لما قدما المدينة أن بلالاً كان مريضاً فإذا أقلعت عنه الحمى قال رافعاً صوته رضي الله عنه:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة ... بـواد وحـولي إذخـر وجليـل
وهـل أردن يومـاً مياه مجنة ... وهـل تبـدون لـي شامـة وطفيل

وقال أبو بكر رضي الله عنه:

كـل امـرىء مصبـح فـي أهلـه ... والموت أدنـى مـن شـراك نعلـه

وقال عليه الصلاة والسلام:

«إن العيش عيش الآخرة ... فارحـم الأنصـار والمهـاجرة »

كل ذلك في الصحيحين.

فصـل

في آثار السماع من حيث أنه محرك للقلب ومهيج لما هو غالب عليه

فنقول إن الله تعالى سراً في مناسبة الأصوات الموزونة للأرواح، فتؤثر فيها تأثيراً غريباً فتورثها الحزن مرة والفرح مرة، والبكاء مرة والضحك أخرى، وتوجب حركات في الأعضاء غريبة عجيبة.

ولا تظن أن ذلك لفهم المعنى فحسب بل ذلك مشاهد في الحيوانات خصوصاً في الإبل، ومشاهد في الطفل الذي لا يتكلم ولا يفهم ومشاهد في أصوات الأوتار التي لا تفهم، وعلى الخصوص في الإبل فإنها كلما طالت عليها البراري وأعيت تحت الأحمال، وتسمع الحداء فتمد أعناقها وتطوي المراحل.

فقد حكى أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقي قال: كنت في البادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب فأضافني رجل وأدخلني خباء فرأيت عبداً أسود مقيداً بقيد، ورأيت جمالاً قد ماتت بين يدي البيت،ورأيت جملاً قد نحل وهزل كأنه تخرج روحه، فقال لي الغلام: أنت ضيف ولك حق فتشفع لي فإنه يكرم ضيفه فلا يرد شفاعته، فلعله يحل القيد عن رجلي، فلما أحضر الطعام امتنعت وقلت لا آكل ما لم أشفع في هذا العبد.

فقال: إن هذا الغلام قد أهلك جميع مالي قلت ماذا فعل؟ فقال إن له صوتاً طيباً وكنت أعيش من ظهور هذه الجمال فحملها أحمالاً ثقالاً وكان يحدو حتى قطع مسيرة ثلاث ليال في ليلة واحدة من طيب نغمته، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل، ولكن أنت ضيفي قد أكرمتك ووهبته لك، فأحببت أن أسمع صوته.

فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يسقي الماء في بئر هناك فلما رفع صوته هام الجمل وقطع حباله ووقعت أنا لوجهي فما أظن أني سمعت صوتاً أطيب منه.

فإذاً للسماع تأثير غريب. ومن لم يحركه السماع فهو ناقص العقل مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية، وكان الطير يقف على رأس داود عليه السلام لاستماع صوته، قال أبو سليمان: السماع لا يحصل في القلب ما ليس فيه وإنما يحرك ما هو فيه، فتكره أصوات النياحة لأنها تحرك ما هو مذموم وهو التأسف على الفائت. قال الله تعالى: ﴿ **لكيلا تأسوا على ما فاتكم** ﴾(1) وقد ورد فيه أخبار كثيرة.

ولا يكره السماع عند العرس والوليمة والعقيقة وغيرها، فإن فيها تحريكاً لزيادة سرور مباح أو مندوب، ويدل عليه ما روي من إنشاد النساء بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ﷺ من مكة:

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

ويدل عليه ما روي في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد حتى أكون أنا الذي أسأم.

وما روى مسلم والبخاري أيضاً في صحيحيهما عن الزهري عن عروة عن عائشة رضي الله عنها أن أبا بكر رضي الله عنه دخل عليها وعندها جاريتان في أيام منى يدففان ويضربان والنبي ﷺ متغش بثوبه فانتهرهما أبو بكر رضي الله عنه فكشف النبي ﷺ عن وجهه وقال: « **دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد** » وفي حديث آخر نحوه وفيه يغنيان ويضربان.

(1) الحديد ٢٣.

فهذه الأمور دلت قطعاً على إباحة السماع ودلت على إباحة صوت النساء إذا لم يكن بحيث يخاف الفتنة. وعلى الجملة فالسماع مهيج لما في القلب فإن كان في قلبه عشق مباح فتهيجه جائز، وإن كان حراماً فتهيجه غير جائز، هذا في سماع أهل الغفلة.

وأما سماع أرباب القلوب الذين اشتهروا بحب الله والشوق إليه وهم الذين لا ينظرون إلى شيء إلا ويرونه فيه، ولا يقرع سمعهم شيء إلا وسمعوا منه أو فيه فسماعهم مؤكد للحب والعشق مهيج للشوق، ومن زناد القلوب مستخرج لضروب المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها، يعرفها من ذاقها وينكرها من كلَّ حسه عن دركها، ويسمى في لسان الصوفية وجداً.

وما يزيد في حب الله تعالى والشوق إليه إن لم يعد من الفرائض فلا أقل من أن يكون من المباحات، كيف وهو مشير لما استدعاه رسول الله ﷺ بدعائه حيث قال: « **اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك** » فاعلم الآن أن السماع محرك للباطن، فمن الناس من قويت منته وكمل أمره، فلا يحتاج إلى محرك من خارج.

فصل

اعلم أن من الآداب حسن الإصغاء وترك الشهقة والحركة ما وجد إليه سبيلاً خصوصاً للشاب بين يدي المشايخ وللمبتدي بين يدي المنتهي، ومن الواجبات أن يراعي فيه أحوال قلبه ونفسه حتى لا تدعوه نفسه إلى المرادات بالحركات وإظهار الوجد، ولقد ذهب بعضهم إلى تجويز التواجد رجاء لتحقيق الوجد. وتهييج ما هو كامن في الباطن ككمون النار في الحجر. والله أعلم فافهم تغنم والله أعلم بالصواب.

***

الباب التاسع عشر

في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

اعلم أنها من أصول الدين فبها يحصل الغرض من بعثة الأنبياء، ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ﴾(١) الآية.

وفي الخبر ما رواه أبو بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبة خطبها: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتؤولونها على خلاف تأويلها: ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾(٢) وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « **ما من قوم عملوا بالمعاصي وفيهم من يقدر على أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعذاب من عنده** ».

وروي عن أبي ثعلبة الخشني أنه سأل رسول الله ﷺ عن تفسير قوله تعالى: ﴿ لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ فقال ﷺ: « **يا أبا ثعلبة مر بالمعروف وانه عن المنكر فإذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه فعليك بنفسك ودع عنك العوام، إن من ورائكم فتناً كقطع الليل المظلم للمتمسك فيها بمثل ما أنتم عليه أجر خمسين منكم** » الحديث.

فصل

إعلم أن الأمر بالمعروف له أركان أربعة: المحتسب والمحتسب عليه والمحتسب فيه ونفس الاحتساب، أما المحتسب فشرطه أن يكون مسلماً مكلفاً فيدخل فيه آحاد الرعايا ولا يشترط فيه التولية بالإذن.

(١) آل عمران ١٠٤. (٢) المائدة ١٠٥.

الشرط الثاني الإسلام لأنه نصرة للإسلام، واختلفوا في شرط العدالة فذهب بعضهم إلى اشتراطها لقوله تعالى: ﴿**لم تقولون ما لا تفعلون**﴾(١) ولقوله عز وجل: ﴿**أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم**﴾(٢).

وقد ورد فيه أخبار كثيرة ومنهم من ذهب إلى أنه لا يشترط فيه العدالة وهو الحق، لأنه بالاجماع لا تشترط العصمة إذ اختلف الناس في عصمة الأنبياء من الصغائر فكيف ترجى لغيرهم العصمة، ثم هذا يؤدي إلى تركه إذ لا يوجد هذا الشرط فأي بعد في أن يشرب هو ويمنع غيره.

ويقول علي وظيفتان إحداهما الانتهاء، والثاني النهي، وأنا فاعل إحداهما رجاء أن أوفق للثانية بتركه، ويمنع الكافر عنه لأن فيه تسلطاً على المسلمين ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً

والمسلم يفعل ذلك فيمنع الناس بالتهديد والتخويف والضرب على حسب ما يليق، في كل شيء به وذلك لا يختلف بالسلطان والإمام وغيرهما.

فكل من ارتكب ما لا ينبغي يحتسب عليه، ويدل على ذلك ما روي أن مروان ابن الحكم خطب قبل الصلاة في العيد فقال له رجل إنما الخطبة بعد الصلاة، فقال مروان: اترك ذلك يا فلان، فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: أما هذا فقد قضى ما عليه. قال لنا رسول الله ﷺ: «**من رأى منكراً فلينكره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**».

وحصل من هذا أيضاً أن الاحتساب على مراتب.

الشرط الآخر أن يكون كون المحتسب فيه وهو الركن الآخر معلوماً كونه منكراً بغير الاجتهاد، فلا يكون في محل خلاف الأئمة المعتبرين فلا ينكر الشافعي على الحنفي شرب النبيذ الذي لا يسكر ولا الحنفي على الشافعي أكل الضب والضبع.

الركن الآخر:

هو المحتسب عليه وشرطه أن يكون إنساناً لأنه يمنع الصبي من شرب الخمر نعم من الأفعال ما ليس منكراً في حق المجنون والصبي ولا يمنعان منه.

(١) الصف ٢. (٢) البقرة ٤٤.

بيان آداب المحتسب:

وليكن عالماً ورعاً حسن الخلق يتلطف فلا يعنف، أما العلم فليعلم حدود الاحتساب الورع ليقتصر على الحد المشروع فيه، ويحسن الخلق بتلطف، فلا يعنف كيلا يتجاوز حد الشرع فيفسد أكثر مما يصلح فيكون في احتسابه نوع شقق، حتى إنه إذا امتنع عليه أحد أو قابله بما يكره فلا يتجاوز حد الشرع، وينسى الاحتساب ويأتي بالمنكر في نفس الاحتساب.

فصل

في المنكرات المألوفة في العادات وهو كمن ينحرف عن القبلة، أو لا يطمئن في ركوعه وسجوده في صلاته، أو يلحن في قراءته، فإنه يجب التنبيه في أمثال ذلك وهو من أفضل القربات وهو أولى من الاشتغال بالنوافل.

ومنها تراسل المؤذنين في آذانهم وتطويلهم ومد الكلمات بحيث يخرج عن الحد وتكثير الأذان مرة بعد أخرى في مسجد واحد بعد الصبح، إذ لا فائدة فيها ومنها لبس الثوب الذي فيه زيادة إبريسم.

ومنها كلام الفساق الذين يمزحون بالبدع، ومنها الحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والتعويذات ويستدل بما ذكرنا على أمثالها فلا مطمع في إحصائها.

فصل
في أمر السلاطين بالمعروف ونهيهم عن المنكر

اعلم أن للاحتساب أربع درجات: التعريف ثم الوعظ ثم التخشين في القول ثم المنع بالقهر. ولا يجوز في حق السلاطين والأمراء إلا التعريف والوعظ، وأما التخشين والمنع قهراً، فذلك يحرك فتنة ويورث أموراً هي أفحش مما هم ملابسوه.

نعم إن كان يعلم أن المخاشنة تفيد ولا تورث أمراً محذوراً فلا بأس به، ومنهم من لم يكترث بذلك أيضاً ويدل على ذلك قوله ﷺ: « **خير الشهداء حمزة بن عبد المطلب ثم رجل قام إلى إمام فأمره ونهاه في ذات الله عز وجل فقتله على ذلك** » وقال ﷺ: « **أفضل جهاد كلمة الحق عند سلطان جائر وإن صاحب ذلك إن قتل فهو شهيد** » كما وردت به الأخبار.

وقد روي عن ضبة بن محصن العنزي قال: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة كان إذا خطبنا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ أنشأ يدعو لعمر بن الخطاب رضي الله عنه فغاظني ذلك منه فقمت إليه وقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه؟

فكتب إلى عمر يشكوني يقول في شكواه إن ضبة بن محصن العنزي يتعرض لي في خطبتي فكتب إليه عمر أن أشخصه إلي قال فأشخصني إليه فقدمت إليه فضربت عليه الباب فخرج إلي وقال من بالباب، فقلت أنا ضبة بن محصن العنزي، قال فقال بك لا مرحباً ولا أهلاً، قلت أما المرحب فمن الله تعالى وأما الأهل فلا أهل لي ولا مال، فبماذا استحللت يا عمر إشخاصي من البصرة بلا ذنب أذنبته ولا شيء أتيته، قال ما الذي شجر بينك وبين عاملي، قال قلت الان أخبرك. إنه كان إذا خطبنا فحمد الله عز وجل وأثنى عليه وصلى على النبي ﷺ أنشأ يدعو لك فغاظني ذلك منه فقمت إليه، فقلت له أين أنت من صاحبه تفضله عليه فصنع ذلك جمعاً عديدة ثم كتب إليك يشكوني.

قال فاندفع عمر باكياً وهو يقول أنت والله أوفق منه وأرشد فهل أنت غافر ذنبي يغفر الله لك، قال قلت غفر الله تعالى لك يا أمير المؤمنين، قال ثم اندفع باكياً وهو يقول والله لليلة من ابي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر فهل لك أن أحدثك ليلته ويومه، قلت نعم قال:

أما الليلة فإن رسول الله ﷺ لما أراد الخروج من مكة هارباً من المشركين خرج ليلاً فتبعه أبو بكر فجعل يمشي مرة أمامه ومرة يمشي خلفه ومرة يمشي عن يمينه ومرة يمشي عن يساره، فقال ﷺ ما هذا يا أبا بكر ما أعرف هذا من أفعالك، فقال يا رسول الله اذكر الرصد فأكون أمامك وأذكر الطلب فأكون خلفك ومرة عن يمينك ومرة عن يسارك ولا آمن عليك.

فمشى النبي ﷺ ليلته على أطراف أصابعه حتى حفيت فلما رآه أبو بكر رضي الله عنه أنه حفي حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى فم الغار فأنزله، فقال والذي بعثك بالحق لا تدخله حتى أدخله فإن كان فيه شيء نزل بي قبلك، قال فدخل فلم ير فيه شيئاً فحمله فأدخله، وكان في الغار حجر مخروق وفيه حيات

فالقمه أبو بكر قدمه مخافة أن يخرج منه شيء من الحيات إلى رسول الله ﷺ فيؤذيه فخرجت منه حية فلدغته فجعلت دموع أبي بكر تنحدر على خده من ألم ما يجده ورسول الله ﷺ يقول: يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته والطمأنينة لأبي بكر فهذه ليلته.

وأما يومه فلما توفي رسول الله ﷺ ارتدت العرب فقال بعضهم لا نصلي وقال بعضهم لا نزكي فأتيته لا آلوه نصحاً فقلت يا خليفة رسول الله ﷺ تألف الناس وارفق بهم، فقال أجبار في الجاهلية خوار في الإسلام فبماذا نتألفهم، قبض رسول الله ﷺ وارتفع الوحي. والله لو منعوني عقالاً كانوا يعطونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم عليه، قال فقاتلنا عليه فكان والله رشيد الأمر فهذا يومه. وكتب إلى أبي موسى يلومه فافهم تغنم والله أعلم.

الباب العشرون

في آداب المعيشة وأخلاق النبوة

بيان آدابه ﷺ:

اعلم أنه كان كثير الضراعة والابتهال دائماً، يسأل الله تعالى أن يحسنه بمحاسن الآداب، وأن يزينه بمكارم الأخلاق، فكان ﷺ يقول في دعائه: « **اللهم حسن خَلقي وخُلقي** ».

قال سعيد بن هشام: دخلت على عائشة رضي الله عنها فسألتها عن أخلاق رسول الله ﷺ فقالت: أما تقرأ القرآن قلت بلى قالت خلق رسول الله ﷺ القرآن، وإنما أدبه بالقرآن بمثل قوله تعالى: ﴿ **خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين** ﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي** ﴾(٢). وقوله تعالى: ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾(٣)، إلى آيات كثيرة.

وكسرت رباعيته يوم أحد فجعل يسيل الدم على وجهه وهو يمسح الدم ويقول كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم بالدم وهو يدعوهم إلى ربه. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ **ليس لك من الأمر شيء** ﴾(٤) تأديباً له على ذلك.

واعلم أن مثل هذه الآيات في القرآن كثيرة وهو المقصود الأول بالتأديب والتهذيب، ثم منه يشرق النور على كافة الخلق. قال ﷺ: « **بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » وقال علي رضي الله عنه: يا عجباً لرجل مسلم يجيئه أخوه المسلم في حاجة

(١) الأعراف ١٩٩. (٢) النحل ٩٠. (٣) لقمان ١٧. (٤) آل عمران ١٢٨.

فلا يرى للخير أهلاً فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لقد كان له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاة، فقال رجل أسمعته من النبي ﷺ قال نعم.

ولما أتي بسبايا طيء وقعت جارية في السبي، فقالت يا محمد أرأيت أن تخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني بنت سيد قومي وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد صاحب حاجة أنا ابنة حاتم طيء، فقال رسول الله ﷺ: **« يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً لو كان أبوك مسلماً ترحمنا عليه خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله تعالى يحب مكارم الأخلاق »**.

وقال ﷺ: **« والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسان الأخلاق »** وعن معاذ ابن جبل أن النبي ﷺ قال: **« إن الله تعالى حف الإسلام بمكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال »** ومن ذلك حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة ولين الكلام، وبذل المعروف وإطعام الطعام، وإفشاء السلام وعيادة المريض المسلم براً كان أو فاجراً، وتشييع جنازة المسلم وحسن الجوار لمن جاورت مسلماً كان أو كافراً وتوفير ذي الشيبة المسلم وإجابة الطعام والدعاء والعفو والإصلاح والجود والكرم والسماحة، والابتداء بالسلام وكظم الغيظ والعفو عن الناس. ويذهب بهاء الإسلام، باللهو والباطل والغناء والمعازف كلها، وكل ذي وتر، وكل ذي دخل، والكذب والغيبة والبخل والشح والجفاء والمكر والخديعة والنميمة وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام وسوء الخلق والتكبر والفخر والاختيال والاستطالة والمزح والفحش والتفحش والحقد والحسد والطيرة والبغي والعدوان والظلم.

قال أنس رضي الله عنه: فلم يدع نصيحة جميلة إلا قد دعانا إليها وأمرنا بها ولم يدع غشاً أو قال عيباً ولا شيئاً إلا حذرنا ونهانا عنه، ويكفي من ذلك كله هذه الآية: **﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾**[1] الآية.

وقال معاذ رضي الله عنه: أوصاني رسول الله ﷺ فقال: **« أوصيتك باتقاء الله**

(١) النحل ٩٠.

تعالى وصدق الحديث والوفاء بالعهد وأداء الأمانة وترك الخيانة وحفظ الجار ورحمة اليتيم ولين الكلام وبدء السلام وحسن العمل وقصر الأمل ولزوم الإيمان والنفقة في القرآن وحب الآخرة والجزع من الحساب وحفظ الجناح، وأنهاك أن تسب حكيماً أو تكذب صادقاً أو تطيع آثماً أو تعصي إماماً عادلاً أو تفسد أرضاً، وأوصيك باتقاء الله عند كل حجر وشجر ومدر، وأن تحدث لكل ذنب توبة السر بالسر والعلانية بالعلانية » فهكذا آداب عباد الله ودعاؤهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب.

بيان جملة من محاسن أخلاقه التي جمعها بعض العلماء والتقطها من الأخبار:

قال: كان النبي ﷺ أحلم الناس وأعدل الناس وأعف الناس لم تمس يده قط يد امرأة لا يملك رقبتها أو عصمة نكاحها، أو تكون ذات محرم منه.

وكان ﷺ أسخى الناس لا يبيت عنده دينار ولا درهم فإن فضل ولم يجد من يعطيه لم يدخله منزله حتى يدبر أمره إلى من يحتاج إليه، ولا يأخذ مما آتاه إلا قوت عامه فقط من أيسر ما يجد من التمر والشعير. ويضع سائر ذلك في سبيل الله تعالى، ولا يسأل شيئاً إلا أعطاه. ثم يعود على قوت عامه فيواسي منه حتى ربما احتاج قبل انقضاء العام وإن لم يأته شيء صبر.

وكان ﷺ يخصف النعل ويرقع الثوب ويخدم في مهنة أهله ويقطع اللحم معهن. وكان ﷺ من أشد الناس حياء لا يثبت بصره في وجه أحد ويجيب دعوة العبد والحر، وكان ﷺ يقبل الهدية ولو أنها جرعة لبن أو فخذ أرنب ويكافىء عليها ويأكلها ولا يأكل الصدقة.

ولا يستكبر عن إجابة الأمة والمسكين ويغضب لربه ولا يغضب لنفسه وكان ﷺ يعصب الحجر على بطنه من الجوع ومرة يأكل ما حضر ولا يرد ما وجد ولا يتورع من مطعم حلال. وكان ﷺ يلبس ما وجد مرة شملة ومرة برد حبرة يمانياً ومرة جبة صوف، وما وجد من المباح لبس وخاتم فضة يلبسه في خنصره الأيمن وربما في الأيسر.

ويردف خلفه عبده أو غيره يركب ما أمكنه مرة فرساً ومرة بغلة شهباء ومرة حماراً ومرة راجلاً وحافياً بلا رداء، ولا عمامة ولا قلنسوة.

وكان ﷺ يعود المرضى في أقصى المدينة وكان يحب الطيب ويكره الريح الرديئة ويجالس الفقراء ويؤاكل المساكين ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألف أهل الشرف بالبر إليهم ويصل ذوي الأرحام من غير أن يؤثرهم على من هو أفضل لا يجفو على أحد ويقبل معذرة المعتذر إليه، يمزح ولا يقول إلا حقاً يضحك من غير قهقهة يرى اللعب المباح فلا يكرهه.

ويسابق أهله له عبيد وإماء لا يرتفع عليهم في مأكل ولا ملبس وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، نشأ في بلاد الجهل والصحارى في فقر وفي رعاية الغنم، يتيماً لا أب له ولا أم فعلمه الله تعالى جميع محاسن الأخلاق والطرق الحميدة وأخبار الأولين والآخرين وما فيه النجاة والفوز في الآخرة. وفقنا الله تعالى لطاعته والتأسي به في فعله آمين.

بيان جملة أخرى من آدابه ﷺ

قالوا ما شتم رسول الله ﷺ أحداً من المؤمنين بشتيمة إلا جعلت له كفارة ورحمة، وما لعن امرأة ولا خادماً بلعنة، وقيل له وهو في القتال: لو لعنتهم يا رسول الله. قال إنما بعثت رحمة ولم أبعث لعاناً.

وقال أنس رضي الله عنه: والذي بعثه بالحق نبياً ما قال لي في شيء قط كرهه لم فعلته، ولا لامني نساؤه إلا قال دعوه إنما كان هذا بكتاب وقدر. قالوا وما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم فيكون أبعد الناس من ذلك.

ولا يأتيه أحد حر أو عبد أو أمة إلا قام معه في حاجته وقد وصفه الله تعالى في التوراة قبل أن يبعثه في السطر الأول فقال: محمد رسول الله عبدي المختار لا فظ ولا غليظ، ولا صخاب في الأسواق، ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح.

ومولده ﷺ بمكة وهجرته طيبة وملكه بالشام يأتزر على وسطه هو ومن معه وعاة القرآن والعلم يتوضأ على أطرافه.

وكذلك نعته في الإنجيل وكان من خلقه أن يبدأ من لقيه بالسلام ومن فاوضه

بحاجة صابره حتى يكون هو المنصرف، ما أخذ أحد بيده فيرسل يده حتى يرسلها وكان ﷺ إذا لقي أحداً من أصحابه بدأه بالمصافحة ثم أخذ بيده فشابكه ثم شد قبضته.

وكان ﷺ لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر الله تعالى وكان لا يجلس إليه أحد وهو يصلي إلا خفف صلاته وأقبل عليه، فقال ألك حاجة؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته وكان ﷺ أكثر ما يجلس مستقبل القبلة.

وكان ﷺ يكرم من يدخل عليه حتى ربما بسط ثوبه لمن ليس بينه وبينه نسب ولا رضاع يجلسه عليه. وكان ﷺ يؤثر الداخل بالوسادة التي تحته فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يفعل.

وكان ﷺ إذا قام من مجلسه قال: **«سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك أستغفرك وأتوب إليك، ثم يقول، علمنيهن جبريل».**

بيان كلامه وضحكه ﷺ:

كان أفصح الناس منطقاً وأحلاهم كلاماً ويقول أنا أفصح العرب، وإن أهل الجنة يتكلمون فيها بلغة النبي ﷺ.

وكان يتكلم بجوامع الكلم لا فضول ولا تقصير كان كلامه يتبع بعضه بعضاً وبين كلامه توقف يحفظه سامعه ويعيه وكان ﷺ لا يقول في الرضا والغضب إلا حقاً، أكثر الناس تبسماً وأطيبهم نفساً ما لم ينزل عليه قرآن أو يذكر الساعة أو يخطب بخطبة عظة.

ولقد جاء أعرابي يوماً وهو ﷺ متغير تنكره أصحابه فأراد أن يسأله فقالوا لا تفعل يا أعرابي فإنا نكر لونه قال دعوني فوالذي بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يتبسم فقال يا رسول الله بلغنا أن المسيح الدجال يأتي الناس بالثريد وقد هلكوا جوعاً جوعاً، أفترى لي بأبي أنت وأمي أكف عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هزالاً أم أصرف في ثريده حتى إذا تضلعت شبعاً آمنت بالله وكفرت به، قالوا فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه قال لا بل يغنيك الله بما يغني به المؤمنين.

وكان إذا نزل به الأمر فوَّض الأمر وتبرأ من الحول والقوة واستنزل الهدى، فيقول اللهم أرني الحق حقاً فأتبعه وأرني المنكر منكراً وارزقني اجتنابه، وأعذني من أن يشتبه علي فأتبع هواي بغير هدى منك، واجعل هواي تبعاً لطاعتك وخذ رضا نفسك من نفسي في عافية، واهدني فيما اختلف فيه من الحق بإذنك فإنك تهدي إلى صراط مستقيم.

بيان أخلاقه وآدابه في الطعام وقد سبق بعضه في باب الأكل والشرب:

كان ﷺ يأكل القثاء بالرطب وبالملح وكان ﷺ أحب الفواكه إليه الرطب والبطيخ والعنب، وربما أكل العنب خرطاً يرى زؤانه على لحيته كاللؤلؤ وهو الماء الذي يتقاطر منه وكان ﷺ أكثر طعامه الماء والتمر.

وكان ﷺ يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين، وكان ﷺ أحب الطعام إليه اللحم ويقول «**هو يزيد في السمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة، ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يوم لفعل**» وكان ﷺ يأكل الثريد باللحم والقرع، وكان ﷺ يحب القرع ويقول إنها شجرة أخي يونس.

قالت عائشة رضي الله عنها: إذا طبختم قدراً فأكثروا فيه من الدباء فإنه يشد القلب المحزون. وكان ﷺ يأكل لحم الطير الذي يصاد وكان لا يتبعه ولا يصيده، ويحب أن يصاد له ويؤتى به فيأكله وكان ﷺ يأكل الخبز والسمن وكان يحب من الشاة الذراع والكتف ومن القدر الدباء ومن الصباغ الخل ومن التمر العجوة ودعا فيها بالبركة وقال هي من الجنة وشفاء من السم والسحر وكان ﷺ يحب من البقول الهندباء والباذروج والبقلة الحمقاء.

بيان آدابه وأخلاقه في اللباس:

كان ﷺ يلبس من الثوب ما وجد وكان ﷺ أكثر لباسه البياض ويقول: «**ألبسوها أحياءكم وكفنوا فيها موتاكم**» وربما خرج وفي خاتمه الخيط المربوط يتذكر به الشيء وكان ﷺ يلبس القلانس تحت العمائم ويغير عمامته وربما ينزع قلنسوته من رأسه فيجعلها سترة بين يديه ثم يصلي إليها.

وكان ﷺ إذا لبس الثوب لبسه من قبل ميامنه ويقول الحمد لله الذي كساني ما أواري به عورتي وأتجمل به في الناس وإذا نزع ثوبه خرج من مياسره وكان ﷺ له

ثوب لجمعته خاصة وكان ﷺ إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً يقول ما من مسلم يكسو مسلماً من فضل ثيابه ولا يكسوه إلا لله تعالى إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حياً وميتاً.

وكان ﷺ له فراش من أدم حشوه ليف طوله ذراعان أو نحوه وعرضه ذراع وشبر وكان ﷺ له عباءة تفرش له حيثما تنقل تثنى طاقتين وكان ﷺ يلبس المنطقة من الأدم فيها ثلاث حلق من فضة.

بيان شجاعته ﷺ:

قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ بالنبي ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وكان ﷺ من أشد الناس يومئذ بأساً.

بيان معجزاته:

اعلم أن من شاهد أحواله وأخلاقه وأصغى إلى ما نقل عنه، علم أن الأولين والآخرين يعجزون عن أمثالها وإن ذلك لا يتصور إلا أن يكون من الوحي والتنزيل.

وكان الجلف العربي يرى وجهه الكريم، فيقول والله ما هذا وجه كذاب قط، فذو البصيرة يكفيه ذلك دلالة على صدقه ونبوته، ونحن نورد بعض ما ظهر على يده من خرق العادات، منها: أنه شق له القمر بمكة إذ سألته قريش ذلك، ومنها: أنه أطعم النفر الكثير في منزل أبي طلحة يوم الخندق. ونبع الماء من بين أصابعه فشرب العسكر كلهم وهم عطاش، وتوضئوا من قدح صغير ضاق عن أن يبسط عليه السلام فيه يده. وأمثال ذلك كثير والبصير لا يتوقف إيمانه على ذلك والله أعلم.

* * *

الباب الحادي والعشرون

في عجائب القلب

وهو الأول من ربع المهلكات

قال رسول الله ﷺ : « **إن في جسد ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وصلح لها سائر البدن ألا وهي القلب** ». فقد تبين بهذا الحديث أن الأصل هو القلب وهو الأمير المطاع في عالم الجسد والبقية رعية.

ونحن نبين معنى القلب والروح والنفس والعقل:

فالأول لفظ القلب: وهو يطلق لمعنيين أحدهما:

اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويف يسكنه دم أسود. وهو منبع الروح ومعدنها وهذا اللحم على هذا الشكل أيضاً موجود للبهائم وللموتى.

والمعنى الثاني: هو لطيفة ربانية روحانية لها بهذا اللحم اتصال ما، وهذه اللطيفة هي العالمة بالله تعالى المدركة لما ليس يدركه الخيال والوهم وهو حقيقة الإنسان، وهو المخاطب وإلى هذا المعنى أشار بقوله تعالى: ﴿ **إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب** ﴾[1] ولو كان المراد بالقلب هو اللحم الصنوبري الشكل، لكان موجوداً لكل أحد.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن تعلق هذه اللطيفة بهذا اللحم الصنوبري هو تعلق غامض لا يدرك بالبيان بل يتوقف على المشاهدة والعيان. والذي يمكن أن يذكر فيه أنه كالملك وهذا اللحم له كالدار والمملكة إذ لو كان تعلقه به تعلق الأعراض لما صح فيه أن يقال: ﴿ **وأنه يحول بين المرء وقلبه** ﴾[2].

(١) ق ٣٧.　　(٢) الانفال ٢٤.

اللفظ الثاني: الروح وله أيضاً معنيان أحدهما:

الروح الطبيعي وهو دخان منبعه دم أسود في تجويف القلب وهو اللحم الصنوبري وينتشر بواسطة العروق والضوارب في جميع أجزاء البدن ومثاله كسراج في بيت إذ يستضاء في جميع زوايا البيت به، وهو الذي يريده الأطباء بإطلاق الروح.

والمعنى الثاني: هو اللطيفة الربانية التي هي معنى حقيقة القلب، فالروح والقلب متواردان على تلك اللطيفة على نسق واحد وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي** ﴾[1].

اللفظ الثالث: النفس ولها معنيان أحدهما:

المعنى الجامع لقوة الغضب والشهوة، والصفات المذمومة. وهو المراد بقوله عليه السلام: « **أعدى أعدائك نفسك التي بين جنبيك** » وهي المجاهدة والمأمور بكسرها.

المعنى الثاني لها: اللطيفة الربانية التي هي إحدى معنيي الروح والقلب والنفس أيضاً، مع لفظ القلب والروح مطلقة على تلك اللطيفة وهي حقيقة الإنسان التي يتغير بها عن سائر الحيوانات فإذا صفت وتجلت بذكر الله تعالى مُحِيَ عنها آثار الشهوات والصفات المذمومة وسميت النفس المطمئنة، وهي المرادة بقوله تعالى: ﴿ **يا أيتها النفس المطمئنة** ﴾[2] الآية، والنفس قبل أن تنتهي إلى هذه الدرجة لها درجتان باعتبار صفاتها أحدهما أن تسمى النفس اللوامة. وهي التي أقسم الله تعالى بها في قوله تعالى: ﴿ **ولا أقسم بالنفس اللوامة** ﴾[3] وهي التي تلوم على المعاصي ولا تركن إليها ولا ترضى بها. وقبل أن تنتهي إلى هذه الدرجة لها درجة، وهي أن تكون أمّارة بالسوء كما قال الله تعالى: ﴿ **إن النفس لأمارة بالسوء** ﴾[4] وهي في حالة لا تأمر بالخير ولا تلوم على الشر، وهي حضيض النفس والمطمئنة سماكها واللوامة بينهما لا هي ترضى بالشر فتركن إليه ولا تستطيع الاطمئنان فتطمئن إلى الخير وهو ذكر الله تعالى.

اللفظ الرابع: العقل وقد ذكر له عدة معان أحدها العلم بحقائق الأشياء.

(١) الاسراء ٨٥.　　(٢) الفجر ٢٧.　　(٣) القيامة ٢.　　(٤) يوسف ٥٣.

والثاني: العالم الذي يكون العلم له كالصفة وهذا المعنى هو اللطيفة الربانية التي سبق ذكرها، إذ لا يمكن أن يكون المراد بالعقل المعنى الأول لقوله ﷺ: «**أول ما خلق الله تعالى العقل ثم قال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر**» الحديث. فإذا تبين لك أن القلب والعقل والروح والنفس في الاخبار والآيات المراد منها، هي اللطيفة الربانية، ونحن إذا أطلقناها أردنا بها تلك فاعلم ذلك وقال سهل التستري: القلب هو العرش والصدر هو الكرسي وهو يدل أيضاً على أن المراد عنده من القلب شيء وراء اللحم الصنوبري.

فصـل

إذا عرفت القلب فنحن نبين لك جنوده، وله جندان جند يشاهد بالبصر، وهو اليد والرجل والعين وسائر الأعضاء، وجند يشاهد بالبصيرة وهو الصفات على ما سيأتي ذكرها ودل الحديث وهو قوله ﷺ: «**إن في جسد ابن آدم مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد ألا وهي القلب**» على أن القلب ينبغي أن يكون أميراً مطاعاً وتكون النفس وهي سائر البدن مطيعة لأوامره ونواهيه. فإذا لم يكن كذلك وغلبت الشهوات صار الأمير مأموراً وانعكس الأمر فيصير الملك مثلاً أسيراً مسخراً في يد كلب أو عدو.

ولهذا، إن الرجل إذا أطاع داعية الشره أو الشهوة يرى نفسه في النوم أو في اليقظة. وهي حالة الصوفية ساجدة بين يدي خنزير أو حمار وإن أطاع الغضب يرى نفسه ساجدة بين يدي كلب فإنه على الحقيقة أطاع الحمار وهو الشهوة وأطاع الخنزير وهو الشره وهو في هذه الحالة أعني في طاعة الشهوة والشره مطيع للشيطان المسلط على الآدمي.

فإذا طال تسلط هواه بهذه الصفات التي هي جند الشيطان على القلب ولم يمكن للقلب نصره على هزم هذا الجند وصار القلب مقهوراً مدة صار ذلك سبباً في إبطال خاصية تلك اللطيفة وهو المراد بسواد القلب في الأخبار وهو المراد بالطبع والران في قوله تعالى: ﴿ **أولئك الذين طبع الله على قلوبهم** ﴾[1] وفي قوله تعالى: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم** ﴾[2].

(١) محمد ١٦. (٢) المطففين ١٤.

ومثال القلب المرآة فإنها ما دامت صافية من الصدإ والخبث، يشاهد فيها الأشياء وإذا غلب عليها الصدأ ولم يكن لها ما يصقلها ويدفع الصدأ عنها ويجلوها تمكن منها وغاص في جرمها وهلكت وصارت بحيث لا يقدر المصقل على صقلها وجلائها وهو المراد بالطبع والران وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**إن القلب ليصدأ كما يصدأ الحديد قيل وما جلاؤه؟ قال: ذكر الموت وتلاوة القرآن**» فإذا بطلت ولاية القلب بالكلية استولى الشيطان، فتقلب الصفات المحمودة مذمومة.

وقد قال ﷺ: «**القلوب أربعة؛ قلب أجرد فيه سراج يزهو فذاك قلب المؤمن، وقلب أسود منكوس فذاك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذاك قلب المنافق، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المادتين غلبت عليه حكم له بها، وفي رواية؛ ذهبت به**» وقد قال الله تعالى: ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾[1] أخبر أن إبصار القلب وجلاءه يحصل بالذكر وأنه يتمكن من الذكر بالتقوى فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف مفتاح الفوز الأكبر.

فصـل

اعلم أن القلب مثاله مثال المرآة وعلوم الحقائق مثالها مثال الصور التي ترى في المرآة وحصول الصورة شيء ثالث فإذا عرفت هذا فاعلم أن امتناع انكشاف الصور في المرآة له خمسة أسباب:

أحدها: فساد صورتها أعني المرآة وهو قبل أن تدور وتتشكل وتصقل.

والثاني: خبثه وصدؤه.

والثالث: كونه معدولاً به عن جهة الصورة بأن تكون الصورة وراء المرآة.

والرابع: الحجاب المرسل بين المرآة والصورة.

الخامس: لجهلها بالجهة التي فيها الصورة.

فكذلك القلب هو مستعد لأن يتحلى بحلية الحق في الأمور كلها وإنما خلا بهذه الأسباب الخمسة.

(١) الاعراف ٢٠١.

التي أولها النقصان في ذات القلب كالصبي والمجنون.

الثاني لكدورة المعاصي والخبث التي تراكم على القلب بسببها من كثرة الشهوات وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم** ﴾[1] وقوله ﷺ: « **من قارف ذنباً فارقه عقل لم يعد إليه أبداً** » إذ غايته أن يصقل القلب بحسنة يتبعها ولو كانت دون الذنب لزاد إشراق القلب.

الثالث: أن يكون معدولاً عن جهة الحقيقة المطلوبة فيكون وجهه إلى ترتيب الطاعات وينبغي أن يكون كما قال الخليل عليه السلام إني وجهت وجهي.

الرابع: الحجاب وذلك أن يكون في سر القلب بقية شهوة أو فساد عقيدة سبقت في الصبا وبقي أثرها.

الخامسة: الجهل بالجهة التي منها يطلب فإنه ينبغي أن يكون له إيمان كلي بما لا يحصل له، وهو الإيمان بالغيب وما لم يكن له هذا الإيمان كيف يمكنه أن يطلب ما لا يعلم وجوده فالغفلة مانعة، وقد قال ﷺ: « **لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء** » وقال ﷺ: « **كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجسانه** » وقد روى ابن عمر قال « قيل يا رسول الله أين الله في الأرض أو في السماء؟ قال ﷺ: « **في قلوب عباده المؤمنين** » وفي الخبر قال الله تعالى: ﴿ **لم يسعني أرضي وسمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن** ﴾ وبذلك قال عمر: رأى قلبي ربي. فإنه كان زكى قلبه وقد قال الله تعالى: ﴿ **قد أفلح من زكاها** ﴾[2].

واعلم أن قبول الحق له ثلاث درجات.

أولها: القبول بالسماع في أول الفطرة وهو يمكن فيه الخطأ وهو تقليد العوام.

الثاني: أن تسمع كلام من تطلبه مثلاً من داخل البيت فتستدل به على أن ذلك الرجل المطلوب.

الثالث: أن تدخل البيت فتشاهده وتعاينه وهو المراد بقول علي رضي الله عنه: لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً. وهو إيمان الأنبياء والصديقين والأولياء فهذا الذي لا يدور السهو والغفلة حواليه، وإنما مثال امتناع الكافر والصبي والمجنون

(١) المطففين ١٤. (٢) الشمس ٩.

عن استطلاع الحقائق مثال رجل بصير في ظلمة. فإن البصر ربما يكون كاملاً ولكن يمتنع الإبصار حتى يشرق نور الشمس فبصر ببيصيرة سابقة عند طلوع الشمس.

فكذا العلم لم ينكشف في قلب الصبي والمجنون وهو لا يقبل التمييز والعقل لأن لوح قلبه لم يتهيأ بعد لقبول نقش القلم، والقلم عبارة عن خلق من خلائق الله تعالى جعل سبباً لحصول نقش العلوم في قلوب العباد، قال الله تعالى: ﴿ **الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم** ﴾[1] وقلم الله لا يشبه قلم خلقه كما أن وصفه لا يشبه وصف خلقه فليس قلمه من قصب ولا خشب كما أن ذاته ليست من جوهر ولا عرض.

فصل

قد تبين لك أن مثال القلب أعني اللطيفة الربانية كالملك، والبدن كالولاية له، والقوة العقلية المفكرة كالوزير له والصفات المذمومة هي كالشرطة، فالقلب ما دام متمكناً من استعمال إشارة الوزير، والتصرف في المملكة بحسب إشارة العقل فهو مستقيم في ولايته.

وإن تسلطت الشهوات والصفات المذمومة على نقض إشارة العقل فذلك على خلاف العدل ونحن نضرب له مثالاً آخر.

فنقول اللطيفة الربانية مثالها مثال الفارس الصياد، والبدن مركبه والغضب والشهوة كلابه. فإن أذعنت له فرسه وانقاد له سباعه وكلابه تحصل على غرضه من الصيد، وهو اقتناص العلوم واقتناء سعادة الأبد. وإن كان الفرس جموحاً لم تطعه أو الكلب غير معلم لم يسترسل بإرساله ولم يمسك بإشارته فسد الأمر، وامتنع المقصود. ويخاف أن يستولي عليه كلبه فيأكله فضلاً عن أن يمتنع عليه للصيد.

فصل

إعلم أن اقتناص العلوم للقلب على مراتب منها ما يكون للعلماء فيتوسلون بالمقدمات إلى النتائج وبالأدلة إلى المدلولات.

(١) القلم ٤.

ومنها ما يكون على سبيل الكشف والإرادة من الله تعالى كما يكون للأنبياء قال تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ﴾[1] وقال نبينا ﷺ: « اللهم أرنا الأشياء كما هي » فتنكشف لهم الحقائق كفاحاً من غير توسط دليل أو برهان أو مقدمات، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها ﴾[2].

وهذه الرحمة مبذولة في الجود الإلهي والكرم الأبدي في القلوب المتعرضة لها وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: « إن لربكم في أيام دهركم نفحات ألا فتعرضوا لها » فالتعرض هو الفلاح والسعادة بالتزكية قال تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها ﴾[3] والإعراض هو الإدبار والشقاء بصده وقد قال تعالى: ﴿ وقد خاب من دساها ﴾[3].

وإذا كان القصد الاستكشاف من جهة العبد كان مثاله الدعاء واستنزال الهدى وإن كان من جهة الله تعالى من غير استنزال وسبب من جهة العبد كان مثاله النزول وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: « ينزل الله تعالى كل ليلة إلى سماء الدنيا » وبقوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن ربه عز وجل: « لقد طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم لأشد شوقاً » وإلى طرفي الإستكشاف والتكشف الإشارة بقوله ﷺ حكاية عن ربه سبحانه وتعالى: « من تقرب إلي شبراً تقربت إليه ذراعاً ».

وعلى الجملة فاعلم أن الجود الإلهي اقتضى أن تكون السعادة مبذولة من غير بخل والكرم السرمدي اقتضى أن يكون القلب في أصل الفطر مستعداً لقبول هذه السعادة وإليه الإشارة بقوله ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة » وقوله تعالى: ﴿ فطرة الله ﴾[4] الآية، وقوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ﴾[5].

نعم بعد ذلك يعترض في وسط الأمرين أمور مانعة شاغلة وهي الشهوات والخبائث والشواغل فإذا رفعت الموانع رجعت الأمور إلى أصل مقتضياتها وانكشف للقلب جلال الله وعظمته ووصل إلى سعادة الأبد فبقدر ما تفرغ الإناء من شيء يتسع لغيره. قال الله تعالى: ﴿ الربانيون والأحبار ﴾[6] فمن حصلت له هذه السعادة صار ملكاً كريماً وصار ربانياً وإليه الإشارة بقول علي رضي الله عنه: إن لله تعالى في أرضه

(١) الانعام ٧٥.
(٢) فاطر ٢.
(٣) الشمس ٩.
(٤) الروم ٣٠.
(٥) التين ٤.
(٦) المائدة ٤٤.

آنية وهي القلوب فأحبها إلى الله أرقها وأصفاها وأصلبها ثم فسرها فقال أصلبها في الدين وأصفاها في اليقين وأرقها على الإخوان وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾[1].

قال أبي بن كعب: هذا مثل نور المؤمنين وقلوبهم وأما قوله تعالى: ﴿ أو كظلمات في بحر لجي ﴾[2] مثل قلب المنافق. وقال زيد بن أسلم قوله تعالى: ﴿ في لوح محفوظ ﴾[3] هو قلب المؤمن.

فصل

اعلم أن الإنسان في أصل فطرته وتركيبه قد اجتمع فيه أربعة شوائب، فمنها الصفات السبعية والبهيمية والشيطانية والربانية، فهو من حيث سلط عليه الغضب يتعاطى أفعال السباع، ومن حيث سلط عليه الشهوات يتعاطى فعل البهائم، ولتركب هاتين الصفتين فيه، وتولد حب الشر فيه والقهر والغلبة والمكر والخديعة غلبت عليه الشيطنة.

ومن حيث أنه في نفسه أمر رباني كما قال تعالى: ﴿ قل الروح من أمر ربي ﴾[4] فإنه يدعي لنفسه الربوبية والاستعلاء، وترك الانقياد ويفرح بما يناسب هذا الأمر من المعرفة والوصف بها، ويحزن بما يناقضه من الجهل والوصف به، فإذا عرفت هذا فاعلم أن الإشتغال بالعبادات والمواظبة عليها القصد منه تحصيل الغرض من قهر ما لا ينبغي وإبقاء ما ينبغي وسيأتي في باب رياضة النفس ذلك إن شاء الله تعالى.

واعلم أن العلم الصالح الحاصل في القلب إن كان بطريق التعلم وتقديم المقدمات فهو طريق العلماء وما وراءه فهو طريق الصوفية وهو بكشف ومشاهدة وذلك قسمان.

أحدهما: مثل وقوع إلهام في النفس وهو النفث في الروع وإليه الإشارة بقوله ﷺ: « إن روح القدس نفث في روعي أحبب من شئت فإنك مفارقه واعمل ما شئت فإنك مجزي به وعش ما شئت فإنك ميت ».

(١) النور ٣٥.
(٢) النور ٤٠.
(٣) البروج ٢٢.
(٤) الإسراء ٨٥.

وقسم آخر: هو من جنس الإلهام وذلك أن يكشف له حقائق الأشياء ويرى الملك الموكل بها الذي منه يستفيد.

واعلم أن القلب إذا كان كالمرآة الصقيلة المجلوة، وقد علمت قبل ذلك أن حقائق الأشياء منقوشة في اللوح المحفوظ. فمهما ارتفع الحجاب، وكانت المرآة في محاذاة اللوح المحفوظ، انكشف فيه حقائق العلوم وارتفاع الحجاب، تارة يكون في النوم وتارة يكون في اليقظة. وهو المعتاد للصوفية وتارة بهبوب رياح الألطاف من غير سبب من جهة العبد أو استعداد، فيلمع في القلب من وراء ستر الغيب شيء من غرائب العلوم وتمام هذا الكشف بالموت فيه ارتفاع الحجاب بالكلية وإليه الإشارة بقوله عليه السلام: « **الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا** ».

ويقرب من الموت تصفية الصوفية، فلذلك لا يشتغلون بدراسة العلم بل يشتغلون بتصفية القلب وقطع العلائق، ليكون ذلك سبباً في الإقبال على الله تعالى بالكلية، ثم تفويض الأمر إليه، فهو أعلم بما يكشف لقلوبهم من الأنوار والألطاف، وهو طريق الأنبياء والأولياء فإنهم لم يحصلوا العلوم والحقائق بالمدارسة، بل وجدوا الكنوز فاشتغلوا بها عن الإكتساب.

ومثال العلم الكسبي ومثال طريقتهم الكنز والكيمياء وإياك أن تترك الكسب ما لم تعثر على الكنز فذلك هو الهلاك.

بيان حال القلب بالنسبة إلى العلوم والفرق بين التعلم وحال الصوفية:

اعلم أن للقلب بابين، باب ينفذ إلى عالم الحواس وباب ينفذ إلى عالم الغيب، ويعرف صدق هذا القول بالتأمل في النوم فإنك ترى فيه من العجائب ويظهر لك الغيب، وما سيكون بعد بمدة مديدة وفي اليقظة، إنما يفتح ذلك الباب للأنبياء والأولياء، وذلك لمن طهر قلبه عما سوى الله تعالى وأقبل بالكلية عليه وإليه الإشارة بقوله ﷺ: « **سبق المفردون قيل ومن هم يا رسول الله قال المجتهدون بذكر الله وضع الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافاً، ثم قال في وصفهم، أقبل عليهم بوجهي أترى أن من واجهته بوجهي يعلم أحد أي شيء أريد أن أعطيه** » ثم قال ﷺ: « **أول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم** » فإذا مدخل هذا كله هو الباب الداخل من القلب الذي ينفذ إلى عالم الغيب، وهو عالم الإله.

وقد قال بعضهم من القلب إلى الغيب روزنة، ونحن نبين الفرق بين التعلم والتصوف بمثال في حكاية.

قد حكي أن أهل الصين وأهل الروم تباهوا بين يدي بعض الملوك بحسن النقش والصور فاستقر رأي الملك على أن يسلم إليهم صفة، تنقش أهل الصين منها جانباً، وأهل الروم جانباً، ويرخى بينهما حجاب يمنع إطلاع كل رفيق منهم على صاحبه، ففعل ذلك وجمع أهل الروم غرائب الأصباغ، ودخل أهل الصين يصقلون جانبهم، فلما فرغ أهل الروم ادعى أهل الصين أنهم أيضاً قد فرغوا فتعجب الملك منهم، وقال كيف الفراغ ولم تأتوا بشيء من الأصباغ فقيل ما عليكم من ذلك ارفعوا الحجاب وتأملوا، ففعلوا ورفع الحجاب فإذا عجائب الأصباغ والألوان والنقوش تزهر وتتلألأ بزيادة بريق وصفاء إذ كانوا هم يصقلون ما دام غيرهم ينقش.

فالصوفية يصقلون والعلماء ينقشون. فما ينكشف لهم بزيادة، ووراء ما يحصله العلماء ينكشف لهم أمور لا يتصور الوصول إليها بتكلف التعلم وإليه الإشارة بقوله « ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وبقوله: « أيعلم أحد إذا واجهته بوجهي أي شيء أريد أن أعطيه ».

وذلك هو الحياة المرادة بقوله تعالى: ﴿ **إذا دعاكم لما يحييكم** ﴾[1] فبعد ذلك لا يموت قلبه قال الحسن: التراب لا يأكل محل الإيمان فيكون إذاً لكل أحد الأجر على قدر النصب.

فالمؤمنون يسعون بأنوارهم إلى لقاء الله تعالى وإلى هذا الإشارة بقوله ﷺ: « **إن بعضهم يعطى نوراً مثل الجبل وبعضهم يعطى أصغر حتى يكون آخرهم رجل يعطى نوره على إبهام قدميه. فيضيء مرة ويطفأ مرة فإذا أضاء قدم قدمه فمشى وإذا طفىء أقام ومرورهم على الصراط على قدر نورهم. فمنهم من يمر كطرف العين. ومنهم من يمر كالبرق. ومنهم كالسحاب. ومنهم كانقضاض الكوكب. ومنهم من يمر كشد الفرس. والذي أعطي نوره على إبهامه يحبو على وجهه ويديه ورجليه، يجر يده ويتعلق**

(١) الانفال ٢٤.

بأخرى، ويجر رجلاً ويتعلق بأخرى وتصيب جوانبه النار فلا يزال كذلك حتى يخلص » الحديث .

وبهذا تتفاوت درجات الإيمان قال ﷺ : « **لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان العالم سوى النبيين لرجح** » وهذا أيضاً كقول القائل لو وزن نور الشمس بنور السرج كلها لرجح . فإيمان الناس كالسرج والشموع وإيمان الأولياء كنور القمر والنجوم، وإيمان الأنبياء كنور الشمس .

فصل

في الدلالة على صحة طريق الصوفية رضي الله عنهم

قال أبو الدرداء : المؤمن ينظر من وراء ستر رقيق فوالله إن للحق قولاً يقذفه الله في قلوبهم ويجريه على ألسنتهم . وقال ﷺ : « **اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله** » وقال ﷺ : « **إن من أمتي محدثين ومكلمين وإن عمر منهم** » .

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي (ولا محدث)** ﴾[1] يعني الصديقين . وعلى الجملة من رأى في عمره ولو مناماً واحداً صحيحاً استغنى عن البراهين والاخبار والاثار والايات الدالة على ذلك أكثر من أن تحصى .

فصل

واعلم أن للقلب باباً ينفذ فيه الشيطان في مقابلة بابه النافذ إلى عالم الغيب، وللشيطان لمة كما أن للملك لمة . والصفات المذمومة مداخل الشيطان إلى القلب، فبقدر قمع جميع تلك الصفات تضيق مجاري الشيطان أو تنسد . وبقدر إهمالها تتسع تلك الأبواب على الشيطان والمنافذ . وأنت بين أن تسدّ هذا الباب فيكون القلب محل الحكمة ومهبط الملائكة وبين أن تهمله فيكون القلب معشش الشياطين . وجميع هذه الأبواب التي ستأتي من بعد هذا الباب في قمع الشهوات وتخلية القلب عنها فافهم تغنم والله أعلم بالصواب .

(١) الحج ٥٢ ولفظة ولا محدث ليست من القرآن .

الباب الثاني والعشرون

في رياضة النفس

وفيه فصول :

قال رسول الله ﷺ : « **رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر** » .

اعلم أن النفس لها رذائل لا بد من تنقيتها وتصفيتها فبذلك تصل إلى سعادة الأبد وجوار الله تعالى وقد عرفت مما سبق .

فضيلة حسن الخلق :

قال ﷺ : « **إن حسن الخلق يذيب الخطيئة كما تذيب الشمس الجليد** » وقال عبد الرحمن سمرة : بن كنا عند رسول الله ﷺ فقال عليه السلام : « **إني رأيت البارحة عجباً، رأيت رجلاً من أمتي جاثياً على ركبتيه بينه وبين الله حجاب، فجاء حسن الخلق فأدخله على الله تعالى** » .

فصل

في بيان حسن الخلق وسوئه

يقال فلان حسن الخلق والخلق . أي حسن الظاهر والباطن فحسن الظاهر هو الجمال . كما عرفت وحسن الباطن هو غلبة الصفات الحميدة على المذمومة والتفاوت في الباطن أكثر من التفاوت في الظاهر وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي** ﴾[1] نبه على أن صورة ظاهره مركبة من التراب وصورة باطنه من عالم أمر الله تعالى .

(١) ص ٧١ .

فنعني بحسن الخلق حسن صورة الباطن فبقدر ما ينمحي عنه من الصفات المذمومة يثبت بدلها من الصفات المحمودة. فهو حسن الخلق. وتمام حسن الخلق لرسول الله ﷺ إذ نال في هذا المعنى درجة الكمال. وقد قال عليه السلام: «**حسنوا أخلاقكم**» نبه على قبولها التغيير وانفعالها تحت التصرف فعليك بالسعي في إذعان الغضب والشهوة والشره.

وجميع هذه لصفات لإشارة الشرع فإذا فعلت ذلك فقد حصل الغرض وذلك بالمجاهدة والصبر على ما تكره ليصير بعد ذلك عادة. قال ﷺ: «**الخير عادة**» فمن لم يكن في أصل الفطرة مثلاً سخياً جواداً فيتعود ذلك بالتكلف.

وكذلك لو لم يخلق متواضعاً يعمل ذلك بالتكلف إلى أن يتعود ذلك، وكذا سائر الصفات يعالجها بضدها. إلى أن يحصل الغرض فالمداومة على العبادات ومخالفة الشهوات يحسن صورة الباطن ويحصل الأنس بالله تعالى. قال ﷺ: «**أعبد الله في الرضا فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير**» ففي الابتداء الصبر إلى أن تصير راضياً إذ أصل الفطرة يقتضي حسن صورة الباطن وإليه الإشارة بقوله ﷺ: «**الحسنة بعشر أمثالها**» إذ هي موافقة أصل الفطرة.

وبيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق:

إنا قد عرفنا أن المعالجة في مرض البدن أن يقابل الشيء بضده، وكذلك في مرض القلب وذلك يختلف باختلاف الأشخاص. إذ الطباع مختلفة والشيخ في قومه كالنبي في أمته.

وهو ينظر في حال المريد فيعلم ما يغلب عليه من الصفات وما ينبغي أن يعالج به فيشغله في ابتداء أمره بالعبادات وتنظيف الثياب وتطهيرها والمواظبة على الصلوات وذكر الله تعالى في الخلوات فبذلك تظهر عيوبه الكامنة كمون النار في الحجر.

وإن كان معه فضل مال أخذه منه وصرفه إلى حاجات أرباب القلوب ليفرغ قلبه ويكون فراغ قلبه هو الأصل. ثم فراغ قلب غيره وباله بماله يمده بالهمم، فيتيسر عليه مقصوده ببركة تلك الهمم، ومن الطرق في تهذيب أخلاقه أن يسلط بعض صفاته على بعض، فيرغب في السخاء والجود بوسيلة الرياء ليترك البخل وحب الدنيا وجمعها. ويترك استعمال الغضب والشهوة ليحمد على العفة والسداد. ثم بعد ذلك

يتوجه إلى الرياء فيقمعه بقوة دينه التي حصلت في مدة الرياضة والإقبال على الله تعالى.

وبالمعالجة بالجد على النفس على المداومة. وقد حكي أن بعض الشيوخ كانت نفسه تكسل عن قيام بعض الليل فألزمها القيام على الرأس مدة، فرضيت بالقيام على الرجل واغتنمت.

بيان معرفة عيوب النفس:

قال ﷺ إذا أراد الله بعبد خيراً بصرّه بعيوب نفسه، ولهذه المعرفة طرق أعلاها أن يجلس بين يدي شيخ من مشايخه. ويشتغل بما يأمره فعند ذلك ينكشف له تارة وتارة يكشفه له شيخه،وهذه أعلى الطرق وأولاها إلا أنه قد عز في هذا الزمان هذا الطريق. وطريق أخرى أن يطلب رفيقاً صالحاً عالماً بأسرار هذا الأمر، فيصحبه ويجعله رقيباً على نفسه ليلاحظ أحواله وينبهه على عيوبه. فهكذا كان يفعل الأكابر من أئمة الدين.

كان عمر رضي الله عنه يقول: رحم الله أمرأ أهدى إلي عيوبي. وكان يسأل سلمان عن عيوبه رضي الله عنه لما قدم عليه، وقال له ما الذي بلغك عني مما كرهته فاستعفى فألح عليه فقال: سمعت أنك جمعت أدمين على مائدة، وأن لك حلتين حلة بالليل وحلة بالنهار. فقال وهل بلغك غيرهما؟ قال لا، قال أما هذان فقد كفيتهما، وكان يسأل حذيفة رضي الله عنه وهو صاحب سر رسول الله ﷺ في المنافقين هل ترى علي شيئاً من آثار النفاق. فهو على جلالة قدره وعلو منصبه هكذا كان يتهم نفسه.

فإن لم تجد رفيقاً فأصغ إلى قول الحساد فلا تعدم حاسداً يطلب معايبك، ويزيد فاستفد منه واتهم نفسك في كل ما ترمى به من العيوب. ولا تغضب ولا تحرد إذا نبهك إنسان على عيب من العيوب، فإن العيوب حيات وعقارب تلدغك في الدنيا والآخرة. فمن نبهك على أن حية في ثيابك تلدغك فاقبل منه المنة. فإن حردت عليه دل على ضعف إيمانك بالآخرة. وإذا اغتنمت ذلك دل على قوة إيمانك.

واعلم أن عين السخط تبدي المساوي فقوة الإيمان تفيدك هذه الفائدة وهي أن تغتنم عذل الحسود وتعييره إياك قيل لعيسى عليه السلام: من أدبك؟ قال ما أدبني أحد رأيت جهل الجاهل فجانبته.

فصل

اعلم أن ما ذكرناه إذا تأملته انفتحت لك عين تنتفع بها . فإن لم ترزق فلا أقل من الإيمان والتصديق . فالأول هو الإيمان ثم الوصول . قال الله تعالى : ﴿ **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات** ﴾[1] فالتقوى رأس المال في تحصيل هذه الأعمال . قال الله تعالى : ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾[2] .

ويقال إن امرأة العزيز قالت ليوسف عليه السلام : يا يوسف إن الحرص والشهوة صيرا الملوك عبيداً والصبر والتقوى صيرا العبيد ملوكاً . فقال يوسف قال الله تعالى : ﴿ **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** ﴾[3] .

وقال الجنيد رضي الله عنه أرقت ليلة فقمت إلى وردي فلم أجد الحلاوة التي كنت أجدها . فأردت أن أنام فلم أقدر . فقعدت فلم أطق القعود . فخرجت فإذا رجل ملتف في عباءة مطروح على الطريق . فلما أحس بي قال يا أبا القاسم إلى الساعة فقلت : يا سيدي من غير موعد . قال بلى سألت محرك القلوب أن يحرك إلي قلبك فقلت : فقد فعل فما حاجتك ، فقال : متى يصير داء النفس دواءها ، فقلت إذا خالفت النفس هواها فأقبل على نفسه وقال إسمعي قد أجبتك بهذا سبع مرات فأبيت إلا أن تسمعيه من الجنيد قال فانصرف وما عرفته .

بيان علامات حسن الخلق :

قال الله تعالى : ﴿ **قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾[4] إلى قوله : ﴿ **أولئك هم الوارثون** ﴾[5] وقال تعالى : ﴿ **التائبون العابدون** ﴾[6] وقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً** ﴾[7] وقال تعالى : ﴿ **وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً** ﴾[8] الآية .

ومن الناس من يكفيه في ذلك أدنى شيء لما اتفق له في ابتداء نشوئه من رعاية

---

(١) المجادلة ١١ . (٢) الطلاق ٢ . (٣) يوسف ٩٠ .
(٤) المؤمنون ١ . (٥) المؤمنون ١٠ . (٦) التوبة ١١٢ .
(٧) الانفال ٢ . (٨) الفرقان ٦٣ .

مشفق ، كما نقل عن سهل التستري أنه قال : كنت ابن ثلاث سنين وكنت أقوم بالليل أنظر إلى خلوة خالي محمد بن سوار فقال لي خالي يوماً : ألا تذكر الله الذي خلقك؟ قلت كيف أذكره قال قل بقلبك عند تقلبك في ثيابك ثلاث مرات ، من غير أن تحرك به لسانك : الله معي الله ناظر إلي الله شاهدي . فقلت ذلك ليالي ثم أعلمته فقال قل في كل ليلة سبع مرات فقلت ذلك ثم أعلمته فقال قل في كل ليلة إحدى عشرة مرة . فقلت ذلك فوقع في قلبي حلاوته .

فلما كان بعد سنة ، قال لي خالي احفظ ما علمتك ودم عليه إلى أن تدخل القبر فإنه ينفعك في الدنيا والآخرة ، فلم أزل على ذلك سنين ، فوجدت لها حلاوة في سري ثم قال لي خالي يوماً يا سهل من كان الله معه وهو ناظر إليه وشاهده كيف يعصيه ، فإياك والمعصية . فكنت أخلو بنفسي فبعثوا بي إلى المكتب فقلت إني لأخشى أن تتفرق علي همتي ولكن شارطوا المعلم أني أذهب إليه ساعة فأتعلم ثم أرجع .

فمضيت إلى الكتاب وحفظت القرآن وأنا ابن ست سنين أو سبع سنين وكنت أصوم الدهر وقوتي من خبز الشعير اثنتي عشرة سنة فوقعت لي مسألة وأنا ابن ثلاث عشرة سنة ، فسألت أن يبعثوني إلى البصرة أسأل عنها علماءها فلم يشف أحد عني شيئاً ، فخرجت إلى عبادان إلى رجل يعرف بأبي حبيب حمزة بن عبدالله العباداني . فسألته عنها فأجابني وأقمت عنده أنتفع بكلامه وأتأدب بآدابه .

ثم رجعت إلى تستر فجعلت قوتي اقتصاداً على أن يشترى لي بدرهم من الشعير الفرق ، فيطحن ويخبز لي ، فأفطر عند السحر كل ليلة على أوقية واحدة بحتاً بغير ملح ولا أدام ، فكان يكفيني ذلك الدرهم سنة .

ثم عزمت أن أطوي ثلاث ليال ثم أفطر ثم خمساً ثم سبعاً ثم خمساً وعشرين ليلة فكنت على ذلك عشرين سنة . ثم خرجت أسيح في الأرض ثم رجعت إلى تستر وكنت أقوم الليلة كلها فالموفق هو الله تعالى القوي الكريم .

بيان شروط الإرادة :

اعلم أن من يريد حرث الاخرة فعلامته الإقلاع عن حرث الدنيا . فمن شاهد الأخرة بقلبه مشاهدة يقين فعلامته استحقار الدنيا . فمن شاهد الجوهر النفيس و في

يده خرزة لم يبق له رغبة في الخرزة، ومن لم يفعل فذاك لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر.

فإذا المانع من الوصول عدم السلوك. والمانع من السلوك عدم الإرادة. والمانع من الارادة عدم الإيمان، وسبب عدم الإيمان في الظاهر عدم الهداة، والعلماء بالله الهادين إلى طريقه فمن تنبه من نفسه أو من غيره فله شروط لا بد من تقدمها.

الشرط الأول: رفع الحجاب والسد وهو أربع: المال والجاه والتقليد والمعصية.

فالمال، بأن تفرقه، والجاه الخلاص عنه بالبعد عن الوطن أو بإشهار التواضع والخمول والإقبال على ما يذهب بالجاه. والتقليد يرتفع بأن يترك تعصب المذاهب وأن يصدق بمعنى قوله: لا إله إلا الله محمد رسول الله. تصديقَ إيمان ويخوض في تحقيقه بالإقبال على أعماله المصدقة المحققة له، ورفع الالهة كلها من الهوى والدنيا وجميع ما تركن إليه النفس، فعند ذلك يقبل عمل الله بكنه همته ويداوم على ذكره. فينكشف له الاعتقاد الحق لقوله تعالى: ﴿ **والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا** ﴾[1] وأما المعصية فيتركها جانباً ويضع مكانها الطاعات والندم على ما قدم، والتوبة ورد المظالم، فإذا فعل وفرغ من هذه الأمور الأربعة، صار كمن توضأ ورفع الحدث والخبث وستر العورة واستعد للصلاة.

فعند ذلك لا بد له من شيخ سلك طريق الاخرة لنفسه حتى يهتدي به، وعند ذلك يكون بين يدي شيخه كالميت بين يدي الغاسل، لا يتحرك لنفسه بل يقلبه الغاسل كيف شاء.

وعندها يذكر قصة موسى مع الخضر عليهما السلام فلا يعترض على شيخه بحال من الأحوال.

وعند ذلك يؤمر بأربعة أشياء: بالخلوة والصمت والجوع والسهر، فالجوع مراد لتقليل دم القلب، ففيه بياضه ونوره ولذوبان شحم الفؤاد وفيه رقته وهي مفتاح

(١) العنكبوت ٦٩.

المكاشفة كما أن القسوة التي هي ضد الرقة سبب الحجاب، وإليه الإشارة بقوله ﷺ لعائشة رضي الله عنها: « **ضيقي مجاري الشيطان بالجوع** ». وقال عيسى عليه السلام للحواريين: جوعوا بطونكم لعل قلوبكم ترى ربكم. وقال سهل رضي الله عنه: ما صار الأبدال أبدالاً إلا بأربع خصال: إخماص البطون والسهر والصمت والاعتزال عن الناس.

أما السهر فإنه أيضاً يجلو القلب فينوره، والجوع يعين على السهر ويتعاضد في تنوير القلب، والنوم يقسي القلب ويميته إلا إذا كان بقدر الضرورة. قيل في حق الأبدال إن نومهم غلبة، وأكلهم فاقة، وكلامهم ضرورة.

وقال إبراهيم الخواص: اجتمع رأي سبعين صديقاً على أن كثرة النوم من كثرة شرب الماء. وأما الصمت فيتيسر بالعزلة والخلوة، وشره الكلام إلى القلوب خصوصاً لمن ذاق شيئاً من العلم عظيم، والفطام عنه شديد، لكنه كثير الفائدة وعزيز الجدوى، فيه يتوجه الباطن إلى الغيب ويعرض عن هذه الحياة الدنيا.

وأما الخلوة ففائدتها دفع الشواغل ليتفرغ للمقصود، إذ لا بد من ركود حواسه حتى يتحرك قلبه، وذلك بالخلوة فحسب ثم الأولى أن يكون في بيت مظلم، حتى لا يقع بصره على شيء يشغله، فإن لم يكن مظلماً فليلف رأسه في شيء أو يغمض عينيه فعند ركود الحواس يسمع نداء الحق ويشاهد جمال الحضرة الربوبية ألا ترى أنه نودي عليه السلام فقيل: يا أيها المزمل يا أيها المدثر.

فإذا فعل ذلك من الجوع والخلوة والسهر والصمت، فيلقن ذكراً من الأذكار وهو أن يجلس في زاوية بيت على الوضوء، مستقبل القبلة فيقول بلسانه: الله الله، لا يزال يقول كذلك ويحضر القلب والحواس كلها لاستماع الكلمة من اللسان ويواظب عليه إلى أن يسقط عنه حركة اللسان بالتكلف، فيصير بحيث تجري على لسانه من غير اختيار.

ثم يرجع من اللسان إلى القلب، وهو كلما يسكت القلب عاد إلى الذكر باللسان، فإذا أخذ القلب في الذكر سكت اللسان ولا يزال كذلك إلى أن ينمحي عن القلب الحروف ويبقى ذكر صاف عري عن الحروف، ثم يرتفع عن الذكر فيصير حالة مستدامة ويتيقظ لما يجري عليه من الوقائع فيذكرها لشيخه، وهو يرى في تلك

الوقائع ما سيجري عليه من الصفاء والكدورة، وما يتجدد عليه من الخيالات والوساوس والأحوال الصحيحة، لا يمكن أن يعلمها بنفسه بل يلقيها إلى الشيخ فهو أعلم بذلك.

وهو على جميع الأحوال، ما دام عالماً بوجود نفسه فعليه بالذكر. قال الله تعالى: ﴿ **قل الله ثم ذرهم** ﴾[1] فإذا غلب عليه وسوسة، أو خاطر سوء، فما دام غائباً لا يدري ما يجري عليه فلا حرج عليه، فإذا ثاب إلى نفسه ورجع إلى علمه يرجع إلى الذكر. قال الله تعالى: ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون، وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم** ﴾[2].

ويلازم الذكر طول العمر فعساه يرزق أن يكون من ملوك الذين تكشف لهم الحقائق، ويرى ما لا عين رأيت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. فإن لم يكشف له شيء فليداوم فإنه عند ظهور ناصية ملك الموت عليه السلام وينكشف له ذلك ويصل إلى المقصود إن شاء الله تعالى فافهم تغنم والله أعلم.

***

(١) الانعام ٩١. (٢) الاعراف ٢٠١.

الباب الثالث والعشرون

في كسر الشهوتين: شهوة البطن والفرج

وفيه فصول:

اعلم أن منشأ جميع الآفات شهوة البطن، ومنها تتشعب شهوة الفرج، ومنها أصيب آدم عليه السلام فأخرج من الجنة وهي التي تنتهي بالرجل إلى أن يطلب الدنيا ويرغب فيها.

بيان فضيلة الجوع وذم الشبع:

قال رسول الله ﷺ: « **جاهدوا أنفسكم بالجوع والعطش، فإن الأجر في ذلك كأجر المجاهد في سبيل الله، وإنه ليس من عمل أحب إلى الله تعالى من جوع وعطش** ».
قال ابن عباس رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: « **لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه** ».

وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « **إلبسوا واشربوا وكلوا في أنصاف البطون، فإنه جزء من النبوة** ». وقال الحسن رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: « **أفضلكم منزلة عند الله تعالى أطولكم جوعاً وتفكراً وأبغضكم إلى الله تعالى كل نوام أكول شروب** ». وقال عليه الصلاة والسلام: « **إن الله تعالى يباهي الملائكة بمن قل طعامه في الدنيا يقول انظروا إلى عبدي، ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا، فتركهما لأجلي اشهدوا يا ملائكتي ما من أكلة يدعها إلا أبدلته بها درجات في الجنة** ».

وقال أبو سليمان لأن أترك لقمة من عشائي أحب إلي من قيام ليلة إلى الصبح وقد بينا أنه يجلب الرقة والانكسار ويدفع الأشر والبطر، ومن فوائده أن لا ينسى البلاء وأهله، والعذاب وكسر سائر الشهوات، وبه يستولي على النفس والشيطان فيقمعها وبه يدوم السهر ويندفع النوم.

ولذلك كان بعض الشيوخ يقف على رأس السفرة ويقول معاشر المريدين لا تأكلوا كثيراً، فتشربوا كثيراً، فترقدوا كثيراً، فتخسروا كثيراً، فبالجوع تتيسر المواظبة على العبادة فمن شبع كسل عن الطاعات، وكثرة الأكل تستدعي كثرة الاستعداد من الطلب والطبخ وغسل اليد والخلال والتردد إلى بيت الماء للاستفراغ.

حكى السري عن بعض الشيوخ أنه كان يستف سويقاً، فقيل له في ذلك فقال إني حسبت ما بين المضغ إلى الاستفاف سبعين تسبيحاً، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة.

وعلم أن من تيقن أن كل نفس جوهر لا قيمة له حاسب على تضييعه. ومن فوائد الجوع صحة النفس والبدن فإن من قل أكله قل مرضه. ومن فوائده القدرة على الإيثار ونيل الفضيلة.

بيان طريقة الرياضة في كسر شهوة النفس والبطن:

إعلم انه بعد أن يكون الطعام حلالاً كما سبق ذكره، فعليه ثلاث وظائف وهي تقدير قدر الطعام في القلة والكثرة وتقدير وقته في الإبطاء والسرعة وتعيين جنس المأكول.

الوظيفة الأولى: في تقليل الطعام وسبيله التدريج، فمن انتقل من الكثير إلى القليل دفعة واحدة فسد مزاجه، فليتدرج فيه بأن يحسب على نفسه، فإن كان يأكل كل يوم ثلاثة أرغفة مثلاً فينقص كل يوم نحواً من ثلث عشر رغيف وهو جزء من ثلاثين جزء من رغيف. ففي شهر ينقص رغيف وفي شهرين رغيفان، ولا يشق عليه ويكون هذا التدريج بحيث يبقى ويعتمد عليه وله الآن فيما يرد إليه درجات، واقتنع الصديقون في ذلك بقدر ما يقيم الحياة والعقل وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: « **حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه** ».

والدرجة الثانية: أن يرد نفسه بالرياضة في اليوم والليلة إلى نصف مد، وهو رغيف وشيء مما يكون الأربعة منه مناً، ويقرب منه عادة عمر رضي الله عنه فإنه كان يأكل سبع لقم أو تسعاً.

الدرجة الثالثة: أن يرد بالرياضة في اليوم والليلة إلى مقدار المد وهو رغيفان ونصف وهذا يزيد على ثلث البطن.

والدرجة الرابعة: أن يزيد على المد إلى المن، وهذا هو النهاية وما وراءه إسراف يكاد يدخل تحت قوله تعالى: ﴿ **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾[1] وله طريق آخر فهو أن يمد يده بعد الجوع ويمسك قبل الشبع ولا يتجاسر لكنه فيه خطر إذ لعله لا يطلع على صدق الجوع فيلتبس عليه الأمر وقد قيل إن الجوع الصادق أن لا يطلب الأدم وقيل أن لا يميز بين خبز وخبز.

واعلم أن ذلك يختلف باختلاف الأشخاص فلا يمكن تقديره بل على كل أحد أن ينظر في حق نفسه، وقال سهل لو كانت الدنيا دماً عبيطاً لكان قوت المؤمن منها حلالاً لأن أكل المؤمن بقدر الضرورة وبقدر القوام.

الوظيفة الثانية في وقت الأكل:

ومن المريدين من رد الرياضة إلى الطي لا إلى المقدار فمنهم من طوى ثلاثة أيام، ومنهم من زاد إلى الثلاثين والأربعين. وانتهى إليه جمع كثير منهم سليمان الخواص وسهل بن عبدالله وإبراهيم الخواص.

روي أن بعض العلماء الصوفية قال لراهب: من طوى أربعين يوماً عن الطعام ظهرت له قنوة من الملكوت، أي كوشف ببعض الأسرار الإلهية. وقد وقف بعض هذه الطائفة على راهب فذاكره بحاله وطمع في إسلامه فقال له الراهب: إن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وإنها معجزة لا تكون إلا لنبي صادق فقال له الصوفي: فإن طويت خمسين يوماً تترك ما أنت عليه وتدخل في دين الإسلام، قال نعم، فقعد لا يبرح إلا حيث يراه حتى طوى خمسين يوماً فقال: أزيدك إلى تمام الستين وفعل. فتعجب الراهب وقال ما ظننت أن أحداً يزيد على المسيح وكان ذلك سبب إسلامه.

وهذه درجة عظيمة لا يبلغها إلا مكاشف محمول، **شغل بمشاهدة ما قطعه عن** طبعه وعادته، واستوفى نفسه في لذته وأنساه جوعه وحاجته **فيأتيه القوت الروحاني** من عالم الغيب، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: « **أنا أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني** ».

(١) الأعراف ٣١.

الدرجة الثانية: أن يطوي يومين إلى ثلاث وذلك معتاد.

الدرجة الثالثة: الاقتصار في اليوم والليلة على أكلة واحدة وهذا هو الأقل.

وقد روى أبو سعيد الخدري أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا تغدى لم يتعش وإذا تعشى لم يتغد وقال عليه الصلاة والسلام لعائشة: «**إياك والإسراف فإن أكلتين في يوم من الإسراف**».

فصل

اعلم أن الجوع المحمود هو الذي لا يشغل عن ذكر الله تعالى، وإذا خرج عن الحد شغل إلا في حق من غلبت عليه شهوة عظيمة فيفعل ذلك لكسرها. فإن لم يكن كذلك فخير الأمور أوسطها ثم لكسر هذه الشهوة آفتان يجب التحفظ عنهما:

إحداهما: أنه ربما يأكل في الخلوة حتى لا يأكل في الجماعة وهذا هو الشرك الخفي وربما انتهى بصاحبه إلى النفاق.

والآفة الثانية: أن يحب أن يعرف بقلة الأكل والعفة فقد ترك آفة سهلة وارتكب امراً فوق ذلك وهو الجاه والشهرة.

قال أبو سليمان: إذا قدمت إليك شهوة وقد كنت تاركها فأصب منها شيئاً يسيراً، ولا تعط نفسك مناها فتكون قد اسقطت عن نفسك الشهوة وقد نقصت على نفسك إذ لم تعطها من شهوتها ماتتهنى به فلذلك يكون إسقاطاً للشهوة وعصياناً للنفس.

وقال جعفر بن محمد الصادق إذا قدمت إلي شهوة نظرت إلى نفسي، فإن أظهرت شهوتها لها أطعمتها منها وكان ذلك أفضل من منعها، فإن خفت شهوتها وأظهرت العروض عنها عاقبتها بالترك ولم أنلها منها شيئاً، وهذا طريق في عقوبة النفس على هذه الشهوة.

واعلم أن من ترك شهوة الطعام ووقع في الرياء كان كمن هرب من العقرب وفزع إلى الحية.

القسم الثاني من هذا الباب في كسر شهوة الفرج:

اعلم أن لذة الوقاع سلطت على الانسان لفائدتين:

إحداهما: أن يدرك لذته فيقيس عليها لذة الآخرة إذ هي أقوى لذات الأجساد إن دامت. كما ان النار وألمها أعظم آلام الجسد.

والفائدة الثانية: بقاء النسل ودوام الوجود ولكن فيها بعد هاتين الفائدتين من الآفات ما يهلك الدين والدنيا، إن لم تضبط ولم تقهر ولم ترد إلى حد الاعتدال وقد قيل في معنى قوله تعالى: ﴿**ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به**﴾[1] معناه الغلمة.

وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿**ومن شر غاسق إذا وقب**﴾[2] هو قيام الذكر. وقد أسنده بعض الرواة إلى رسول الله ﷺ.

وكان عليه السلام يقول: «**أعوذ بك من شر سمعي وبصري وقلبي ومني**» وقال: «**النساء حبائل الشيطان ولولا هذه الشهوة لما كانت كذلك**».

وقد روي أن موسى عليه السلام كان جالساً في بعض مجالسه إذ أقبل إبليس وعليه برنس يتلون فيه ألواناً، فلما دنا منه خلع البرنس فوضعه ثم أتاه فقال السلام عليك فقال موسى عليه السلام من أنت فقال أنا إبليس، قال فلا حياك الله ما جاء بك، قال جئت لأسلم عليك لمنزلتك من الله تعالى ومكانك منه قال فما الذي رأيت عليك قال به اختطف قلوب بني آدم، قال فما الذي إذا صنعه الإنسان استحوذت عليه، قال إذا أعجبته نفسه واستكثر عمله ونسي ذنوبه. وأحذرك ثلاثاً لا تخل بامرأة لا تحل لك، فإنه ما خلا رجل بامرأة لا تحل له إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أفتنه بها. ولا تعاهد الله عهداً إلا وفيت به، ولا تخرجن صدقة إلا أمضيتها فإنه ما أخرج رجل صدقة فلم يمضها إلا كنت صاحبه دون أصحابي حتى أحول بينه وبين الوفاء بها. ثم ولى وهو يقول: يا ويلتاه علم موسى ما أخدع به بني آدم.

وقد ينتهي الأمر بصاحب الشهوة إلى أن يعشق محلاً مخصوصاً فلا يريد قضاء الوطر إلا منه وهو زيادة في البهيمية وهو مذموم. فالاسراف أبداً مذموم وهو غلبة الشهوة إلى حد يضيع العقل وعدمها بالكلية في حق العنين أيضاً مذموم وخير الأمور أوساطها ومهما زادت على الحد فاكسرها بالجوع أو بالنكاح قال رسول الله ﷺ: «**معاشر الشباب عليكم بالباءة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإن الصوم له وجاء**».

(١) البقرة ٢٨٦. (٢) الفلق ٣.

بيان ما على المريدين في ترك التزوج وفعله :

اعلم أن المريد لا ينبغي أن يشغل نفسه في ابتداء أمره بالتزويج ، فإن ذلك يمنعه عن الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى كما سبق،وكذلك قال أبو سليمان الداراني من تزوج فقد ركن إلى الدنيا وقال ما رأيت مريداً تزوج فثبت على ما كان .

واعلم أنك إن قست نفسك برسول الله ﷺ فقد أخطأت الطريق فإنه عليه السلام كان لا تشغله الدنيا والآخرة وما فيهما ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ما زاغ البصر وما طغى﴾[1] فإنه كان لا يشغله عن الله شاغل . فإذاً مهما غلبت عليك الشهوة ، فعليك بالصوم والجوع والعطش والسهر . والغالب أن تندفع بذلك فإن كانت خارجة عن الحد على خلاف المعتاد وليس يقدر على حفظ العين فقد وجب بحكم خصوص الحال النكاح حتى يستريح . وإلا فمن لا يقدر على حفظ العين لا يقدر على حفظ القلب وإذا تفرق همه فلا فائدة في عزوبته بل يخاف عليه ما قال عيسى عليه السلام : إياكم والنظرة فإنها تزرع في القلب شهوة وكفى بها فتنة .

قال سعيد بن جبير إنما جاءت فتنة داود من أجل النظر وقال داود لابنه عليه السلام : يا بني امش خلف الاسد والأسود ولا تمش خلف المرأة . وقيل ليحيى بن زكريا ما بدو الزنا؟ قال عليه السلام: النظر والتمني إن لم تطالبه نفسه مطالبة لا يقدر على كسرها فله أن لا ينكح .

وقد روي أن محمد بن سليمان ملك غلة كل يوم ثمانين ألف درهم ، ثم كتب لأهل البصرة وعلمائهم في امرأة يتزوجها فأجمعوا كلهم على رابعة العدوية ، فكتب إليها : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الله تعالى ملكني من غلة الدنيا في كل يوم ثمانين ألف درهم وليس يمضى الأيام والليالي حتى أتمها مائة ألف ، وأنا أصير لك مثلها ومثلها فأجيبيني .

فكتبت إليه : بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فإن الزهد في الدنيا راحة البدن ، والرغبة فيها تورث الغم والحزن ، فإذا أتاك كتابي هذا فهيىء زادك وقدم لمعادك ، وكن وصي نفسك ولا تجعل الرجال أوصياءك فيقسموا تراثك وصم الدهر، واجعل

(١) النجم ١٧.

فطرك الموت وأما أنا فلو أن الله عز وجل خولني أمثال ما خولك ، وأضعافه ما سرني ذلك أن اشتغل عن الله عز وجل طرفة عين فتبين بهذا أن ما يشغل عن الله تعالى لا سبيل إليه .

فصـــل

في بيان فضيلة من يخالف الشهوة

اعلم أن من العصمة أن يقدر على مخالفة الشهوة مع القدرة فذلك أفضل وهو درجة الصديقين . ولذلك قال عليه الصلاة والسلام : «**من عشق فعف فكتم فمات فهو شهيد**» وقال ﷺ : «**سبعة يظلهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله**» وعد منهم رجلاً دعته امرأة ذات حسب وجمال إلى نفسها فقال إني أخاف الله رب العالمين .

وروي أن سليمان بن يسار كان من أحسن الناس وجهاً ، فدخلت عليه امرأة فسألته نفسه فامتنع عنها وخرج هارباً عن منزله وتركها فيه ، قال سليمان فرأيت في المنام يوسف ﷺ وكأني أقول له أنت يوسف قال : نعم أنا يوسف الذي هممت ، وأنت سليمان الذي لم تهم ، والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

***

الباب الرابع والعشرون

في آفات اللسان

اعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة من خطره إلا بالصمت. فلذلك مدح رسول الله ﷺ الصمت، وحث عليه فقال من صمت نجا. وقال الصمت حكم وقليل فاعله وقال ﷺ: **«من يتكفل لي ما بين لحييه ورجليه أتكفل له بالجنة»**.

وروي أن معاذ بن جبل قال يا رسول الله أوصني قال: **«اعبد الله كأنك تراه، وعد نفسك في الموتى، وإن شئت أنبأتك بما هو ملك لك من هذا كله وأشار بيده إلى لسانه ﷺ»**. وعن الصديق رضي الله عنه أنه كان يضع حجراً في فيه يمنع به نفسه عن الكلام وكان يشير إلى لسانه ويقول هذا الذي أوردني الموارد.

وقال ابن مسعود والله الذي لا إله إلا هو ما من شيء أحوج إلى طول سجن من لسان ونحن الآن نبين آفات اللسان ونبدأ بأخف الآفات ثم نترقى.

الآفة الأولى: الكلام فيما لا يعنيك: إعلم أنك إذا تكلمت بما لا يعنيك فقد ضيعت زمانك وتعرضت به للحساب وقد استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير فإنك لو ذكرت الله بدله أو سكت أو اشتغلت بالفكر لكنت تنال به معالي الدرجات.

وقال عليه الصلاة والسلام: **«من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»**. وقال أنس استشهد غلام منا يوم أحد فوجد على بطنه حجر مربوط من الجوع فمسحت أمه التراب عن وجهه وقالت هنيئاً لك الجنة يا بني، فقال النبي ﷺ: **«فما يدريك لعله كان يتكلم فيما لا يعنيه ويمنع ما لا يضره»**.

واعلم أن الكلام فيما لا يعني أن تجلس فتحكي من أحوالك التي لحقتك في أسفارك من الجبال والبراري التي رأيتها مما لا كذب فيه.

الآفة الثانية: فضول الكرم: وهو أن تكرر ما لا فائدة في تكراره وتقرر منه زيادة الألفاظ المستغنى عنها قال عطاء بن أبي رباح: إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول والكلام.

ومن هذا الجنس أن تقول اللهم آخز هذا الكلب مثلاً قال مطرف ليعظم جلال الله في قلوبكم فلا تذكروه عند مثل قول أحدكم للكلب والحمار وما أشبهه، اللهم اخزه وفضول الكلام لا تنحصر.

قال عليه السلام: **«طوبى لمن أمسك الفضل من لسانه وأنفق الفضل من ماله»** قال بلال بن الحرث قال رسول الله ﷺ: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله تعالى له بها رضوانه إلى يوم يلقاه، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله تعالى ما يظن أن تبلغ به ما بلغت فيكتب الله تعالى عليه بها سخطه إلى يوم القيامة»** قال وكان علقمة يقول: كم من كلام وحديث قد منعنيه حديث بلال بن الحرث.

وقال عليه السلام: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة يضحك بها جلساءه يهوي بها أبعد من الثريا»**.

الآفة الثالثة: الخوض في الباطل والمعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق. وإليه الإشارة بقوله تعالى: **﴿وكنا نخوض مع الخائضين﴾** فقد ذكرنا حديث بلال بن الحرث في الآفة الثانية.

الآفة الرابعة: المراء والمجادلة والجدال في ذكر محظورات سبق وجودها أو يدبر في التواصل إليها وذلك منهي عنه قال ﷺ: **«لا تمار أخاك ولا تمازحه ولا تعده موعداً فتخلفه»** وقال عليه السلام: **«من ترك المراء وهو محق بني له بيت في أعلى الجنة ومن ترك المراء وهو مبطل بني له بيت في ربض الجنة»**.

الآفة الخامسة: الخصومة وهي أيضاً مذمومة وهي أن تخاصم إنساناً لتستوفي حقاً أو مالاً. قالت عائشة رضي الله عنها قال عليه السلام: **«أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم»** وقال أبو هريرة قال ﷺ: **«من جادل في خصومة بغير علم لم يزل في سخط الله حتى ينزع»**.

الآفة السادسة: التشدق في الكلام بتكلف السجع والتصنع فيه قال ﷺ: «**أنا وأتقياء أمتي برآء من التكلف**» وقالت فاطمة رضي الله عنها قال ﷺ: «**شرار أمتي الذين غذوا بالنعيم يأكلون أنواع الطعام ويلبسون ألوان الثياب ويتشدقون في الكلام**».

الآفة السابعة: السب والفحش وبذاءة اللسان وهو مذموم قال ﷺ: «**إياكم والفحش فإن الله لا يحب الفحش ولا التفحش**» وهي لمن كان يسب قتلى بدر من المشركين. وقال ﷺ: «**البذاء، أي الكلام الفحش، والبيان شعبتان من النفاق**».

الآفة الثامنة: اللعن إما لحيوان أو لجماد أو لإنسان. قال ﷺ: «**المؤمن ليس بلعان**» وقال حذيفة رضي الله عنه ما تلا عن قوم إلا حق عليهم القول. وعن عائشة رضي الله عنها قالت سمع رسول الله ﷺ أبا بكر رضي الله عنه وهو يلعن بعض رقيقه فالتفت إليه وقال يا أبا بكر: «**صديقين ولعانين كلا ورب الكعبة وأعاد مرتين أو ثلاثاً**» فأعتق أبو بكر يومئذ بعض رقيقه وجاء إلى النبي ﷺ وقال لا أعود.

واعلم أن من ثبت بالشرع أنه ملعون كأبي جهل وفرعون فلا بأس بلعنه، وإن تركه أيضاً لا بأس به. أما يهودي بعينه فلعنه فيه خطر لأنه يمكن أن يكون ممن قدر الله تعالى عليه أن يرزق الإسلام، فهو فيه خطر إلا أن يقيد ويقول إن مات على ما هو عليه وعلى الجملة فترك اللعن على إبليس لا بأس به فضلاً عن غيره فالأولى ترك اللعن وفطام اللسان عنه.

الآفة التاسعة الغناء والشعر: أما الغناء فقد سبق في باب السماع ذكره. وأما الشعر فكلام حسنه حسن وقبيحه قبيح إلا أن التحري له مذموم وقال ﷺ: «**لأن يمتلىء بطن أحدكم قيحاً خير له من أن يمتلىء شعراً**». والمحذور منه المداومة وقطع الزمان وإلا فقد ورد ما يدل على جوازه.

الآفة العاشرة: المزاح وأصله منهي عنه مذموم إلا قدراً يسيراً قال ﷺ: لا تمار أخاك ولا تمازحه. واعلم أن المنهي عنه من المزاح الإفراط إذ هو يورث كثرة الضحك وكثرة الضحك تميت القلب وقال ﷺ: «**إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً**».

روي أنه ﷺ قال لصهيب: «**تأكل التمر وأنت رمد فقال آكل بالشق الآخر فتبسم رسول الله ﷺ**».

الآفة الحادية عشرة: السخرية والاستهزاء وهو محرم قال الله تعالى: ﴿**لا يسخر قوم من قوم**﴾[1] ومعناه الاستحقار والاستهانة والتنبيه على العيوب وربما كان بالمحاكاة في الأفعال والأقوال.

وقال ﷺ: «**إن المستهزئين بالناس يفتح لأحدهم باب من الجنة فيقال هلم هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا جاء أغلق دونه، ثم يفتح له باب آخر فيقال هلم فيجيء بكربه وغمه فإذا أتاه أغلق دونه فما يزال كذلك حتى إن الرجل ليفتح له الباب فيقال هلم هلم فما يأتيه**».

قال معاذ بن جبل قال رسول الله ﷺ: «**من عير أخاه بذنب قد تاب منه لم يمت حتى يعمله**».

الآفة الثانية عشرة: إفشاء السر وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق الأصدقاء. وقال ﷺ: «**الحديث بينكم أمانة**».

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب وذلك منهي عنه وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾[2] وقال ﷺ: «**العدة عطية**».

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين وهو من قبائح الذنوب. روي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يخطب بعد وفاة رسول الله ﷺ فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي هذا ثم بكى فقال: «**إياكم والكذب فإنه منبع الفجور وهما في النار**» وقال ﷺ: «**إن الكذب باب من أبواب النفاق**». وقال بعض السلف إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب وقال إن في المعاريض ما يكفي الرجل عن الكذب.

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة فنذكر أول ما ورد من الشرع في ذمها قال الله عز وجل: ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً**﴾[3] وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ: «**لا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تناجشوا ولا تدابروا ولا يغتب بعضكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً**». وقال ﷺ: «**إياكم والغيبة فإن الغيبة أشد من الزنا لأن الرجل إذا زنى وتاب فيتوب الله عليه وإن صاحب الغيبة لا يغفر له حتى يغفر له صاحبه**».

(١) الحجرات ١١. (٢) المائدة ١. (٣) الحجرات ١٢.

قال أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : **«مررت ليلة أسري بي على قوم يخمشون وجوههم بأظافيرهم فقلت يا جبريل من هؤلاء ؟ فقال هؤلاء الذين يغتابون الناس ويقعون في أعراضهم»**.

وأوحى الله تعالى إلى موسى ﷺ فقال: من مات تائباً من الغيبة فهو آخر من يدخل الجنة ومن مات مصراً عليها فهو أول من يدخل النار، وحد الغيبة أن تذكر إنساناً بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه أو نسبه أو فعله أو قوله أو دينه أو دنياه حتى في ثوبه وداره ودابته.

واعلم أن التعريض والتفهيم فيها كالتصريح لا فرق بين الحركة المفهمة والقول الصريح والمستمع فيه شريك القائل والاصغاء والتعجب مما يذكره استخراج الغيبة وهو إعانة وشركة، وقال أبو الدرداء قال رسول الله ﷺ من رد عن عرض أخيه بالغيبة كان حقاً على الله تعالى أن يرد عن عرضه يوم القيامة.

بيان ما يرخص في الغيبة:

وذلك أن يكون له غرض صحيح في الشرع وذلك ستة أشياء:

الأول: التظلم كمن تظلم من قاض ظلمه، أو أخذ الرشوة منه أو غيره، فهو جائز مندوب إليه.

الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصلاح.

الثالث: الاستفتاء بأن يقول ظلمني أبي أو أخي في كذا فكيف السبيل الى الخلاص. والتعريض في مثل هذا أسلم.

الرابع: تحذير المسلمين من الشر. قال رسول الله ﷺ : **«اذكر الفاجر بما فيه من مساويه يحذره الناس»**.

الخامس: أن يعرف باسم كالأعرج والأعمش فذلك لا حرج فيه.

السادس: أن يجاهر بالفسق كالمخنث وصاحب الماخور والمجاهر بشرب الخمر قال رسول الله ﷺ : **«من ألقى جلباب الحياء عن وجهه فلا غيبة له»**.

بيان كفارة الغيبة:

اعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج من

حق الله تعالى ثم يستحل من المغتاب ليحله فيخرج من مظلمته وليكن ذلك باظهار حزن وتندم. وقال الحسن يكفيه الاستغفار دون الاستحلال.

وروى أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«كفارة من اغتبت أن تستغفر له»** وقال مجاهد كفارة أكلك لحم أخيك أن تثني عليه وتدعو له بخير والأولى الاستحلال باظهار التندم.

الآفة السادسة عشرة: النميمة قال الله تعالى: **﴿هماز مشاء بنميم﴾**(١).

قال عبد الله بن المبارك: ولد الزنا لا يكتم الحديث. وأشار به إلى أن كل من لم يكتم الحديث ومشى بالنميمة دل على أنه ولد الزنا استنباطاً من قوله تعالى: **﴿عتلّ بعد ذلك زنيم﴾**(٢)، والزنيم هو الدعي وقال تعالى: **﴿ويل لكل همزة لمزة﴾**(٣)، الهمزة هو النمام وقال حمالة الحطب قيل كانت نمامة حمالة للحديث.

وقال الله تعالى: **﴿فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً﴾**(٤). وفي حديث: **«لا يدخل الجنة قتات»** والقتات هو النمام، وفيه أحاديث كثيرة، وحد النميمة كشف ما يكره كشفه سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه أو ثالث. وسواء كان الكشف بالقول أو بالكتابة أو بالرمز والاشارة فحقيقة النميمة إذاً إفشاء السر وهتك الستر.

الآفة السابعة عشرة: كلام ذي اللسانين، وذلك من يتردد بين المتعادين ويكلم كل واحد بما يوافقه وذلك عين النفاق. قال عمار بن ياسر. قال النبي ﷺ : **«من كان له وجهان في الدنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة»**.

وروى أبو هريرة أنه عليه السلام قال: **«تجدون من شر عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء، وهؤلاء بحديث هؤلاء، وفي لفظ، الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»**.

الآفة الثامنة عشرة: المدح فهو منهي عنه في بعض المواضع وأما الذم فهو الغيبة

---

(١) القلم ١١.
(٢) القلم ١٣.
(٣) الهمزة ١.
(٤) التحريم ١٠.

والوقيعة، وقد سبق حكمها والمدح يدخله ستة آفات، أربع في المادح واثنان في الممدوح.

أما المادح فهو أن يفرط فينتهي إلى الكذب. **الثانية** أن يدخله الرياء فإنه بالمدح مظهر للحب. **الثالثة** أنه قد يقول ما لا يتحقق ولم يطلع عليه، **الرابعة** أن يفرح الممدوح به وهو ظالم أو فاسق وذلك غير جائز. قال ﷺ. **«إن الله تعالى يغضب إذا مدح الفاسق»**.

وأما الممدوح فيضره من وجهين أحدهما أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً. **الثانية** إذا أثنى عليه بالخير رضي هو عن نفسه بذلك فنسي نقصان نفسه فيقل تشميره للخير، ولهذا قال ﷺ: «**قطعت عنق صاحبك، ويحك لو سمعها ما أفلح**».

الآفة التاسعة عشرة: في الغفلة عن دقائق الخطأ في فحوى الكلام لا سيما فيما يتعلق بالله وبصفاته، مثاله قال حذيفة قال رسول الله ﷺ: **«لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت»** وذلك لأن العطف المطلق يوهم التشريك. وقال عليه السلام: «**لا تقولوا للمنافق سيدنا فإنه إن يكن سيدكم فقد أسخطتم ربكم**».

وقال ﷺ: «**من قال أنا بريء من الإسلام فإن كان صادقاً فهو كما قال وإن كان كاذباً فليس يرجع إلى الإسلام سالماً**».

الآفة العشرون: سؤال العوام عن صفات الله تعالى وعن كلامه وأنها قديمة أو حادثة وهو منهم فضول بل حقهم الاشتغال بالعمل دون العلم، لأن العوام إذا خاضوا فيه ربما هو كفر ولا يشعرون بذلك وسؤالهم عن ذلك كسؤال الساسة عن أسرار الملوك.

وفي الحديث: **«نهى رسول الله ﷺ عن القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»** وعلى الجملة اشتغال الناس، بأن الحروف قديمة أو حادثة كمن كتب إليه الملك بكتاب رسم فيه أموراً فلم يشتغل بشيء منه وضيع زمانه في أن قرطاس الكتاب قديم أو حادث فيستحق العقوبة منه لا محالة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم.

الباب الخامس والعشرون

في آفة الغضب والحقد والحسد

اعلم أن الغضب نار مستكنة في القلب استكنان الجمر تحت الرماد تستخرجها الكبر من الدفين ولعله من النار التي خلق منها الشيطان.

بيان ذم الغضب:

روى أبو هريرة أن رجلاً قال يا رسول الله مرني بعمل وأقلل قال: **«لا تغضب ثم أعاد عليه فقال لا تغضب»** وعن ابن مسعود قال النبي ﷺ: **«ما تعدون الصرعة فيكم؟ قلنا الذي لا يصرعه الرجال قال ليس ذلك ولكن الذي يملك نفسه عند الغضب»** وقال عليه السلام: **«ما غضب أحد إلا أشفى على جهنم»**.

بيان حقيقة الغضب:

اعلم أن الآدمي لما كان معرضاً لأن يقصد بالاهلاك، وكان بقاؤه مقصوداً أعطي الغضب وهو قوة حمية تثور من باطنه فخلق الله الغضب، وغرزها في باطن الانسان فإذا قصد اشتعل نار الغضب وثار ثوراناً يغلي بها دم القلب وينتشر في العروق وترتفع إلى أعلى البدن كما ترتفع النار أو الماء الذي يغلي.

وكذلك ينصب إلى البشرة فتحمر، فإذا كان الغضب على من دونه واستشعر الخوف والبأس تولد منه انقباض الدم وصار حزناً، واصفر لونه، وإن كان على نظيره تردد الدم بين انقباض وانبساط فيصفر تارة ويحمر اخرى ويضطرب، وعلى الجملة فمحل الغضب القلب ومعناه غليان دم القلب لطلب الانتقام.

وللناس فيه ثلاث درجات أولها التفريط وهو فقد هذه القوة أو ضعفها وذلك عدم الحمية وهو مذموم، وهو المراد بقول الشافعي: من استغضب ولم يغضب فهو

حمار. والمطلوب منه الاعتدال[1] وهو الذي وصف الله تعالى به الصحابة رضي الله عنهم: ﴿**أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾[2] والثالث هو الإفراط وهو أن يخرج من الحد فيغلب صاحبه بحيث لا يدخل تحت سياسة العقل وإشارة الشرع فيصير المرء معه كالمضطر وهذا مذموم. ويرى ظاهره يتغير ويقبح وصورة باطنه أقبح.

وروي أن عائشة رضي الله عنها غضبت مرة فقال ﷺ: «**جاء شيطانك فقالت ومالك شيطان، قال بلى ولكن دعوت الله فأعانني عليه فأسلم فلا يأمر إلا بالخير**» وقال علي رضي الله عنه كان ﷺ لا يغضب للدنيا فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد، لم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له.

واعلم أن الغضب وإن لم يمكن إزالته بالكلية فيمكن أن يقلل ويجاهد خصوصاً إذا لم يكن في ضروريات المعيشة وذلك بأن يعرف نفسه وخستها ويعلم أنه لا ينبغي لها الاستعلاء مع تلك الخسة والدناءة ونحن نبين ذلك.

بيان علاج الغضب عند هيجانه وذلك بأمور:

منها أن يعلم ثواب كظم الغيظ كما سبق ثم يخوف نفسه بعقاب الله ويعلم أنه تعالى أقدر عليه منه على غيره.

وأن يحذر نفسه عاقبة الانتقام فإن العدو أيضاً يتشمر لإيذائه ويصير ذلك عداوة طويلة وأن يتفكر في قبح صورة غيره عند الغضب وتعبيس نفسه عليه ويعلم أنه يشبه السبع الضاري إن استعمله وإن استعمل الحلم فلا يشبه إلا بالانبياء والأولياء.

وإذا تأمل علم أن غضبه لجريان الأمر على وفق مشيئة الله تعالى، لا على وفق مراده، ولذلك ورد في الخبر أنه سبب غضب الله تعالى فإذا علمت هذه الأمور فعليك أن تقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. هكذا أمر رسول الله ﷺ أن يقال عند الغضب وكان عليه السلام إذا غضبت عائشة أخذ بأنفها وقال: «**يا عويش قولي اللهم رب محمد اغفر لي ذنبي وأذهب غيظ قلبي وأجرني من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن**» فليقل ذلك وليجلس إن كان قائماً وليضطجع إن كان جالساً.

(١) وهو الدرجة الثانية. (٢) الفتح ٢٩.

وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الغضب جمر يتوقد في القلب ألم تروا إلى انتفاخ أوداجه وحمرة عينيه فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً فإن كان قائماً فليجلس، وإن كان جالساً فلينم فإن لم يزل ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو ليغتسل فإن النار لا يطفئها إلا الماء**».

بيان فضيلة الحلم:

اعلم أن الحلم أفضل من الكظم، وهو التحلم وتكلف الحلم والحلم الطبيعي دلالة كمال العقل. وانكسار قوة الغضب تحت سياسة العقل ولعل ابتداءه بالتحلم ثم يصير ديدناً وعادة قال النبي ﷺ: «**إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحرى الخير يعطه ومن يتوق الشر يوقه**».

وقال ﷺ: «**اطلبوا العلم واطلبوا مع العلم السكينة والحلم**» ليبينوا لمن تعلّمون منه ولمن يتعلّمون منكم، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فيغلب جهلكم علمكم» وقال في دعائه «**اللهم اغنني بالعلم وزيني بالحلم وأكرمني بالتقوى وجملني بالعافية**» وقال ﷺ: «**ابتغوا الرفعة عند الله قالوا وما هي يا رسول الله قال: تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتحلم عمن جهل عليك**».

وقال الله تعالى: ﴿**وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً**﴾[1] قال العلماء إن جهل عليهم لا يجهلون. وإذا سبك إنسان واغتابك أو عيرك فعليك بالحلم ففيه النجاة في الدارين. أما في الحال فإنه يزاد في احترامه وهو يزيد في الآخرة جزيل الثواب. وقد قال ﷺ: «**إن امرؤ عيرك بما فيك فلا تعيره بما فيه**».

بيان فضيلة العفو:

وهو أن يستحق حقاً فيسقطه كالعفو عن القصاص أو المال والغرامة، قال الله تعالى: ﴿**خذ العفو**﴾[1] الآية وقال ﴿**وان تعفوا أقرب للتقوى**﴾. وقال ﷺ: «**ثلاث والذي نفسي بيده إن كنت حالفاً عليهن، ما نقصت صدقة من مال فتصدقوا، ولا عفا أحد عن مظلمة يبتغي بها وجه الله إلا زاده الله عزاً يوم القيامة، ولا فتح رجل باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر**».

وقال ﷺ: «**التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة فتواضعوا يرفعكم الله والعفو لا يزيد**

(١) الفرقان ٦٣. (١) الاعراف ١٩٩.

العبد إلا عزاً فاعفوا يعزكم الله والصدقة لا تزيد إلا كثرة فتصدقوا يرحمكم الله»
وقال ﷺ : «من دعا على من ظلمه فقد انتصر ».

بيان فضيلة الرفق :

اعلم أن الرفق محمود وهو ثمرة حسن الخلق ويضاده العنف والحدة قال ﷺ لعائشة : «إنه من أعطي حظه من الرفق أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة ومن حرم حظه من الرفق حرم حظه من خير الدنيا والآخرة» وقال ﷺ : «إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق».

بيان ذم الحسد :

وهو من نتائج الحقد، والحقد من نتائج الغضب، قال ﷺ : « الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب». وحقيقته أنه يكره نعمة الله على أخيه فيحب زوالها عنه ، فإن كان لا يكره ذلك لأخيه ولا يريد زواله ولكن يريد لنفسه مثل ذلك فيسمى هذا غبطة. قال ﷺ : «المؤمن يغبط والمنافق يحسد» وقال الله تعالى : ﴿ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً﴾(١) فأخبر بأن حبهم زوال نعمة الإيمان حسداً منهم، وقد قال الله تعالى : ﴿ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض﴾(٢) والمراد به النهي عن تمني انتقال النعمة إليه بعينها أما أن يتمنى أن ينعم الله تعالى عليه بمثله فذلك غير مذموم وإن كان في دين فهو محمود.

واعلم أن للحسد أسباباً كثيرة وهي العداوة والتعزز والبغض والكبر والعجب والخوف من فوات المقاصد المحبوبة، وحب الرياسة وخبث النفس وبخلها، وكلها مذمومة وعلاجه انك تعلم أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والآخرة. أما في الدنيا فلأنك تتأذى بذلك وهو ضجيعك لا يفارقك ليلاً ونهاراً وأما في الدين فهو تسخط لنعمة الله تعالى وهو ثواب له وذنب مكتوب عليك. فإذا علمت ذلك ولم تكن صديقاً لعدوك فلا بد أن تتكلف الإقلاع عن الحسد.

وقد روى الحسن مرفوعاً وموقوفاً أنه قال ثلاثة في المؤمن له منهن مخرج ومخرجه من الحسد أن لا يبغي والحمد لله وحده.

(١) البقرة ١٠٩. (٢) النساء ٣٢.

الباب السادس والعشرون

في ذم الدنيا

اعلم أن الدنيا عدوة لله تعالى وعدوة لأوليائه، وعدوة لأعدائه، فعداوتها لله تعالى لأنها قطعت الطريق على أوليائه ولذلك لم ينظر الله إليها مذ خلقها، وأما عداوتها لأولياء الله تعالى لأنها تزينت لهم بزينتها وغرتهم بزهرتها ونضارتها حتى تجرعوا مرارة الصبر في مقاطعتها. وأما عداوتها لأعداء الله فلاستدراجها لهم بمكرها وبكيدها، واقتنصتهم بشبكتها حتى وثقوا بها وعولوا عليها فخذلتهم أحوج ما كانوا إليها.

بيان ذم الدنيا :

اعلم أن الأنبياء بعثوا لدعوة الناس من الدنيا إلى الآخرة. وفيه أنزلت الكتب فأكثر الآيات دالة عليه وقد روي أنه ﷺ لما مر على شاة ميتة قال : « أترون هذه الشاة هينة على صاحبها؟ قالوا نعم قال والذي نفسي بيده إن الدنيا أهون على الله عز وجل من هذه على صاحبها ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة من ماء ».

وقال ﷺ : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » وقال ﷺ : « الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ما كان لله منها » وقال أبو موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ : « من أحب دنياه أضر بآخرته ومن أحب آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى » وقال ﷺ : « حب الدنيا رأس كل خطيئة ».

وقال زيد بن أرقم : كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه فدعا بشراب، فأتي بماء وعسل؛ فلما أدناه من فيه بكى حتى أبكى أصحابه فسكتوا وما سكت، ثم عاد وبكى حتى ظنوا أنهم لم يقدروا على مسألته، قال ثم مسح عينيه فقالوا يا خليفة

رسول الله ما أبكاك؟ قال: كنت مع رسول الله ﷺ فرأيته يدفع عن نفسه شيئاً ولم أرى معه أحداً، فقلت يا رسول الله ما الذي تدفع عن نفسك فقال « هذه الدنيا تمثلت لي فقلت لها إليك عني ثم رجعت فقالت إنك إن خلصت وأفلت مني لم يفلت مني من بعدك ».

وقال ﷺ: **« يا عجباً كل العجب للمصدق بدار الخلود وهو يسعى لدار الغرور »** وقال ﷺ: **« إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون إن بني إسرائيل لما بسطت لهم الدنيا ومهدت تاهوا في الحلية والنساء والطيب والثياب »** وقال عيسى ﷺ: لا تتخذوا الدنيا رباً فتتخذكم الدنيا عبيداً أكنزوا كنزكم عند من لا يضيعه وإن صاحب الدنيا يخاف عليها الآفة وصاحب كنز الله لا يخاف عليه الآفة.

وقال ﷺ في بعض خطبه: **« المؤمن بين مخافتين، بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه، وبين أجل قد بقي لا يدري ما الله قاض فيه، فليتزود العبد من نفسه لنفسه ومن دنياه لآخرته ومن حياته لموته ومن شبابه لهرمه، فإن الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة، والذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعتب. ولا بعد الدنيا دار إلا الجنة أو النار »** وقال ﷺ: **« إن حقاً على الله أن لا يرفع شيئاً من الدنيا إلا وضعه »** وقال عيسى ﷺ: من ذا الذي يبني على موج البحر داراً وتلكم الدنيا فلا تتخذوها قراراً. وقال أيضاً: يا معشر الحواريين أرضوا بدني الدنيا مع سلامة الدين كما رضي أهل الدنيا بدني الدين مع سلامة الدنيا.

وقال ابن عباس: إن الله تعالى جعل الدنيا ثلاثة أجزاء: جزء للمؤمن وجزء للمنافق، وجزء للكافر، فالمؤمن يتزود والمنافق يتزين والكافر يتمتع وقيل:

يا خاطب الدنيا إلى نفسه ... تنح عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غدارة ... قريبة العرس من المأتم

وقيل:

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت ... له عن عدو في ثياب صديق

وقيل:

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا
أفنى القرون التي كانت منعمة ... ذكر الليالي إقبالاً وإدبارا

وقال بعض الحكماء الأيام سهام، والناس أغراض، والدهر يرميك كل يوم بسهامه، يتحزمك بلياليه وأيامه حتى يستغرق جميع أجزائك فكيف تكون بقاء سلامتك مع وقوع الأيام بك، وسرعة الليالي في بدنك لو كشف لك عما أحدث فيك من النقص، لاستوحشت من كل يوم يأتي عليك واستثقلت مر الساعات بك، ولكن تدبير الله فوق تدبير الاعتبار، وبالسلو عن غوائل الدنيا وجد طعم لذاتها وإنها لأمر من العلقم إذا عجنها الحكيم وقد أغنت الواصف لعيوبها بظاهر أفعالها.

وقال آخر: الدنيا من حيث الاغترار بخيالاتها ثم الإفلاس منها بعد إفلاتها تشبه خيالات المنام وأضغاث الأحلام. وقال ﷺ: **« الدنيا حلم وأهلها عليها مجازون ومعاقبون وهالكون »**.

وكتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه إلى سلمان الفارسي بمثالها فقال: مثل الدنيا مثل الحية يلين مسها ويقتل سمها فأعرض عما يعجبك منها لقلة ما يصحبك منها، وضع عنك همومها بما أيقنت من فراقها، وكن أسر ما تكون فيها أحذر ما تكون لها، فإن صاحبها كلما اطمأن منها إلى سرور أشخصه عنه بمكروه والسلام. وقال ﷺ: **«إنما مثل صاحب الدنيا كمثل الماشي في الماء هل يستطيع الذي يمشي في الماء أن لا تبتل قدماه»**. وقال: **« ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم فلينظر ما يرجع إليه »**.

بيان حقيقة الدنيا وماهيتها:

إعلم أن الدنيا والآخرة عبارتان عن حالتين لك والقريب الداني دنياك وهو كل ما قبل الموت والمتراخي المتأخر يسمى آخرة وهي كل ما بعد الموت.

فأما الذي يصحبك من الدنيا بعد الموت من العلم والعمل فذلك معدود من الآخرة وإن كان من حيث الصورة في هذا العالم كما قال ﷺ: **« حبب إلي من دنياكم ثلاث: الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة»** عد الصلاة من الدنيا وملاذها لدخول حركاتها في الحس والمشاهدة الظاهرة.

والقسم الذي يقابل هذا القسم، كل ما فيه لذة عاجلة لا ثمرة لها بعد الموت كالمعاصي والمباحات الزائدة على الحاجات.

القسم الثالث: متوسط بينهما، وهو كل حظ في العاجل يعين على أعمال الآخرة، كقدر الحاجة من المطعم والمشرب والملبس والمنكح، وذلك ليس من الدنيا كالقسم الأول، ويجمع هذه الأقسام قول بعضهم دنياك ما شغلك عن الله تعالى.

وقد جمع الله مجامع الهوى في خمسة أمور في قوله: ﴿ **إنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد** ﴾(١) والأعيان التي تحصل هذه الخمسة سبعة يجمعها قوله تعالى: ﴿ **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾(٢).

واعلم أن مثال العبد في نسيان نفسه ومآبه، مثال الحاج الذي يقف في منازل الطريق، ولا يزال يعلف الناقة ويتعهدها وينظفها ويكسوها ألوان الثياب، ويحمل إليها أنواع الحشيش ويبرد لها الماء بالثلج، حتى تفوته القافلة وهو غافل عن الحج، ومرور القافلة وبقائه في البادية وحده فريسة السباع، والعاقل لا يهمه أمر الجمل إلا بقدر الحاجة.

فكذلك البصير بالآخرة لا يهمه أمر نفسه ودنياه إلا بقدر ما يتقوى به على سلوك طريق الآخرة، وطائفة غلبت عليهم الشهوة والغفلة فيكتسبون حتى يأكلوا ويلبسوا. ويأكلون ويلبسون ليكتسبوا. وطائفة عرفوا ما خلقوا له فاستعدوا له، وعدوا عما سواه من الحاجات والضرورات فلم يقدموا عليها إلا للحاجة والضرورة.

* * *

(١) محمد ٣٦. (٢) آل عمران ١٤.

الباب السابع والعشرون

في ذم حب المال وذم البخل

أما ذم حب المال فيعرف من قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون** ﴾(١) وقال الله تعالى: ﴿ إنما أموالكم وأولادكم فتنة ﴾(٢).

ومن قوله ﷺ: « **حب المال والشرف، ينبتان النفاق كما ينبت الماء البقل** » وقال ﷺ: « **ما ذئبان ضاريان أرسلا في زريبة أغنم، بأكثر إفساداً من حب المال والجاه في دين الرجل المسلم** » وقال ﷺ: « **هلك الأكثرون إلا من قال به من عباد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم** ».

قال ﷺ: « **سيأتي بعدي قوم يأكلون أطايب الدنيا وألوانها، وينكحون أجمل النساء ويلبسون ألين الثياب وألوانها، ويركبون فره الخيل وألوانها، لهم بطون من القليل لا تشبع، وأنفس بالكثير لا تقنع عاكفين على الدنيا، يغدون ويروحون إليها، اتخذوها آلهة من دون إلههم ورباً دون ربهم، إلى أمرائهم ينتهون ولهواهم يتبعون. فعزيمة من محمد بن عبدالله لمن أدركه ذلك الزمان من عقب عقبكم، وخلف خلفكم، أن لا يسلم عليهم، ولا يعود مرضاهم، ولا يتبع جنائزهم، ولا يوقر كبيرهم. فمن فعل ذلك فقد أعان على هدم الإسلام** ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « **يقول ابن آدم مالي مالي وهل لك من مالك إلا ما تصدقت فأبقيت، أو أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت** ». وقال رجل: يا رسول الله مالي لا أحب الموت؟ فقال ﷺ: « **ألك مال فقال نعم فقال قدم مالك أمامك فإن قلب المؤمن مع ماله إن قدمه أحب أن يلحقه وإن خلفه أحب أن يتخلف معه** » وقال عليه الصلاة

(١) المنافقون ٩. (٢) التغابن ١٥.

والسلام: « أخلاء ابن آدم ثلاث واحد يتبعه إلى قبض روحه والثاني إلى قبره والثالث إلى محشره فالذي يتبعه إلى قبض روحه ماله، والذي يتبعه إلى قبره أهله، والذي يتبعه إلى محشره عمله ».

بيان أن المال محمود من وجه ومذموم من وجه:

وذلك أن الله تعالى سماه خيراً في بعض المواضع وقال: ﴿ إن ترك خيراً الوصية ﴾[1] الآية، وقال عليه الصلاة والسلام: « نعم المال الصالح للرجل الصالح » وكل ما جاء في ثواب الصدقة والحج فهو ثناء على المال. واعلم أن مقصد الأكياس والكرام سعادة الأبد والمال وسيلة إليها تارة للتزود منه ليقوى على التقوى والعبادة، وتارة بانفاقه في طريق الآخرة ومن أخذه للترفه أو توسل به إلى المعاصي والشهوات فهو مذموم في حقه.

واعلم أن مثاله مثال حية فيها سم وترياق، ففوائدها ترياقها وغوائلها سمها، فمن علمها وقدر على الاحتراز من سمها والانتفاع بترياقها فهو محمود في حقه.

فصل

في ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والأياس مما في أيدي الناس

اعلم أن الفقر محمود ولكنه ينبغي أن يكون الفقير منقطع الطمع مما في أيدي الناس، ولا يتأتى ذلك إلا بالقناعة بقدر الضرورة من المطعم والمشرب والملبس. فليقتصر على أقله في القدر وأخسه نوعاً، ويرد أمله إلى يوم أو إلى شهر لئلا يكثر في نفسه الصبر على الفاقة، فيؤدي ذلك للطمع والطلب والتذلل للاغنياء، قال ﷺ: « إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ».

وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ يوماً: « يا أبا هريرة، إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار ».

بيان علاج الحرص والطمع والدواء الذي يكتسب به صفة القناعة:

اعلم أن هذا الدواء مركب من ثلاثة أركان: الصبر والعلم والعمل.

(١) البقرة ١٨٠.

الأول: هو العمل وهو الاقتصاد في المعيشة والرفق في الانفاق، فمن أراد عز القناعة فليقلل الخرج والنفقة، ففي الخبر التدبير نصف المعيشة.

الثاني: قصر الأمل، حتى لا يضطرب بسبب الحاجة في ثاني الحال.

الثالث: أن يعلم ما في القناعة من العز والاستراحة عن السؤال، وذل الطمع فبذلك يتخلص.

فصل

في فضيلة السخاء

اعلم أن المال إن كان مفقوداً فينبغي أن يكون حال العبد القناعة، وإن كان موجوداً فالايثار والسخاء والتباعد عن البخل، قال عليه الصلاة والسلام: « السخاء شجرة من شجر الجنة أغصانها متدلية إلى الأرض، فمن أخذ منها غصناً قاده ذلك الغصن إلى الجنة. والشح شجرة في النار فمن كان شحيحاً أخذ بغصن من أغصانها فلم يتركه ذلك الغصن حتى يدخله النار ».

وقال عليه الصلاة والسلام: « قال جبرائيل ﷺ قال الله إن هذا دين ارتضيته لنفسي، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه ما استطعتم وفي رواية فأكرموه بهما ما صحبتموه » وقال ﷺ: « ما جبل الله ولياً إلا على السخاء وحسن الخلق » وعن جابر قال: « قيل يا رسول الله أي الايمان أفضل قال الصبر والسماحة ».

عن عائشة رضي الله عنها: إن ابن الزبير بعث إليها مالاً في غرارتين ثمانين ألفاً ومائة ألف، فدعت بطبق فجعلت تقسمه بين الناس، فلما أمست قالت يا جارية هلمي فطوري، فجاءتها بخبز وزيت، فقالت لها أم ذرة ما استطعت فيما قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحماً نفطر عليه، فقالت لو ذكرتيني لفعلت.

فصل

في ذم البخل

قال الله تعالى: ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾[1] وقال تعالى:

(١) الحشر ٩.

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ﴾[1] وقال ﷺ : **« إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم حملهم على أن يسفكوا دماءهم فاستحلوا محارمهم »** وقال عيسى ﷺ : « لا يدخل الجنة بخيل ولا خب ولا خائن ولا سيىء الملكة ».

بيان الإيثار وفضيلته:

اعلم أن أرفع الدرجات في السخاء الإيثار، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه والسخاء هو الجود بما فضل عنك وقد أثنى الرب سبحانه وتعالى على الصحابة فقال: **﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾**[2] وقال ﷺ : **« أيما رجل اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه غفر له ».**

وحكي أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف، فلم يجد عند أهله شيئاً فدخل عليه رجل من الأنصار وحمله إلى أهله، فوضع بين يديه الطعام، وأمر امرأته باطفاء السراج وجعل يمد يده في الطعام كأنه يأكل ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام، فلما أصبح قال له رسول الله ﷺ : **« لقد عجب الله من صنيعكم إلى ضيفكم »** فنزلت هذه الآية: **﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾**[3].

بيان علاج البخل:

اعلم أن البخل سببه حب المال، ولحب المال سببان:

أحدهما: حب الشهوات ولا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل، فإنه لو قدر بقاء نفسه يوماً أو شهراً. فلربما سمحت نفسه باخراج المال، ولعل ولده يقوم مقام طول الأمل فيمسك ما جاء لأجلهم، ولذلك قال ﷺ : **« الولد مبخلة مجبنة مجهلة »** وإذا أضيف إلى ذلك خوف الفقر، وقلة الثقة بمجيء الرزق قوي البخل لا محالة.

والسبب الثاني: أن يحب عين المال فيعلم أنه قط لا يحتاج إليه، وهو شيخ ولا ولد له ولكنه يحب المال لعينه وهذا مرض في القلب مزمن، والعياذ بالله. وهو كمن عشق شخصاً ثم أحب رسوله ونسيه، إذ المقصود من الدنانير والدراهم الوصول إلى

(١) آل عمران ١٨٠. (٢) الحشر ٩. (٣) الحشر ٩.

الأغراض، وهذا قد نسي المقصود وعشق الوسيلة والواسطة. فمن رأى بينه وبين الحجر فرقاً إلا من حيث كونه وسيلة إلى الحاجات فقد جهل.

واعلم أن علاج البخل تقليل الشهوة، وكثرة ذكر الموت والتأمل في موت الأقران، وزيارة القبور، وتأمل ما فيها من الديدان والتفكر في تلك الأحوال ويعالج التفات القلب إلى الولد، بأن خالقه خلق معه الرزق، فكم من ولد ورث ولم يكن ذلك رزقه، وكم من ولد لم يرث ورزقه الله تعالى أموالاً. وإن ولده إن كان صالحاً فالله تعالى يتولى الصالحين. وإن كان فاسقاً فلا كثر الله في المسلمين أمثاله فإنه يستعين بماله على المعاصي.

ومن المنافع التأمل في ذم الناس للبخلاء ونفرة الطباع عنهم ومدحهم للأسخياء ورغبتهم فيهم وقال تعالى: **﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ﴾**[1] فلعله ينفعه ذلك.

بيان ذم الغنى ومدح الفقر:

بلغنا أن عيسى ﷺ قال: يا علماء السوء الناس بأمركم يصومون ويصلون ويتصدقون ولا تفعلون ما تأمرون، وتدرسون ما لا تعلمون. فيا سوء ما تحكمون تتوبون بالقول، وتعملون بالهوى وما يغني عنكم أن تنقوا جلودكم وقلوبكم دنسة بحق أقول لكم لا تكونوا كالمنخل يخرج منه الدقيق الطيب، ويبقى فيه النخالة، كذلك أنتم تخرجون الحكمة من أفواهكم ويبقى الغل في قلوبكم.

يا عبيد الدنيا كيف يدرك الآخرة من لا تنقضي من الدنيا شهوته، ولا تنقطع منها رغبته، بحق أقول لكم إن قلوبكم تبكي من أعمالكم. جعلتم الدنيا تحت ألسنتكم والعمل تحت أقدامكم، بحق أقول أفسدتم آخرتكم فصلاح الدنيا عندكم أحب إليكم من صلاح الآخرة، فأي الناس أخسر منكم لو تعلمون ويلكم حتى متى تصفون الطريق للمدلجين وتقيمون في محل المتحيرين كأنكم تدعون أهل الدنيا ليتركوها لكم مهلاً مهلاً.

ويلكم ماذا يغني عن البيت المظلم أن يوضع السراج فوق ظهره وجوفه

(١) البقرة ٢٦٨.

موحش مظلم، كذلك لا يغني عنكم أن يكون نور العلم بأفواهكم وأجوافكم منه موحشة معطلة. يا عبيد الدنيا لا كعبيد أتقياء ولا كأحرار كرام توشك الدنيا أن تقلعكم من أصولكم فتلقيكم على وجوهكم ثم تكبكم على مناخركم ثم تأخذ خطاياكم بنواصيكم ثم تدفعكم من خلفكم حتى تسلمكم إلى الملك الديان عراة فرادى فيوقفكم على سوآتكم ثم يجزيكم بسوء أعمالكم.

فلقد بان لك أن الفقر أولى وأفضل. ومن ذهب إلى أن الغنى أفضل فقد ازدرى بمحمد ﷺ، وبجميع الأنبياء والسلف الصالحين. فنعوذ بالله من ذلك.

وإنما جنح بعض من سولت له نفسه وغلبت عليه شقوته بما لعبد الرحمن بن عوف فنحن نورد حكاية يتبين بها فساد غرضه، ونقول قال أناس نحن نخاف على عبد الرحمن فيما ترك، فقال كعب سبحان الله وما تخافون على عبد الرحمن كسب طيباً وأنفق طيباً وترك طيباً.

فبلغ ذلك أبا ذر فخرج مغضباً يريد كعباً فمر بلحي عظم بعير فأخذه بيده ثم انطلق يطلب كعباً. فقيل لكعب إن أبا ذر يطلبك فخرج هارباً حتى دخل على عثمان رضي الله عنه يستغيث به وأخبره بالخبر وأقبل أبو ذر يقص الأثر في طلب كعب حتى انتهى إلى دار عثمان.

فلما دخل قام كعب فجلس خلف عثمان هارباً من أبي ذر، فقال له أبو ذر هيه يا ابن اليهودية تزعم أن لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف، لقد خرج رسول الله ﷺ يوماً نحو أحد وأنا معه فقال: **«يا أبا ذر. قلت لبيك يا رسول الله فقال الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة إلا من قال هكذا وهكذا عن يمينه وعن شماله وقدامه وخلفه وقليل ما هم»**.

ثم قال **«يا أبا ذر قلت نعم يا رسول الله بأبي أنت وأمي قال ما يسرني أن لي مثل أحد ذهباً أنفقه في سبيل الله أموت يوم أموت وأبقي منه قيراطين، قلت أو قنطارين يا رسول الله قال بل قيراطين، ثم قال يا أبا ذر أنت تريد الأكثر وأنا أريد الأقل»**. ورسول الله ﷺ يريد هذا وأنت تقول يا ابن اليهودية لا بأس بما ترك عبد الرحمن بن عوف كذبت وكذب من قال فلم يرد عليه أحد حرفاً حتى خرج.

وبلغنا أن عبد الرحمن قدمت عليه عير من اليمن فضجت المدينة ضجة واحدة

فقالت عائشة رضي الله عنها ما هذا، فقيل عير قدمت لعبد الرحمن بن عوف، قالت صدق رسول الله فبلغ ذلك عبد الرحمن فسألها: فقالت سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إني رأيت الجنة فرأيت فقراء المهاجرين والمسلمين يدخلون سعياً، فلم أر أحداً من الأغنياء يدخلها معهم غير عبد الرحمن بن عوف رأيته يدخلها معهم حبواً»**. فقال عبد الرحمن إن العير وما عليها في سبيل الله تعالى وإن أرقاءها أحرار لعلي أدخلها معهم سعياً.

وروي عن عمران بن الحصين أنه قال «كانت لي من رسول الله ﷺ منزلة وجاه، فقال يا عمران لك عندنا منزلة وجاه فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ؟ فقلت نعم بأبي وأمي أنت يا رسول الله.

فقام وقمت معه حتى وقفت بباب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل، قالت بأبي أنت وأمي يا رسول الله أدخل، قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله؟ قال عمران بن حصين فقالت والذي بعثك بالحق نبياً ما علي إلا عباءة قال اصنعي بها هكذا وهكذا وأشار بيده، قالت هذا جسدي قد واريته فكيف برأسي فألقى إليها ملاءة كانت عليه خلقة فقال شدي بها على رأسك.

ثم أذنت له فدخل، فقال السلام عليك يا بنتاه كيف أصبحت، فقالت أصبحت والله وجعة وزادني وجعاً على ما بي أني لست أقدر على طعام آكله، فقد أضرني الجوع.

فبكى النبي ﷺ وقال: **«لا تجزعي يا بنتاه فوالله ما ذقت طعاماً منذ ثلاث وإني لأكرم على الله منك، ولو سألت ربي لأطعمني، ولكن آثرت الآخرة على الدنيا»**.

ثم ضرب بيده على منكبها، فقال لها أبشري فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة، فقالت وأين آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران، فقال ﷺ آسية سيدة نساء عالمها، ومريم سيدة نساء عالمها، وخديجة سيدة نساء عالمها، وأنت سيدة نساء عالمك.

إنكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب. ثم قال لها إقنعي بابن عمك فوالله لقد زوجتك سيداً في الدنيا سيداً في الآخرة».

فافهم تغنم والله أعلم الصواب.

* * *

الباب الثامن والعشرون

في ذم الجاه والرياء

اعلم أن الجاه محبوب القلوب فلا يسمح بتركه إلا الصديقون. ولذلك قيل آخر ما يخرج من رؤوس الصديقين حب الرياسة ونبين الغرض من ذلك بفصول.

فصل

اعلم أن أصل الجاه هو انتشار الصيت، وهو مذموم، إلا لمن شهره الله تعالى لنشر دينه. قال أنس قال رسول الله ﷺ: **«حسب امرىء من الشر، إلا من عصمه الله تعالى، أن يشير الناس إليه بالأصابع في دينه ودنياه».**

وقال علي رضي الله عنه: تبذل ولا تشتهر، ولا ترفع شخصك لكي تذكر وتعلم واكتم واصمت تسلم، وتسر الأبرار وتغيظ الفجار.

قال ابراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة. ورأى طلحة قوماً يمشون معه فقال: ذباب طمع وفراش نار. وقال سليمان بن حنظلة: بينما نحن حول أبي بن كعب نمشي خلفه إذ رآه عمر فعلاه بالدرة فقال أنظر يا أمير المؤمنين ما تصنع، فقال إن هذا ذلة للتابع وفتنة للمتبوع.

وعن الحسن قال خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه الناس فالتفت إليهم فقال: علام تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابي ما اتبعني أحد منكم. وقال الحسن: إن خفق النعال خلف الرجال قلما تثبت معه قلوب الحمقى.

فضيلة الخمول:

قال رسول الله ﷺ: **«رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه منهم البراء بن مالك»** وقال ابن مسعود قال عليه الصلاة والسلام: **«رب ذي**

طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره لو قال اللهم إني أسألك الجنة لأعطاه الجنة ولم يعطه من الدنيا شيئاً».

وقال أبو هريرة رضي الله عنه قال النبي ﷺ: **«إن أهل الجنة كل أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإذا خطبوا النساء لم ينكحوا، وإذا قالوا لم ينصت لهم، حوائج أحدهم تتلجلج في صدره؛ لو قسم نوره يوم القيامة بين الناس لوسعهم».**

وروي أن عمر دخل المسجد فإذا هو بمعاذ بن جبل يبكي عند قبر رسول الله ﷺ فقال ما يبكيك فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله تعالى يحب الاتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة».**

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم مصابيح الهدى، أجلاس البيوت سرج الليل جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء وتخفون في أهل الأرض.

فصل
في ذم حب الجاه

قال الله تعالى: **﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾**(1).

واعلم أن حقيقة الجاه هو ملك القلوب كما أن معنى المال ملك الأعيان. وكما أن مالك المال يتوصل بماله إلى المقاصد، فمالك القلوب يتوصل بها إلى المقاصد. فالجاه أحد المقاصد.

وكما أن المال يكتسب بالحرف والصناعات، فالقلوب تكتسب بأنواع المعاملات. ولا تصير القلوب مسخرات إلا بالاعتقادات. فكل من يعتقد الإنسان فيه وصفاً من أوصاف الكمال، فقد انقاد له قلبه بل ملك القلوب استعباد للناس واسترقاق لهم وإذا كان المال محبوباً فالجاه أولى.

(1) القصص ٨٣.

واعلم أن الجاه قوت الروح الطالبة للاستعلاء والربوبية، إذ الروح من عالم أمر الله، وهو يطلب الربوبية والعلو، والاستعباد للناس، ويحب الكمال ويطلبه ولذلك لا ترى أحداً ينفعك عن هذه الإرادة.

فصل

اعلم أن النفس إنما ترتاح للمدح وتهتز له، لأن فيه شعوراً بالكمال والنفس محبة للكمال. وعلى العكس تكره الذم لأن فيه شعوراً بالنقصان وهي تكره النقصان.

بيان علاج حب الجاه:

اعلم أن من ابتلي بحب الجاه، صار همه مقصوراً على حب الجاه، وطلب الزيادة فيه، واصطياد قلوب الخلق، وذلك يضطره إلى الرياء والنفاق.

ولذلك شبه رسول الله ﷺ ذلك، أعني حب المال والجاه بذئبين ضاريين في زريبة غنم وقال: «إنه ينبت النفاق كما ينبت الماء البقل» وعلاجه مركب من العلم والعمل.

أما العلم، فهو أن يعلم أن مقصوده ملك القلوب، وقد بينا أن ذلك إن صفا وسلم، فآخره الموت. فليس ذلك من الباقيات الصالحات. بل لو سجد لك كل من على بسيط الأرض من المشرق إلى المغرب، مقدار خمسين سنة لا يبقى الساجد ولا المسجود له. وتكون حالك كحال من مات من قبلك من ذوي الجاه وقد ماتوا، فذلك كمال وهمي لا حقيقة له، لأنه يزول بالموت.

وهذا كما كتب الحسن البصري، حيث كتب إلى عمر بن عبد العزيز: أما بعد فكأنك بآخر من كتب عليه الموت وقد مات. فكتب في جوابه أما بعد فكأنك بالدنيا لم تكن وكأنك بالآخرة لم تزل. فهؤلاء نظروا إلى العواقب وعلموا أن ما هو آت قريب.

وأما العمل فلهم فيه طريق منهم من شرب شراباً حلالاً يشبه الخمرة فهجره الناس وظنوا أنه شارب خمر. ومنهم من عرف بالزهد فدخل الحمام ثم خرج ولبس ثياب غيره. ووقف في الطريق حتى عرفوه وأخذوه وخلعوا عنه الثياب، وضربوه وقالوا إنه طرار فهجروه.

وأقرب الطرق فيه الغربة والهجرة إلى موضع الخمول، فإنه لو اعتزل في بلده، فلا يخلو عن نوع من الرياء بمعرفة الناس باعتزاله وانزوائه.

بيان العلاج في الخلاص من حب المدح وكراهة الذم:

قد بينا أن سببه الكمال الوهمي فإذا عرفت أنه لا أصل له، ولا فائدة له إلا في العاجل فأما في الآخرة فلا فائدة. وإن كان المدح بأمر ديني فذلك هوس، إذ تمام ذلك بحسن الخاتمة. وبعد ما جاوزت هذا الخطر.

بيان القسم الثاني من هذا الباب وهو الرياء:

اعلم أن الرياء حرام وصاحبه ممقوت عند الله تعالى.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿ **فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءُون**﴾[1] وقال الله تعالى: ﴿ **فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً** ﴾[2].

وقيل يا رسول الله فبم النجاة فقال: «**أن لا يعمل العبد بطاعة الله تعالى يريد بها الناس**» وقال عليه الصلاة والسلام: «**إن أخوف ما يخاف عليكم الشرك الأصغر قالوا وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال الرياء. يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى العبيد بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء**» وقال ﷺ: «**استعيذوا بالله من جب الحزن قيل وما هو يا رسول الله؟ قال وادٍ في جهنم أعد للقراء المرائين**».

وروى عبدالله بن المبارك بإسناده عن رجل أنه قال لمعاذ بن جبل «حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ قال فبكى معاذ حتى ظننت أنه لا يسكت ثم سكت ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول لي يا معاذ قلت له لبيك يا رسول الله بأبي أنت وأمي يا رسول الله قال إني محدثك حديثاً إن أنت حفظته نفعك وإن أنت ضيعته ولم تحفظه انقطعت حجتك عند الله تعالى يوم القيامة.

(١) الماعون ٤. (٢) الكهف ١١٠.

يا معاذ إن الله تعالى خلق سبعة أملاك قبل أن يخلق السموات والأرض. ثم خلق السموات فجعل لكل سماء من السبعة ملكاً بواباً عليها قد جللها عظماً.

فتصعد الحفظة بعمل العبد من حين أصبح إلى حين يمسي له نور كنور الشمس حتى إذا طلعت الملائكة به إلى السماء زكته فكثرته، فيقول الملك الموكل للحفظة، اضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا صاحب الغيبة أمرني ربي أن لا أدع عمل من اغتاب الناس يجاوزني إلى غيري.

قال ثم تأتي الحفظة بعمل صالح من أعمال العبد فتمر فتزكيه وتكثره، حتى تبلغ به إلى السماء الثانية فيقول لهم الملك الموكل بالسماء الثانية قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، أنا ملك الفخر إنه أراد بعمله هذا عرض الدنيا أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري. إنه كان يفتخر على الناس في مجالسهم.

قال وتصعد الحفظة بعلم العبد يبتهج نوراً من صدقة وصيام وصلاة قد أعجب الحفظة، فيجاوزون به إلى السماء الثالثة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه وأنا ملك الكبر، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إنه كان يتكبر على الناس في مجالسهم.

قال وتصعد الحفظة بعمل العبد يزهو كما يزهو الكوكب الدري، له دوي كدوي النحل من تسبيح وصلاة وحج وعمرة حتى يجاوزا به إلى السماء الرابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا به ظهره وبطنه، أنا صاحب العجب أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري، إنه كان إذا عمل عملاً أدخل العجب في عمله.

قال وتصعد الحفظة بعمل العبد حتى يجاوزوا به إلى السماء الخامسة، كأنه العروس المزفوفة إلى أهلها، فيقول لهم الملك الموكل بها، قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واحملوه على عاتقه، أنا ملك الحسد، إنه كان يحسد الناس، من يتعلم ويعمل بمثل عمله وكل من كان يأخذ فضلاً من العبادة يحسدهم ويقع فيهم، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال وتصعد الحفظة بعمل العبد من صلاة وزكاة وحج وعمرة وصيام

فيجاوزون به إلى السماء السادسة فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه إنه كان لا يرحم إنساناً قط من عباد الله أصابه بلاء أو ضر بل كان يشمت به، أنا ملك الرحمة أمرني أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري.

قال وتصعد الحفظة بعمل العبد إلى السماء السابعة، من صوم وصلاة ونفقة واجتهاد وورع، لها دوي كدوي الرعد، وضوء كضوء الشمس، معها ثلاثة آلاف ملك، فيجاوزون به إلى السماء السابعة، فيقول لهم الملك الموكل بها قفوا واضربوا بهذا العمل وجه صاحبه، واضربوا به جوارحه، اقفلوا به على قلبه إني أحجب عنه كل عمل لم يرد به وجه ربي، إنه أراد بعمله غير الله تعالى، إنه أراد رفعة عند الفقهاء وذكراً عند العلماء، وصيتاً في المدائن، أمرني ربي أن لا أدع عمله يجاوزني إلى غيري وكل عمل لم يكن خالصاً لله تعالى فهو رياء ولا يقبل الله عمل المرائي.

قال وتصعد الحفظة بعمل العبد، من صلاة وزكاة وصيام وحج وعمرة وخلق حسن وصمت وذكر لله تعالى، وتشيعه ملائكة السموات السبع، حتى يقطع الحجب كلها إلى الله تعالى فيقفون بين يده ويشهدون له بالعمل الصالح المخلص لله، قال فيقول الله تعالى لهم أنتم الحفظة على عمل عبدي وأنا الرقيب على نفسه إنه لم يردني بهذا العمل، وأراد به غيري فعليه لعنتي فتقول الملائكة كلها، عليه لعنتك وعليه لعنتنا وتلعنه السماوات السبع ومن فيهن.

قال معاذ قلت يا رسول الله أنت رسول الله وأنا معاذ، كيف النجاة قال: اقتد بنبيك وحافظ على لسانك من الوقيعة في إخوانك، من حملة القرآن وغيرهم، واحمل ذنوبك عليك ولا تحملها عليهم، ولا تزكّ نفسك بذمهم، ولا ترفع نفسك عليهم، ولا تدخل عمل الدنيا في عمل الآخرة، ولا تتكبر في مجلسك لكي يحذر الناس من سوء خلقك، ولا تناج رجلاً وعندك آخر، ولا تتعظم على الناس فينقطع عنك خير الدنيا، ولا تمزق الناس فتمزقك كلاب النار يوم القيامة في النار.

قال الله تعالى: ﴿ والناشطات نشطاً ﴾[1] أتدري ما هن يا معاذ قلت ما هن

(١) النازعات ٢.

بأبي أنت وأمي يا رسول الله، قال كلاب النار تنشط اللحم والعظم، قلت بأبي أنت وأمي يا رسول الله فمن يطيق هذه الخصال، ومن ينجو منها، قال: يا معاذ إنه ليسير على من يسره الله تعالى عليه، إنما يكفيك من ذلك أن تحب للناس ما تحبه لنفسك، وتكره لهم ما تكره لها، قال فما رأيت أكثر تلاوة للقرآن من معاذ للحذر مما في هذا الحديث».

قال عكرمة: إن الله تعالى يعطي العبد على نيته ما لا يعطيه على عمله لأن النية أبلغ ولا رياء فيها.

بيان حقيقة الرياء:

والرياء مشتق من الرؤية، والسمعة مشتقة من السماع، والرياء أصله طلب رؤية الناس للمنزلة عندهم، وطلب المنزلة عند الناس تارة تكون عند الناس بعمل غير العبادة، وتارة تكون بالعبادة.

فالرياء في غير العبادة المراءاة بالثياب الخشنة وتشميرها، وصفار اللون، وإغارة العين وتشعث الشعر، وخفض الصوت، والمشي بالتكلف على سكينة وهدوء، والتطليس كل هذه متمات للرياء بالعبادة، وكل ذلك حرام إذا كان القصد منها المراءاة.

وكذلك مراءاة العلماء بالألفاظ المسجعة في المواعظ لأجل غزارة العلم، إلا أن يقصد بذلك أن يكون أقرب إلى قبول الدين منه ويكون قد صحت نيته في أصل الوعظ فإن ذلك ربما يجوز.

والمراءاة بأصل العبادة، وهو أن يطول الركوع والسجود، بين يدي الناس ليظنوا به الزهد والورع، وربما تكلف ذلك في الخلوة لئلا يحتاج إلى التكلف بين يدي الناس، ويظن أن يخلص من الرياء، بأن يطول الركوع والسجود في البيت. وإذا كان عزمه ذلك فقد زاد في ريائه لا أنه يخلص منه.

والقول الحق فيه أن يقال الرياء هو طلب الجاه، فلا يخلو إما أن يكون بالعبادات أو بغيرها، فإن كان بغير العبادات فهو كطلب الحلال من المال، فلا يحرم إلا أن يكون بتلبيس، فذلك في المال والجاه محرم على السواء، ولا ينبغي أن يظن أن

طلب الجاه محرم بالكلية، فإن القدر الذي يحتاج إليه من الجاه لضرورة المعيشة، كالقليل من المال يجوز طلبه للحاجة، وهو المراد بقول يوسف عليه السلام: ﴿ اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم ﴾[1] فإذا في الجاه سم وترياق كما سبق في المال.

وكما أن كثير المال يطغي ويلهي عن ذكر الله تعالى، فكذا كثير الجاه فإن حصل سعة الجاه من غير حرص منك ولم يشغلك عن الله تعالى، وكان استعمالك له كاستعمالك للمال الكثير، بالسخاء والإيثار وإيصال النفع إلى الخلق فحكمه حكم المال الكثير كما سبق.

إذ لا يمكن أن يكون جاه أوسع من جاه الأنبياء عليهم السلام، ومن جاه الأئمة والخلفاء الراشدين.

ولكن ينبغي أن لا يلهيه عن الله تعالى ولا يحزن بزواله، فعلى هذا الخروج إلى الناس بالثياب الحسنة رياء لكن ليس بحرام، إذ ليس فيه رياء بالعبادة ويدل عليه ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «إن رسول الله ﷺ إذا أراد الخروج إلى أصحابه كان ينظر في جب الماء ويسوي عمامته وشعره قالت: قلت أو تفعل ذلك يا رسول الله قال: نعم إن الله تعالى يحب العبد أن يتزين لإخوانه إذا خرج إليهم».

نعم هذا كان من رسول الله عبادة لأنه كان مأموراً بدعوة الخلق، ولو سقط من أعينهم لفسد ذلك.

وإعلم أن للرياء درجات، فإن كان كل مقصوده من الفعل الرياء فهو مبطل للعبادة قطعاً. ويقرب من هذا أن يكون الرياء غالباً على نية العبادة.

وإن كان قصد العبادة والرياء سواء بأن يستقل كل واحد بنفسه، فهذا إن نجا رأساً برأس لا له ولا عليه، فقد ربح.

وإن كان الأصل قصد العبادة والرياء مرجح، ولو لم يكن الرياء، لأقدم على العبادة.

(١) يوسف ٥٥.

ولو كان محض الرياء من غير قصد العبادة، لما استقل الرياء فلعله لا يحبط أصل العمل، ولكنه ينقص من الثواب، أو يعاقب على مقدار مراءاته، ولعل محمل قوله تعالى: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك. المساواة بين القصدين ليخرج عن هذا القسم الأخير.

واعلم أنه إن كان الرياء بأصل الإيمان فهو النفاق، وهو مخلد في الدرك الأسفل من النار. وإن كان بأصول الفرائض لا بأصل الإيمان فهو أخف، وإن كان بالنوافل وبأوصاف العبادات فقد سبق ذكره

بيان الرياء الخفي:

الذي هو أخفى من دبيب النمل، وذلك ما لا يستقل بحمله على العبادة، ولا يؤثر في تحقيق العبادة عليه بسبب رؤية الخلق، ولكن يحب أن يعرف أو يطلع على عبادته ويسر بذلك، فهذا هو الرياء الخفي.

وطريق دفع الرياء وعلاجه أن يعلم أن منشأه حب المال والجاه وحب المدح، وقد سبق ذكره، والذي يتجدد بعده أنه ينبغي أن يتأمل أن الله تعالى مطلع على سره، وسيقول له كنت أهون الناظرين إليك، فإذا تأمل فيما يرجع إليه حاصله، وأنه يزول ذلك بالموت، علم أن الإقلاع منه أولى.

بيان الرخصة في كتمان الذنوب:

إعلم أن الأصل في الإخلاص استواء السريرة والعلانية. قال عمر: عليكم بعمل العلانية، قالوا وما عمل العلانية يا أمير المؤمنين، قال: ما إذا اطلع عليه أحدكم لم يستحِ منه.

وقد قال عليه السلام: « **من ارتكب شيئاً من هذه القاذورات، فليستتر بستر الله تعالى** » وينبغي أن يكره ظهور الذنب من غيره أيضاً كما يكره من نفسه.

بيان أنه لا يجوز ترك العبادات خوفاً من الرياء:

فنقول إذا لم يكن الباعث أصل الرياء، ولكنه يخاف أن يعرض له في أثنائه رياء، فينبغي أن لا يترك العبادة فإن غرض الشيطان يحصل بترك العبادة، بل يقدم على العبادة، وليدفع الرياء بدوائه، ولهذا قال بعضهم: الرياء أن يترك العبادة لرؤية الخلق، وأما الإقدام عليها لأجل الخلق فهو نفاق محض.

فصل

اعلم أن من العبادات ما يتعلق بالخلق، كالخلافة والإمامة والسلطنة والتدريس والوعظ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: « **ليوم من إمام عادل خير من عبادة الرجل وحده ستين عاماً** ».

واعلم أن المتقين كانوا يهربون منها، لأن فيها أخطاراً عظيمة، إذ يتحرك فيها صفات الباطن بحب المال والجاه وسائر الآفات، ولذلك قال النبي ﷺ: « **ما من والي عشيرة إلا جاء يوم القيامة مغلولة يده إلى عنقه أطلقه عدله أو أوثقه جوره** ».

فالعاقل إذن يحق به أن يهرب عن محل الخطر، فلينظر إلى نفسه، فإن كان الغالب عليه طلب الثواب فليفعل، وعلامة ذلك أنه إذا ظهر من ينوب عنه ويكفيه ذلك يغتنمه ولا يغتاظ منه، فافهم تغنم والله أعلم بالصواب.

***

الباب التاسع والعشرون

في ذم الكبر والعجب

وفيه فصول:

اعلم أن الكبر مذموم. قال الله تعالى: ﴿ سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿ واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد ﴾[3] وقال عليه الصلاة والسلام: **« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من الكبر »**.. وقال النبي ﷺ: **« قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما ألقيته في جهنم »**.

ومعنى الكبر صفة في النفس، تنشأ من رؤية النفس، وما يظهر من الكبر في الظاهر فهو كالأثر لتلك الصفة. قال ﷺ: **«أعوذ بك من نفخة الكبرياء»**.

فالكبر إن كان على الله بأن لا يذعن لأمره فذلك هو الكفر التام، وإن كان على الرسل بأن لا يذعن لبشر مثله فهو أيضاً كفر تام. والثالث أن يتكبر على الخلق ويدعوهم إلى خدمة نفسه، والتواضع له وذلك أيضاً منازعة لله تعالى في كبريائه، فإنه لا ينبغي لغيره أن يكون مطاعاً البتة.

والكبر إن كان بالمال والجاه فذلك قد سبق علاجه، وإن كان برؤية الصلاح فذلك يناقض نفس الصلاح، وإن كان بفعل الخيرات والعلم والعمل، فذلك حقيق

(١) الأعراف ١٤٦. (٢) الاعراف ١٠١. (٣) إبراهيم ١٥.

بأن يكون لله فإذا تكبر به على الناس، فقد أخذ الأجر عليه كما ورد في الأخبار فيكاد يحبط أجر ذلك.

فهذا هو الطريق في معالجته، وبالمقابلة لما يجده فيها من الخواطر يستريح، فإذا مالت نفسه إلى الترفع على الناس، يعمل التواضع ويداوم عليه، فلعل الله يخلصه عن هذه الرذيلة، ومهما حدثته نفسه بالخلاص عن الكبر فعليه أن يمتحن نفسه بأربعة أمور:

أولها أن يجرب نفسه في المناظرة مع خصم، حتى يظهر أنه هل يغضب لظهور الحق على يد غيره، وهل يشتهي الاستعلاء أم لا. الثاني أن يقدم الأقران على نفسه في المحافل. الثالث أن يحمل حاجته إلى بيته من طعام وغيره فهو من السنة ويتعاطى الأعمال في بيته مع غلامه، ويأكل معه فذلك كله من السنة ومن جملة ذلك إجابة دعوة الفقراء والخروج معهم إلى الأسواق وحمل حاجتهم معهم. الرابع لبس ثياب بذلة في الملأ.

قال عليه الصلاة والسلام: **« البذاذة من الإيمان »**، وقال: **« من اعتقل البعير ولبس الصوف فقد برىء من الكبر »**، وقال: **« من حمل حاجته إلى بيته فقد برىء من الكبر »**، فإذا عرفت هذا فاعلم أن خير الأمور أوساطها فالتواضع المحمود أن يتواضع الأقران من غير ذلة.

فصل

في العجب

اعلم أن العجب مذموم. قال تعالى: ﴿ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ﴾[1]، وقال: ﴿ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴾[3]، وقال عليه الصلاة والسلام: **« ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء نفسه »**.

وحقيقة العجب تكبر يحصل في الباطن بتخيل كمال من علم أو عمل، فإن كان

(١) التوبة ٢٥. (٢) الكهف ١٠٤. (٣) الزمر ٤٧.

خائفاً على زواله فهو غير معجب، وإن كان يفرح بكونه نعمة من الله فهذا ليس أيضاً بعجب بل هو مسرور بفضل الله تعالى.

وإن كان ناظراً إليه من حيث هو صفة غير ملتفقة إلى إمكان الزوال ولا إلى المنعم به بل إلى صفة نفسه فهذا هو العجب وهو من المهلكات، وعلاجه أن يتأمل في العاقبة وأن يتأمل في بلعام كيف ختم له بالكفر، كذلك إبليس فمن تأمل في إمكان سوء الخاتمة وانه ممكن لا يعجب بشيء من صفاته والله أعلم.

***

الباب الثلاثون

في ذم الغرور

اعلم أن الغرور أظهر أسباب الهلاك. وأصناف المغترين كثيرة. ونحن نورد منها أربعة أصناف:

الأول من العلماء. الثاني من العباد. الثالث من المتصوفة. الرابع من أرباب الدنيا وأصحاب الأموال.

ونبدأ بما ورد في ذم الغرور قال الله تعالى: ﴿ **فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور** ﴾[1]. وقال تعالى: ﴿ **وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله** ﴾[2] الآية. وقال عليه السلام: « **حبذا نوم الأكياس وفطرهم، كيف يغبنون سهر الحمقى واجتهادهم، ولمثقال ذرة من صاحب تقوى ويقين أفضل من ملء الأرض من المغترين** ».

والغرور أن يعتقد الشيء على خلاف ما هو به فهو نوع من الجهل وسكون النفس إلى ما يوافق الهوى من الخيال والشبهة، فمن المغترين من غره ظنه الفاسد بأن الحياة الدنيا نقد ويقين، والآخرة نسيئة وشك. والنقد واليقين لا يترك بالنسيئة والشك وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب** ﴾[3] الآية.

وهؤلاء هم الكفار فإيمانهم تارة يحصل بعلة وتارة ببرهان ودليل وتارة بتقليد، ولا شك أن المريض يشرب الدواء بقول الطبيب رجاء للصحة، فلو قال لا أشرب

(١) لقمان ٣٣. (٢) الحديد ١٤. (٣) البقرة ٨٦.

الدواء إلا أن أتيقن كونه نافعاً، فذلك هلاكه . كيف والعقل يقتضي الاحتراز بمجرد الاحتمال .

فهذا المدبر إن كان قول الأنبياء ومعجزاتهم لا تورثه يقيناً، فلا أقل من أن يورث ظناً غالباً،أو احتمالاً والعاقل بمجرد الاحتمال يحترز وكذلك قال علي رضي الله عنه لبعض الملحدين بعد أن أورد الحجج على الملحدين : إن كان الأمر على ما تزعمه فقد تخلصت أنا وتخلصت أنت وإن كان على ما أزعمه فتخلصت وهلكت .

ومن الناس من غرهم قولهم إن الله كريم رحيم ومن الناس من يدلي بتقوى الآباء وورعهم وذلك كله محال أما قوله إن الله كريم رحيم فقد صدق، ولكن جميع آي القرآن دالة على أن كرمه ورحمته بأن يوفق في الدنيا للخيرات وقال تعالى : **﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ﴾**[1] وقال تعالى : **﴿ فمن يردِ الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ﴾**[2].

ثم هلا اعتمد على كرمه في الرزق وقد قال تعالى : **﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾**[3] وقال تعالى : **﴿ ويرزقه من حيث لا يحتسب ﴾**[3] فأمر بالتوكل على الله في الرزق والتعويل على كرمه فلا يفعل. وأمر بالعمل للآخرة فيتوكل وهذا غاية الانعكاس، وأما من يدلي بورع الآباء وتقوى النسب فلينظر إلى قوله تعالى لنوح **﴿ إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح ﴾**[4] وإلى قوله ﷺ لما استأذن من الله تعالى أن يزور قبر أمه ويستغفر لها، فأذن له في الزيارة ولم يؤذن له في الاستغفار، فبكى لذلك وقد قال ﷺ **« الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأماني »** .

واعلم أن العاقل البصير المشتغل طول الليل والنهار بالطاعات، مع اجتناب المعاصي أبداً، يكون خائفاً من سوء الخاتمة، ويسأل الله تعالى أن يثبته بالقول الثابت في الحياة الدنيا والآخرة ويخاف صواعق القدر، فإن قلت فأين موضع الرجاء قلنا إن الرجاء والخوف شرطان لكل واحد منهما موضع .

(١) النجم ٣٩. (٢) الانعام ١٢٥.
(٣) الطلاق ٣. (٤) هود ٤٦.

فموضع الرجاء اثنان أحدهما أن يرجي نفسه الغفران بالتوبة، حين استبعد ذلك بسبب كثرة الذنوب ودلالة الشيطان بحبل غروره وتقنيطه . والآخر موضعه أن يرجي نفسه نعيم الفردوس، ومعالي الدرجات كما ورد في الأخبار لئلا يقتصر على الفرائض ونحن الان نبين أصناف المغترين .

الصنف الأول: العلماء وقد سبق ذكر غرورهم في كتاب العلم . وأن العلماء بالله من زاد علمه من خشيته قال عليه السلام : **« أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله »** فمن لا يعلم عيوب باطنه أو يعلم ولا يجتهد في إزالتها فهو مغرور لا ينفعه علمه البتة .

الصنف الثاني: في أرباب العبادات والمشغول بكل صنف منها، أعني أنواع العبادة لا يخلو عن نوع من الغرور إلا الأكياس الذين وفقهم الله تعالى وقليل ما هم .

فمنهم من أهمل الفرائض وضيعها بأحكام السنن والشروط، كمن تشغله الوسوسة في الوضوء، وتنظيف الثياب، حتى يفوت وقت الفرض أو يضيق .

ومنهم من لا تستقيم له النية فتغلبه الوسوسة فيها حتى تفوته الجماعة .
ومنهم من تحمله الوساوس على أنه يعود في قراءة الفاتحة ويقول إني أخرج الحروف من مخارجها ولا يهمه غيره . ومثال هؤلاء كرسول بعث برسالة إلى ملك فأخذ يتأنق في إيراد الحروف ولا يزال يرددها ويعيدها وهو غافل عن احترامه المجلس . فهو جدير بأن يرد إلى دار المرضى عند المجانين أو تقام عليه السياسة .

وهكذا من اشتغل بالحج والصوم، وأقبل على شيء من هذه العبادات، ولم يقدم شروطها من التوبة ورد المظالم، ولم يتعلم علم آفات الأعمال . وما يحتاج إليه من تنقية الظاهر والباطن فلا بد وأن يكون مغروراً بعلمه .

الصنف الثالث الصوفية والمتصوفة وهم فرق:

فمنهم من رضي بمجرد زيهم وآدابهم الظاهرة، وظنوا أن الأمر إلى هذا الحد، ومنهم من زاد فلبس المرقعات الرفيعة التي تزيد في القيمة على الإبريسم ومثالهم كعجوز سمعت أن رجال الحرب أثبتت أساميهم في ديوان السلطان، فلبست الدروع وحملت الأسلحة، ونهضت إلى بين يدي السلطان، فأمر بتعريتها عن

السلاح وتجربتها في القتال والمبارزة، فلما رفع المغفر عن رأسها وخلع الدروع عن بدنها انكشفت عن عجوز، فقيل لها هذا استهانة بالملك فتؤخذ وتطرح بين يدي الفيل ويقام عليها السياسة.

وفرقة تلقنت الفاظ القوم في علوم المعرفة، فادعت المعرفة. وذلك والعياذ بالله هـو الهـلاك.

ومنهم من وقع في الانخلاع زاعماً أنه لا حاجة إلى أعمالنا، ولا يدرون أن الحاجة لهم إلى أعمال أنفسهم لا لغيرهم.

ومنهم من انبسط في جميع أنواع النعم لا يفرق ولا يميز، ولا يدري أن التكثير من الحلال يخالف شأنه فكيف من الحرام.

ومنهم من فتح له الطريق فلما أحس بنسيم المعرفة وقف عنده، وظن أنه قد وصل وعجائب هذا الطريق لا تنقضي، فمن وقف عند كل واحد من هذه العجائب طال مقامه.

وفرقة أخرى جاوزا هؤلاء، ولم يلتفتوا إلى ما يفيض عليهم من الأنوار في الطريق ولا إلى ما يتيسر لهم من العطايا الجزيلة، ولم يعرجوا على الفرح بها، بل جادين في المسير حتى قاربوا فوصلوا إلى حد القربة إلى الله عز وجل.

فظنوا أنهم وصلوا إلى الله عز وجل فغلطوا فإن لله عز وجل سبعين حجاباً من نور، فلا يصل السالك إلى واحد من تلك الحجب إلا ظن أنه قد وصل، ولعل إليه الإشارة بقول إبراهيم عليه السلام، بما أخبر الله تعالى عنه قال: **﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي ﴾**(١) وليس المعنى به هذه الأجسام المضيئة، فإنه كان يراها في الصغر وكان يعلمها ويعلم أنها ليست آلهة وهي كثير وليست بواحدة وكيف يغتر مثل الخليل بما لا يغتر به أحد العوام والجهال، ولكن المراد به نور من أنوار الله تعالى وهي أول الحجب، وهي على طريق السالك ولا يتصور الوصول إليه إلا بعبور هذه الحجب، وهي حجب من نور بعضها أصغر وبعضها أكبر بقدر القرب والبعد.

(١) الانعام ٧٦.

وأصغر الأنوار السماوية هي الكواكب فاستعير لفظه لأول تلك الأنوار، لأنها أصغر تلك الأنوار، وأعظمها الشمس وبينهما القمر، فلم يزل إبراهيم لما رأى ملكوت السماء حيث قال تعالى: **﴿ وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات ﴾**(١) الآية. يتصل نور بعد نور وحجاب بعد حجاب، وكلما ظهر ما ظهر من الأنوار الإلهية، وقد شاهد من عظمتها ونورها، ظن أنه وصل فيقول هذا ربي فينكشف له بنور النبوة والتوفيق الإلهي أن وراءه نوراً، فكلما ينكشف له ما بعد ذلك، ظهر للأول درجة الانحطاط عن ذروة الكمال، ويطلع على أنه له نهاية، فيقول لا أحب الآفلين.

ولا يزال كذلك إلى أن يتجاوز عن كل ما يتناهى، فلما انتهى إلى جناب لا نهاية له وانقطع طمعه عما دون ذلك قال: **﴿ إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض ﴾**(٢) والسالك لا يصل إلى هذه الأنوار والحجب ما لم يخرج عن حجاب نفسه، وهو أيضاً أمر رباني بل هو نور من أنوار الله تعالى، أعني سر القلب والروح، الذي فيه ينجلي حقيقة الحق حتى أنه ليتسع بجملة العالم ويحيط به، وتنجلي فيه صورة الكل حتى قيل إنه اللوح المحفوظ.

فإذا انتهى إليه السالك فيشرق نوره إشراقاً عظيماً إذ يظهر فيه الوجود كله على ما هو عليه وهو في أول الأمر محجوب بمشكاة هي كالساتر له كما دل عليه القرآن.

فإذا انجلى نوره، وانكشف جمال القلب بعد إشراق نور الله تعالى، ربما التفت صاحب القلب إلى القلب، ويرى من جماله الفائق ما يدهشه، فربما سبق في ذلك الشك والدهشة لسانه، فيقول أنا الحق، فإن أخذ التوفيق بيده ومدته الألطاف الإلهية، سار منه ولم يقف عنده، فهو يعرف بعد منازل الأنوار الإلهية، وإلا هلك فهذا محل الغرور، إذ ربما يلبس عليه المتجلي والمتجلي فيه كما يلتبس لون ما يتراءى في المرآة فيظن أنه لونها، وكما يلتبس لون ما في الزجاج بالزجاج كما قيل:

رق الزجاج ورافت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر
فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

(١) الأنعام ٧٥. (٢) الانعام ٧٩.

وبهذه العين نظرت النصارى إلى المسيح ، فرأوا إشراق نور الله قد تلألأ فيه ، فغلطوا فيه ، كمن يتراءى له كوكب في مرآة أو ماء ، فيظن أن الكوكب في المرآة وفي الماء ، فيمد اليد إليه ليأخذه وهو مغرور .

وأنواع الغرور في هذا الباب لا تحصى في مجلدات ، ولعل هذا القدر أيضاً الأولى تركه إذ السالك لا يحتاج إلى السماع من غيره ، والذي لم يذقه لا ينتفع به وبسماعه ، بل ربما يستضر به إذ يورثه ذلك دهشة من حيث يسمع ما لا يفهم .

ولكن لا يخلو السامع من فائدة ما وهو أن يسمع ، فلعله يمده التوفيق فيعلم أن الأمر فوق ما يظنه ويقدره في ذهنه المختصر وخياله القاصر ، وجد له المزخرف ويصدق أيضاً بما يسمع من الحكايات والمكاشفات التي أخبر عنها الأولياء لله تعالى .

ومن غلبت عليه شقوته وأحاطت به خطيئته ، كذب بهذا كما كذب بما سمع من قبل ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .

الصنف الرابع :

أرباب الأموال فمنهم من يبني المساجد والرباطات والقناطر ، ويأمر بكتب اسمه عليها ، وهو مريد بذلك الصيت والذكر المخلد في الناس ، ويطمع بعد ذلك في المغفرة وهو خطأ وغرور من وجهين :

أحدهما : أنه من الأموال المكتسبة بالظلم والغصب والنهب ، وردها إلى ملاكها والإمساك عن أمثالها أولى بهم من ذلك .

والوجه الثاني : أنهم يريدون به الرياء والسمعة ، حتى لو كلفوا أن ينفقوا ديناراً على موضع ، لا يكتبون عليه أساميهم لا تسمح به نفوسهم ، والله تعالى مطلع عليه سواء كتب اسمه أو لم يكتب ، فيعلم بذلك أن قصده الرياء والسمعة لا غير .

وفرقة أخرى أموالهم من الحلال بنوا بها المساجد فزخرفوها وهو مغرور من وجهين :

أحدهما : أنه لعله ترك فقيراً جائعاً في جواره وهو أولى بذلك .

والآخر : أنه يشغل المصلين عن الصلاة بتلك النقوش والزخارف ، فغروره من حيث أنه رأى المنكر معروفاً .

ويدل عليه ما قاله الحسن رضي الله عنه قال : لما أراد رسول الله ﷺ أن يبني مسجد المدينه أتاه جبريل ﷺ فقال : ابنه سبعة أذرع طولاً في السماء لا تزخرفه ولا تنقشه .

وعلى الجملة فكل من أنفق مالاً على مسكين أو فقير أو موضع فيه خير فليطالب نفسه ، هل تسمح بالإخفاء ، فإن لم تسمح فلعل فيه رياء وإرادة سمعة فإن قلت فما الحيلة بعد هذا التعميم فإنك ذكرت أن جميع هذه الفرق لا تخلو عن أنواع الغرور ، فالجواب أنه لو صح منك الهوى أرشدت للحيل . وإنه ليسير على من يسره الله عليه .

فمن يقدر على استخراج الذهب والفضة من المعادن ، واستصعاد الحوت من أعماق البحور ، واستنزال الطير من الهواء ، لا يعجز عما هو أهون منه . فإذا عرف غوائل الأعمال ، وعلم أن ما سبق ذكره من الرياء والجاه والصيت في الناس لا يبقى ، بل الموت يطوي كل ذلك ، وعلم نفسه وذلها وعرف ربه وعزته وجلاله ، والدنيا وأنها دار الغرور ، والآخرة وأنها دار الحيوان ، فما له لايعمل بعمل لله ، ويحترز من آفاته .

فإن قلت فما الذي يخاف عليه بعد ذلك فأقول : يخاف عليه أن يتسلط عليه الشيطان فيقول : أنت رجل سلمت من هذه الآفات ، فيجب عليك أن تدعو الخلق إلى ذلك وتنصحهم ، وهذا دأب الشيطان فإن من استعصى عليه في الدنيا ، جاءه من قبل الدين .

وقد ذكرنا شرائط الوعظ والنصح فإن وجد نفسه أهلاً بعد استعمال تلك الشرائط فعل ذلك موفقاً إن شاء الله تعالى .

تم ربع المهلكات

* * *

الباب الحادي والثلاثون

في التوبة

وفيه فصول: وهو الأول من ربع المنجيات.

اعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم من ثلاثة أمور: علم وحال وفعل.

فأما العلم فهو معرفة ضرر الذنوب وكونها حجاباً بين العبد، وبين كل محجوب، فإذا وجدت هذه المعرفة ثار منها حال في القلب وهي التألم بخوف فوات المحبوب، وهو الندم وباستيلائه يثور إرادة التوبة، وتلافي ما مضى، فالتوبة ترك الذنب في الحال والعزم على أن لا يعود. وتلافي ما مضى وقد قالﷺ: « الندم توبة » إذ الندم يكون بعد العلم كما ذكرنا.

بيان وجوب التوبة:

دل عليها العقل على ما بينا وفضلها.

اعلم أن الآيات والأخبار دلت على وجوب التوبة. كما قال الله تعالى: **﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾**[2] الآية. وقال: **﴿ إن الله يحب التوابين ﴾**[3].

وقال النبي ﷺ: « **التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له** » وقال ﷺ: « **إن الله أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش ما شاء الله، قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام**

(١) النور ٣١. (٢) التحريم ٨. (٣) البقرة ٢٢٢.

حتى أموت فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها طعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته ».

وقد أجمعت الأئمة على وجوب التوبة، فإن قلت فكيف تجب التوبة وهي ثمرة الندم الحاصل في القلب، وذلك لا يدخل تحت الاختيار. قلنا إنه يدخل سببه تحت الاختيار، وهو طلب علمه. ولذلك قلنا وجب العلم لأنه داخل في التوبة الواجبة. لا لأن العبد يحدثه، بل العلم والندم والفعل والإرادة والقدرة من القادر.

فالله تعالى خلقكم وما تعملون فهذا هو الحق عند ذوي البصائر وما عداه فهو ضلال فإن قلت أليس للعبد اختيار في الفعل والترك قلنا نعم. وهذا لا يناقض قولنا أن الكل من عند الله، بل الاختيار أيضاً من خلق الله تعالى، والعبد مضطر في اختياره، فإن الله تعالى إذا خلق اليد الصحيحة، وخلق الطعام اللذيذ، وخلق الشهوة للطعام في المعدة، وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام مسكن للشهوة، وخلق الخواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة، وهل دون أن يتناوله مانع يتعذر معه تناوله أولا، ثم خلق العلم بأنه لا مانع، فعند اجتماع هذه الأسباب، تنجزم الإرادة الباعثة على التناول.

فهذه الأمور مترتبة في سنة الله تعالى فلا يخلق مثلاً حركة اليد بكتابة منظومة، ما لم يخلق فيها صفة تسمى قدرة، وما لم يخلق فيها حياة وما لم يخلق إرادة. ولا يخلق الإرادة المجزومة، وما لم يخلق شهوة وميلاً في النفس، ولا ينبعث هذا الميل ما لم يخلق علماً بأنه موافق للنفس في الحال أو المآل ولا يخلق العلم أيضاً إلا بأسباب أخر ترجع إلى قدرة وإرادة وعلم، فالعلم والميل الطبيعي أبداً يستتبع الإرادة الجازمة، والإرادة والقدرة أبداً يستردفان الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل، والكل مخلوق لله تعالى، ولكن البعض شرط للبعض، وذلك سنة الله التي خلت في عباده وفي قضائه، الذي هو كلمح البصر ترتيباً كلياً لا يتغير وعنه العبارة بقوله تعالى: **﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾**[1] ومن جملة القدر، خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق القدرة والقصد والعلم والإرادة، فإذا ظهرت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر

(١) القمر ٤٩.

تحت قهر التقدير، سبقت أهل عالم الملك والشهاة والمحجوبون عن عالم الغيب والملكوت. قالوا أيها الرجل قد تحركت وكتبت ورميت، ونودي من وراء حجب الغير وسرادقات الملكوت ﴿ وما رميت إذا رميت ولكن الله رمى ﴾[1] ﴿ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ﴾[2] وعند هذا تحيرت عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة. فمن قائل أنه جبر محض ومن قائل أنه اختراع صرف ومن متوسط قائل أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم صادق من وجه ولكن القصور شامل لجميعهم. فلم يدرك واحد منهم كنه هذه الأمور، وإنما يدرك ذلك بإشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب. وأنه تعالى عالم الغيب والشهادة لا يطلع على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ومن حرك سلسلة الأسباب والمسببات، وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناط تسلسلها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علماً يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه.

فإن قلت قد قضيت بأن كل هؤلاء في الجبر والاختراع والكسب صادق من وجه قاصر من وجه، فأقول نعم وذلك أعرفك بمثال. فأقول:

جماعة من العميان سمعوا أنه حمل إلى بلدهم حيوان عجيب يسمى الفيل، وما كانوا سمعوا به ولا رأوه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ومعرفته باللمس الذي نقدر عليه، فجاؤوا إليه ولمسوه فوقع يد بعضهم على رجله ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه. فقالوا قد عرفنا فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل ما هو إلا مثل أسطوانة خشنة إلا أنه ألين منه، وقال الذي لمس الناب ليس كما تقول، بل هو صلب لا لين فيه وأملس لا خشونة فيه، وليس فيه غلظ الأسطوانة أصلاً بل هو مثل عمود. وقال الذي لمس الأذن إنما هو مثل كساء.

فالآن قد صدق كل واحد منهم إذ أخبر عما وصل إليه من الفيل، ولم يخرج أحد عنه، ولكن أخطأوا إذ ظنوا أنهم أدركوا الكل، فاعتبر بهذا فإنه مثال أكثر ما اختلف فيه الناس.

(1) الأنفال ١٧. (2) التوبة ١٤.

ونرجع إلى الغرض فنقول: قد بينا وجوب التوبة بثلاثة أجزاء، والآن نقول هو واجب على الفور، ولأن الخلع عن المعاصي واجب على الدوام وكذلك طاعة الله واجبة على الدوام.

وقال الله تعالى: ﴿ وتوبوا إلى الله جميعاً ﴾[1] وبه تعلم أيضاً أنه واجب على جميع الناس على العموم وذلك لأنه لا يخلو أحد عن ذنب يصيبه، إما بالجوارح أو بالخواطر، وأقله الذهول والغفلة عن الله تعالى والتوبة عنه، شأن الأنبياء والصديقين، وشأن من لم يرض من حياته بمجرد الوجود، بلا فائدة.

وأما الأولياء الذين شرح الله صدورهم للإسلام وكتب في قلوبهم الإيمان فقد علموا أن كل نفس من أنفاسهم جوهرة نفيسة لا قيمة لها، حتى أن الدنيا وما فيها لو قوبلت بنفس لم تبلغ قيمته، فحافظوا على أوقاتهم وغيرهم تاهوا في غفلاتهم ﴿ حتى إذا جاء أحدهم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين، ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها ﴾[2]، ومعناه أن يقول العبد عند كشف الغطاء، يا ملك الموت أخرني يوماً أعتذر فيه إلى ربي فأتوب وأتزود صالحاً لنفسي، فيقول فنيت الأيام فلا يوم، فيقول أخرني ساعة، فيقول فنيت الساعات فلا ساعة، فيغلق عليه باب التوبة. فيغرغر بروحه وتتردد أنفاسه في أشداقه، ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر، فيضطرب والعياذ بالله أصل إيمانه في صدمات تلك الأهوال.

فإذا زهقت نفسه فإن كانت سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد، فذلك حسن الخاتمة، وإن سبق له القضاء بالشقاوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولمثل هذا قال تعالى: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ﴾[3] الآية.

ولمثل هذا قال تعالى: ﴿ إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب ﴾[4] ومعناه أن يتبع السيئة بالحسنة تمحوها كما ورد في الخبر.

(1) النور ٣١. (2) المنافقون ١٠. (3) النساء ١٨. (4) النساء ١٧.

بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة :

إعلم أنك إذا فهمت معنى القبول ، لم تشك أن كل توبة صحت فلا بد أنها مقبولة . فالناظرون بنور البصيرة إلى أنوار القرآن .

علموا أن كل قلب سليم عند الله تعالى مقبول مستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى .

وعلموا أن القلب خلق سليماً في الأصل ، وإنما تفوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غبرة الذنوب وظلمتها .

وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة ، وأن نور الحسنة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئة .

وأنه لا طاقة لظلمة المعاصي مع نور الحسنات ، كما لا طاقة لظلام الليل مع نور النهار ، وكما لا تبقى كدورة الوسخ مع بياض الصابون ، لا تبقى الذنوب مع نور التوبة والاستغفار والندم ، إلا أن يكون والعياذ بالله قد أفسدت الذنوب جرم القلب لكثرتها ودوامها .

كما قال تعالى في حق الكفار : ﴿ **كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون** ﴾[1] وكما قال الله تعالى : ﴿ **وطبع الله على قلوبهم** ﴾[2] وذلك في حق الكفار والمنافقين .

أما المسلمون فلا ، قال عليه السلام : « **لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم** » .

بيان ما عنه التوبة :

وهي الذنوب كلها ، وقد علمت ذلك فيما سبق ذكره في الصفات المذمومة ، وما يتولد منها من الأعمال . فالتوبة عن الكبائر والصغائر جميعاً وقد قيل لا صغيرة مع الإصرار ، ولا كبيرة مع الاستغفار .

فإذا عرفت ذلك فاعلم أن ما يتعلق به حق الغير ، لا تصح التوبة عنه إلا بتحكيمه وتفويض الأمر إليه ، كالقصاص والمظالم وأنواع الغرامات ، وحد

(١) المطففين ١٤ .   (٢) التوبة ٩٣ .

القذف ، هذا لمن أراد التوبة ، ومن امتنع عنها ، فطريق حل عقدة الإصرار عن قلبه ، أن تخوفه بما ورد من الآيات والأخبار في أحوال المذنبين .

ونذكره بحال من مات على الفسق والتسويف قبل التوبة وعقوبته ، ونبين له أن العقوبة قد تعجل في الدنيا ، حتى أنه إن كان أعمى عن عقوبة الآخرة ، فلعله أن يخاف الخذلان في الدنيا والله أعلم .

الباب الثاني والثلاثون

في الصبر والشكر

اعلم أن الإيمان نصفان، نصف صبر ونصف شكر، على ما شهدت به الأخبار والآثار.

أما الصبر فقد قال الله تعالى في الثناء عليه: ﴿ **وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **وتمت كلمة ربك الحسنى على بني إسرائيل بما صبروا** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **ولنجزين الذين صبروا** ﴾[3] وسئل عليه السلام عن الإيمان فقال: «**الصبر والسماحة**» وقال عليه السلام: «**الصبر كنز من كنوز الجنة**».

بيان حقيقة الصبر:

اعلم أنه مركب من العلم والحال والعمل، فالعلم فيه كالشجر، والحال كالأغصان والعمل كالثمار، فتعلم أن المصلحة الدينية في الصبر. فتورث ذلك قوة وداعية متقاضية لفعل الصبر.

وذلك إما على عبادة أو عن إمضاء شهوة، وهو في جميع الأحوال مفتقر إلى نوع من الصبر، حتى لا يتجاوز في المباحات عن حد الإعتدال إلى حد الإسراف.

وأما الصبر على العبادة بأن يعلم أنه يصبر أياماً قلائل ويسعد في مقابلته أبد الآبدين، ويحتاج فيه إلى الصبر عن إفشائه وإفساده بالرياء.

وأعظم الصبر ما يلزمه في الإمساك عن الشهوات، والإسترسال على موجبها كما سبق ذكره. ومما يلزمه الصبر عليه هو أن يجني عليه إنسان، بقول أو فعل.

(١) الانبياء ٧٣. (٢) الاعراف ١٣٧. (٣) النحل ٩٦.

قال بعض الصحابة رضي الله عنهم، ما كنا نعد إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى، وقال تعالى: ﴿ **ولنصبرن على ما آذيتمونا، وعلى الله فليتوكل المتوكلون** ﴾[1].

وهذا الصبر تارة على نفس الفعل واحتماله وتارة على المكافأة وفيهما تمام الإيمان.

القسم الآخر: ما يهجم من غير اختيار كالمصائب من الأمراض، وذهاب العين، وفساد الأعضاء، وموت الأعزاء. قال ابن عباس رضي الله عنه: الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه: صبر على أداء الفرائض لله تعالى فله ثلاثمائة درجة، وصبر عن محارم الله تعالى وله ستمائة درجة، وصبر في المصيبة عند الصدمة الأولى وله تسعمائة درجة.

وقد قيل أن الصبر الجميل، هو أن لا يعرف من صاحب المصيبة، ولا يمكن الوصول إلى هذا إلا برياضة طويلة في مدة مديدة والله أعلم.

أما الشكر ففضيلته أن الله تعالى قرنه بالذكر، مع أنه قال: ﴿ **ولذكر الله أكبر** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون** ﴾[3] وقال تعالى: ﴿ **وسيجزي الله الشاكرين** ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾[5] ومن الأخبار قوله عليه السلام: «**الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر**».

والشكر أن يعرف أنه لا منعم إلا الله ثم إذا عرفت تفاصيل نعمة الله عليك في أعضائك وجسدك وروحك، وجميع ما تحتاج إليه من أمور معيشتك، ظهر في قلبك فرح بالله وبنعمته وتفضله عليك. ثم تحرص في العمل بموجبه وذلك بالقلب واللسان وسائر الجوارح.

أما بالقلب فبأن يضمر الخير لجميع الخلق ويحضره أبداً في ذكر الله تعالى، فلا ينساه.

(١) إبراهيم ١٢. (٢) العنكبوت ٤٥. (٣) البقرة ١٥٢.
(٤) آل عمران ١٤٤. (٥) سبأ ١٣.

وأما باللسان فتظهر به الشكر بالتحميدات الدالة عليه .

وأما بالجوارح فباستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقي من الاستعانة بنعمته على معصيته ، فشكر العين أن تستر كل عيب تراه من مسلم ، ولا تنظر بها إلى المعاصي . وشكر الأذنين أن تستر ما تسمع من العيوب ولا تسمع بهما إلا ما أباح لك .

وقد قال ﷺ لرجل : «**كيف أصبحت؟ قال بخير. فأعاد السؤال فأعاد الجواب حتى قال في الثالثة بخير أحمد الله تعالى وأشكره** » قال ﷺ : « **هذا الذي أردت منك** » وكل أحد إذا سئل عن شيء ، فهو بين أن يشكر فيكون به مطيعاً ، أو يشكو فيكون به عاصياً .

فإن قال قائل ما معنى الشكر ، والشكر نعمة تامة من الله تعالى . فنقول هذا السؤال قد خطر ببال داود وموسى عليهما السلام ، فقال موسى عليه السلام : كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة تابعة من نعمك . فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني .

وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعم مني رضيت بذلك منك شكراً ، فإن قلت لم أفهم هذا الجواب فإن العلم أيضاً نعمة منه ثالثة . فاعلم أن هذا فرع باب من التوحيد ، وهو أنه الشاكر والمشكور والمحب والمحبوب . ولا شيء في الوجود سوى الله ، وإن كل شيء هالك إلا وجهه وهذا صدق أزلاً وأبداً إذ ليس في الوجود شيء سوى الله ، له قيام بذاته ، فهو القائم بذاته .

وكل ما سواه فقائم به فهو القيوم الحي ، فإذاً ليس في الوجود غير القيوم الحي ، فهو الشاكر والمشكور والمحب والمحبوب ، ومن ها هنا نظر حبيب بن حبيب حيث قرأ قوله تعالى : ﴿ **إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب** ﴾[1] فقال واعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على عطائه فعلى نفسه أثنى ، فهو المثني وهو المثنى عليه .

ومن ها هنا نظر الشيخ أبو سعيد الميهني ، حيث قرىء بين يديه ، يحبهم ويحبونه ، فقال لعمري يحبهم ودعه يحبهم ، فبحق يحبهم لأنه إنما يحبهم لنفسه ، أشار

(١) صٓ ٤٤ .

به إلى أنه المحب وأنه المحبوب ، وهذه رتبة عالية لا تصل إلى فهمك إلا بمثال على قدر عقلك .

وذلك أنه لا يخفى عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه ، والصانع إذا أحب صنعته فقد أحب نفسه ، والوالد إذا أحب ولده من حيث أنه ولده فقد أحب نفسه ، وكل ما في الوجود سوى الله تعالى ، فهو تصنيف وصنعة فإن أحبه فما أحب إلا نفسه ، وهذا نظر بعين التوحيد .

وإليه الإشارة بقول الصوفية ، حيث يقولون : فني عن نفسه وعن غيره فلم ير إلا الله ، والناس لا يفهمون هذا ، فينكرون عليهم ، ويقولون كيف فني وطول ظله كما كان ، وهو في اليوم والليلة يأكل أرطالاً من الطعام ، ويضحكون عليهم من جهلهم ، وشرط العارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين ، وإليه الإشارة بقوله تعالى : ﴿ **إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون** ﴾ . إلى قوله : ﴿ **فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون** ﴾[1] الآية .

رجعنا إلى ما كنا فيه ، فنقول الشكر هو استعمال النعمة في الطريق الذي خلق له ، ومثاله أن ملكاً بعث إلى بعض غلمانه فرساً بجميع ما يحتاج إليه ليركب عليه ، فإن ركبه واستعمله في الطريق الذي بعث له كان مستعملاً للنعمة فيما هي له ، وإن ركبه وتباعد عن الملك فهو سفه وكفران للنعمة ، فافهم تغنم والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب .

(١) المطففين ٢٩ .

الباب الثالث والثلاثون

في الرجاء والخوف

اعلم أن الرجاء من مقامات السالكين وأحوال الطالبين، وإنما يسمى الوصف حالاً ما دام يعرض ويزول، ويسمى مقاماً إذا ثبت فتقول إعلم أن المنتظر فيما بعد إذا كان مما لم يتألم به القلب سمي خوفاً.

وإذا كان مما يفرح به القلب سمي رجاء، فإذا الرجاء ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب، ولكن ذلك المحبوب لا بد وأن يكون له سبب، فإن كان قد حصل أكثر أسبابه فيصدق اسم الرجاء عليه، وإن كان انتظاراً مع انخرام أسبابه فاسم الغرور عليه أصدق، وإن تعادل طرفا حصول الأسباب وانتفائها كان اسم التمني عليه أصدق.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، القلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى سقي الماء وقلب الأرض وإمدادها بما يقويها، والقلب المستتر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقلما ينمو الإيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه.

كما لا ينمو بذر في الأرض السبخة، فمن استجمعت له الأسباب من الأرض الطيبة والماء والمدد وتطهير الأرض، كما سبق وألقى فيها بذاراً جيداً، ثم انتظر على الحصاد، راجياً من فضل الله تعالى دفع الصواعق، والآفات المفسدة فهذا له وجه ويسمى رجاء، وإن بث البذر في الأرض الصلبة السبخة التي لا ماء لها وانتظر الحصاد فهذا يسمى غروراً.

وإن بث البذر في أرض طيبة ولكن لا ماء لها وانتظر الحصاد اعتماداً على ماء المطر فهذا يسمى تمنياً، فقد تبين لك أن من زرع الإيمان في قلبه، وسقاه بماء الطاعات وطهر القلب عن الخبائث، كما تطهر الأرض من الشوك والحشيش فله أن يرجو.

وما دون ذلك فتمن أو غرور وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: **«الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت»** والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن مثل ذلك فقال تعالى: ﴿ **فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا** ﴾[1] بين أن هذا الرجاء لا أصل له إذا لم يتقدم عليه ما ينبغي أن يقدم.

ويدل عليه أيضاً ما روي عن زيد الخيل أنه قال لرسول الله ﷺ: **«جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال: كيف أصبحت قال: أصبحت أحظ الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه أيقنت بثوابه، وإن فاتني شيء منه حزنت عليه وحننت إليه، فقال: هذا علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هيأك لها، ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت»** فقد ذكر ﷺ علامة من أريد به الخير ويحصل منه الرجاء.

بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه:

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف، لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبهم إليه، والحب يغلب بالرجاء.

فإن رجاء الخير يقرب ويحبب، والخوف موجب للهرب، وإليه الاشارة بقوله عليه الصلاة والسلام: **«لا يموت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله»** ودخل ﷺ على رجل وهو في النزع فقال: **«كيف تجدك فقال أجدني أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي»** فقال ﷺ: **«ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله تعالى ما رجا وآمنه مما يخاف»**.

---

(١) الأعراف ١٦٩.

فصــــل

اعلم أن من غلب عليه اليأس حتى أورثه القنوط، أو غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله، فهذان يحتاجان إلى المعالجة بالمداواة.

وأما من غلب عليه الأماني فأسباب الرجاء سم قاتل في حقه فهو كالعسل فيه شفاء لمن غلبت عليه البرودة، فإن تناوله المحرور هلك. فمن غلب عليه التمني وأسرف في المعاصي جدير بأن يعالج بما يورث الخوف عولج بالرجاء، فهما شطران يسقى بكل واحد منهما من له حالة مخصوصة.

قال علي رضي الله عنه: إنما العالم الذي لا يقنط الناس من رحمة الله، ولا يؤمنهم من مكر الله، ولما كان العلماء ورثة الأنبياء، كانوا أطباء القلوب، واستعملوا ما كان لائقاً بحال كل مريض، ومن الدواء النافع في جلب الرجاء، أن يتأمل الانسان فيما أنعم الله تعالى به عليه، من صحة البدن وسلامة الاعضاء، ثم بعثه الأنبياء لهدايته، ثم خلق الأطعمة والأشربة والادوية لإصلاحه.

ومما يقوي أسباب الرجاء ما قاله سبحانه وتعالى: **﴿يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً﴾**[1]. وقال تعالى: **﴿والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض﴾**[2]. وقال تعالى: **﴿من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده﴾**[3] بين أنه يخوف المؤمنين إلا أنها للكافرين لأنها خلقت لهم.

وقد روى أبو موسى الأشعري أنه ﷺ قال: **«أمتي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة»** والآيات والأخبار الواردة في هذا الباب أكثر من أن تحصى.

وقد ورد في حديث طويل عن أنس: أن الأعرابي لما قال لرسول الله ﷺ يا رسول الله من يلي حساب الخلق يوم القيامة قال: **«الله عز وجل. فقال: هو بنفسه. قال: نعم فتبسم الأعرابي فقال رسول الله ﷺ: مم ضحكت يا أعرابي. فقال: إن الكريم إذ قدر عفا، وإذا حاسب سامح. قال النبي ﷺ: صدق الأعرابي ألا ولا كريم**

---

(١) الزمر ٥٣. (٢) الشورى ٥. (٣) الزمر ١٦.

أكرم من الله تعالى وهو أكرم الأكرمين. ثم قال ﷺ: فقه الأعرابي». وقال ﷺ: **«قال الله تعالى سبقت رحمتي غضبي»**.

الشطر الثاني في الخوف وقد بينا معنى الخوف:

اعلم أن الخوف والرجاء زمامان يقاد بهما من لم يظهر لقلبه جمال الحق، فمن شاهد بقلبه ذلك الجمال ترقى عن الخوف أو الرجاء إليه الإشارة بقول الواسطي: الخوف حجاب بين الله وبين العبد، وقال أيضاً: إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضيلة لا لرجاء ولا لخوف.

وعلى الجملة إذا وصل المحب إلى جمال المحبوب، فالتفاته إلى خوف الفراق مضيع للوصال، ولكنا نتكلم في أوائل المبدأ فعند هذا نقول دواء جلب الخوف أن ينظر ويتأمل في الآيات الواردة في شدة العذاب والحساب، والأخبار الواردة في ذلك، ويتأمل أيضاً حال نفسه بالنسبة إلى جلال الله وعظمته. وقوله تعالى **هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي** ويعلم أنه بجنايته وتركه أوامر الله وارتكابه المناهي مستحق للعقاب الأليم.

والله تعالى لو أهلك العالمين فهو لا يبالي وهذا المسكين قد ارتكب الجرائم والآثام، فهو أولى بأن يخاف، فإنه إن أهلك لم يبال به، فكيف وسيد المرسلين يقول: **«أنا أعلمكم بالله وأخشاكم لله»** وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود خفني كما تخاف السبع الضاري، وحقيقة السبع أنه مهلكك ولا يبالي.

وقد قال ﷺ: **«من خاف من الله خافه كل شيء ومن خاف غير الله خاف من كل شيء»** وقالت عائشة رضي الله عنها **«قلت يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أهو الرجل يسرق ويزني قال لا بل يصوم ويتصدق ويصلي ويخاف أن لا يقبل منه»** وقال النبي ﷺ: **«ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دموع وإن كانت مثل رأس الذباب من خشية الله تعالى ثم يصيب شيئاً وقت خروجه إلا حرمه الله على النار»**.

بيان أحوال الأنبياء في الخوف:

روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه ويقوم ويتردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفاً من عذاب الله تعالى وقرأ عليه السلام آيات في سورة الحاقة فصعق.

وقال تعالى: ﴿وخرَّ موسى صعقاً﴾[1] ورأى رسول الله ﷺ صورة جبريل في الأبطح فصعق. وقال ﷺ: ما جاءني جبريل قط إلا وهو يرعد خوفاً من الجبار جل جلاله. وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام. يبكيان فأوحى الله تعالى إليهما، ما لكما تبكيان كل هذا البكاء، فقالا يا رب ما أمنا من مكرك، فقال تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكري.

قال أبو الدرداء: كان يسمع أزيز قلب خليل الرحمن عليه السلام إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفاً من ربه. وقال مجاهد رضي الله عنه بكى داود عليه السلام أربعين يوماً ساجداً لا يرفع رأسه حتى نبت المرعى من دموعه، وحتى غطى رأسه فنودي يا داود أجائع أنت فتطعم، أم ظمآن فتسقى، أم عار فتكسى، فتنفس الصعداء، فاحترق العود من حر جوفه فأنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة. فقال: يا رب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يبسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيرهما إلا رآها فأبكته.

قال وكان يؤتى بالقدح ثلثاه ماء فإذا تناوله أبصر خطيئته فلا يضعه على شفته حتى يفيض من دموعه.

وروي عنه عليه السلام أنه ما رفع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله تعالى، وكان يقول في مناجاته إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلي روحي، سبحانك إلهي أتيت أطباء عبادك ليداووا خطيئتي، فكلهم عليك يدلني فبؤساً للقانطين من رحمتك.

وقال الفضيل رحمة الله عليه بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صاعقاً واضعاً يده على رأسه حتى لحق بالجبال، فاجتمعت إليه السباع فقال: ارجعوا فلا اريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا باكياً. ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداود الخطاء، وكان يعاقب في كثرة البكاء، فيقول: دعوني ابكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحرق العظام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمر في ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

(١) الاعراف ١٤٣.

وقال عمر بن عبد العزيز لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي بح صوتي في صفاء أصوات الصديقين.

وروي أنه عليه السلام لما طال بكاؤه ولم ينفعه ذلك، فضاق ذرعه واشتد غمه، قال يا رب أما ترحم بكائي؟ فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدي كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كف الماء الجاري عن جريه، وسكن هبوب الريح، وأظلني الطير على رأسي، وأنست الوحوش إلى محرابي، إلهي وسيدي فما هذه الوحشة التي بيني وبينك، فأوحى الله تعالى إليه: يا داود ذاك أنس الطاعة وهذه وحشة المعصية، يا داود آدم خلق من خلقي خلقته بيدي، ونفخت فيه من روحي، وأسجدت له ملائكتي، وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقاري، وشكى إلي الوحدة فزوجته بحواء أمتي، وأسكنته جنتي، فلما عصاني طردته من جواري عرياناً ذليلاً. يا داود اسمع مني والحق أقول أطعتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأمهلناك، وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلناك.

وقال يحيى بن بكير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن يخرج مكث قبل ذلك سبعاً لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء، فإذا كان قبل ذلك بيوم أخرج له منبر إلى البرية فيأمر سليمان أن ينادي بصوت يستقرى البلاد وما حولها من الغياض والآكام والبراري، وتأتي السباع من الغياض وتأتي الهوام من الجبال وتأتي الطير من الأوكار، وتأتي العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم. ويأتي داود عليه السلام حتى يرقى على المنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته محيطون به، وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الثناء على ربه فيضجون بالبكاء والصريخ، ثم يأخذ في ذكر الجنة فيموت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع، ثم يأخذ في أهوال يوم القيامة وفي النياح على نفسه فيموت من كل نوع طائفة، فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبتاه قد مزقت المستمعين كل ممزق، وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء، فبينما هو كذلك، إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل يا داود عجلت بطلب الجزاء على ربك، قال فخرَّ داود مغشياً عليه فلما نظر سليمان عليه السلام إلى ما أصابه أتى بسرير فحمله عليه، ثم أمر منادياً ينادي ألا من كان له مع داود قريب أو حميم فليأت بسريره فليحمله عليه فإن الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار. وكانت المرأة تأتي

بالسرير وتحمل قريبها، وتقول يا من قتله ذكر الجنة يا من قتله خوف الله تعالى، ثم أفاق داود عليه السلام، ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه وقال يا إلّه داود أغضبان أنت على داود، ولا يزال يناجي، حتى يأتي سليمان عليه السلام، ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه قرص شعير، ويقول: يا أبتاه تقو بهذا على ما تريد. فيأكل من ذلك القرص ما شاء الله تعالى. ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيحكم بينهم.

وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم للناس يعظهم ويخوفهم فخرج في أربعين ألفاً فمات ثلاثون ألفاً ومارجع إلا في عشرة آلاف وكان له جاريتان اتخذهما، حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب فعدتا على صدره ورجليه مخافة أن تتفرق أعضاؤه.

وقال أبو بكر رضي الله عنه لطير ليتني كنت مثلك يا طير، ولم أخلق بشراً، وقال أبو ذر وددت أني شجرة تعضد. وقال عثمان رضي الله عنه: وددت أني إذا مت لم أبعث. وقالت عائشة رضي الله عنها: وددت أني لو كنت نسياً منسياً. وكان في وجه عمر رضي الله عنه خطان أسودان من الدموع. وقال عمر رضي الله عنه: من خاف الله لم يشف غيظه، ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان غير ما ترون.

قال علي رضي الله تعالى عنه ذات يوم وقد سلم من صلاة الفجر، وقد علاه كآبة وهو يقلب يده: لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فلم أر اليوم شيئاً يشبههم، لقد كانوا يصبحون صفراً شعثاً غبراً بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا لله سجداً وقياماً يتلون كتاب الله يزاوجون بين جباههم وأقدامهم، وإذا أصبحوا وذكروا الله مادوا كما تميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم. والله كاني بأقوام باتوا غافلين. ثم قال: فما رؤي بعد ذلك ضاحكاً حتى ضربه ابن ملجم.

وكان عمر رضي الله تعالى عنه إذا سمع آية من القرآن يسقط من الخوف مغشياً عليه فكان يعاد أياماً وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال يا ليتني كنت هذه التبنة يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً يا ليتني لم تلدني أمي يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وكان علي بن الحسين رضي الله عنه إذا توضأ اصفرَّ لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء، فيقول اتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وروي أن الفضيل رضي الله عنه رؤي يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الثكلى المحترقة، حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال واسوأتاه منك وإن غفرت لي. ثم انقلب مع الناس.

وسئل ابن عباس رضي الله عنه عن الخائفين فقال: قلوبهم من الخوف قريحة وأعينهم باكية يقولون كيف نفرح والموت وراءنا، والقبر أمامنا والقيامة موعدنا، وعلى جهنم طريقنا وبين يدي ربنا موقفنا. وكان حماد بن عبد ربه إذا جلس جلس مستوفزاً على قدميه فيقال له لو اطمأننت، فيقول تلك جلسة الآمنين وأنا غير آمن إذا عصيت الله عز وجل.

وقال عمر بن عبد العزيز إنما جعل الله تعالى هذه الغفلة، رحمة في قلوب عباده، كيلا يموتوا من خشية الله تعالى، وروي أن فتى من الانصار دخلته خشية من النار فدخل النبي ﷺ فاعتنقه فخر ميتاً فقال ﷺ: **«جهزوا صاحبكم فإن الفرق فتت كبده»** فافهم تغنم والله أعلم بالصواب وإليه المرجع والمآب.

الباب الرابع والثلاثون

في الفقر والزهد

قال الله تعالى: **﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾**(١).

اعلم أن الفقير من احتاج إلى ما ليس يملك والناس كلهم فقراء إلى الله تعالى لأنهم محتاجون إليه في دوام وجودهم، وابتداء وجودهم منه، وليس لهم ذلك بل ذلك لله تعالى، فهو الغني المطلق. ونحن الآن نذكر فقير المال، وهو أن لا يكون له مال يحتاج إليه لمعيشته.

وللفقير أحوال فمنها أن يكون كارهاً لوجود المال هارباً منه وهو الزاهد.

الثاني: أن يكون بحيث لا يهرب منه. ولا يرغب فيه، ولكن إذا وجد لا يكرهه، وهو الراضي.

الثالث: أن يكون وجود المال أحب إليه من فقده، إذا جاء عفواً صفواً. ولكن لا ينهض للطلب.

الرابع: أن يكون مريداً للمال راغباً فيه ولكن ترك الطلب للعجز.

الخامس: أن يكون ما فقده من المال يضطر إليه، كالجائع الفاقد للخبز، والعاري الفاقد للثوب، لنفسه أو عياله. فصاحب هذه الحالة إن خلا عن الرغبة، وهو من النوادر، فهو الزاهد الحقيقي.

وأعلى من هذه الأحوال كلها أن يكون وجود المال وعدمه عنده سواء قلَّ المال الذي بيده أو كثر لا يبالي ولا يمنع طالباً ولا يخطر حاجة نفسه بباله، كما نقل عن

(١) فاطر ١٥.

عائشة رضي الله عنها أنها أتاها مائة ألف درهم من العطاء، ففرقتها ولم يخطر ببالها حاجتها إلى شيء للافطار، حتى قالت لها خادمتها لو اشتريت لنا بدرهم لحماً كنا نفطر عليه، قالت لو ذكرتيني لفعلت.

فصل
في فضيلة الفقر

وقد روى ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: **«أي الناس خير؟ فقالوا موسر من المال يؤدي حق الله تعالى في نفسه وماله. فقال ﷺ نعم الرجل هذا وليس به. قالوا فمن يا رسول الله خير الناس، فقال ﷺ فقير يعطي جهده»**.

وفي الخبر المشهور تدخل فقراء أمتي الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام، روي أن عيسى ﷺ مر برجل نائم على التراب وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متزر بعباءة فقال: يا رب عبدك هذا في الدنيا ضائع فأوحى الله تعالى إليه يا عيسى أما علمت أني إذا نظرت إلى عبدي بوجهي كله زويت عنه الدنيا كلها.

وقال ﷺ: **«إن لي حبيبين اثنين فمن أحبهما فقد أحبني ومن أبغضهما فقد أبغضني الفقر والجهاد»**، وروي أن جبريل ﷺ نزل على رسول الله ﷺ فقال: **«يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام ويقول لك أتحب أن أجعل لك هذه الجبال ذهباً وتكون معك حيثما كنت؟ فأطرق رسول الله ﷺ ساعة ثم قال: يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ويجمعها من لا عقل له، فقال جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت»**.

وروي أن عيسى عليه السلام مر في سياحته برجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه فقال: يا نائم قم فاذكر الله فقال ما تريد مني إني قد تركت الدنيا لأهلها. فقال له فنم إذاً حبيبي. وقال رسول الله ﷺ: **«اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء. واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء»**.

وقال عليه السلام: **«يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بالثواب لفقركم وإلا فلا»**. وأوحى الله تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم، قال ومن هم، قال الفقراء الصادقون.

فإذاً للفقراء فضيلة قد نطقت بها الأخبار والآثار، ولا بأس بالاكتساب من

المال، وقال ﷺ : **«اللهم اجعل قوت آل محمد كفافاً»** وبعد الكفاف ما زاد عليه فهو منقصة وإمساكه يوجب نقصان الدرجة كما نطقت به الأخبار.

فصـــل

اعلم أن الأخبار دلت على تحريم السؤال فمنها قوله ﷺ : **«من سأل عن ظهر غنى فإنما يستكثر من نار جهنم» وقد ورد أيضاً ما يدل على الرخصة في السؤال ويدل عليه قوله** ﷺ : **«للسائل حق وإن جاء على فرس»** ولولا أنه جائز لما كان له حق البتة. فإذاً السؤال إنما يرخص فيه بقدر الضرورة والحاجة، وما زاد على ذلك فلا سبيل الى الرخصة فيه.

بيان أحوال السائلين:

كان بشر يقول الفقراء ثلاثة: فقير لا يسأل وإن اعطى أخذ، فهذا مع المقربين في جنات الفردوس، وفقير يسأل عند حاجته فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين. فتبين بهذا حال الفقراء الخمس، التي شرحناها في صدر هذا الباب وإن السؤال وإن كان عن ضرورة أو حاجة فلابد وأن ينقص من الدرجة.

وقال إبراهيم بن أدهم لشقيق بن إبراهيم حين قدم عليه من خراسان: كيف تركت الفقراء من أصحابك؟ قال تركتهم فإن اعطوا شكروا وإن منعوا صبروا، وظن أنه لما وصفهم من ترك السؤال قد أثنى عليهم عند إبراهيم، قال له إبراهيم: هكذا تركت كلاب بلخ، قال له شقيق: كيف الفقراء عندك يا أبا إسحاق؟ فقال: الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن اعطوا آثروا. فقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ.

واعلم أنه قد يعرض من الأحوال لبعض الأشخاص ما يكون للسؤال في حقه فضيلة زائدة على تركه. وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا الحسن النوري يمد يده ويسأل الناس في بعض المواطن قال فعظم عندي. فذكرته للجنيد فقال: فلا يعظم هذا عليك فإن النوري لم يسأل الناس إلا ليعطيهم وإنما يسألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجروا من حيث لا يضره، وكأنه أشار به إلى قوله ﷺ : **«يد المعطي هي العليا»** فقال بعضهم يد الأخذ للمال لأنه يعطي الثواب والقدر له لا لما يأخذه.

ثم قال الجنيد رضي الله عنه: هات الميزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة

فألقاها على المائة الموزونة ثم قال احملها إليه، فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء ليعرف مقداره فكيف خلط به مجهولاً، وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النوري فقال هات الميزان فوزن مائة وقال ردها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئاً وأخذ ما زاد على المائة. قال: فزاد تعجبي قال فسألته فقال: الجنيد رجل حكيم احب أن يأخذ الحبل بطرفيه وزن المائة لنفسه طلباً لثواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن لله عز وجل، فأخذت ما كان لله عز وجل ورددت ما جعله له قال فرددتها إلى الجنيد فبكى ثم قال: أخذ ماله ورد مالنا فالله المستعان.

فانظر الآن كيف صفة قلوبهم وأحوالهم وكيف أخلصوا لله تعالى أعمالهم حتى شاهد كل واحد قلب صاحبه من غير مناطقة باللسان.

الشطر الثاني: الزهد وحقيقة الزهد أن يرغب عن شيء، ويعدل إلى غيره. فمن ترك فضول الدنيا ورغب عنها ورغب في الآخرة فهو زاهد في الدنيا.

وأعلى درجات الزهد أن ترغب عن كل ما سوى الله تعالى حتى عن الآخرة. والزهد لابد له من علم أن الآخرة خير من الدنيا. وعمل صادر عن حال هو تمام الرغبة في الآخرة.

والعمل تسليم الثمن بحفظ القلب والجوارح عما يناقض هذا البيع، ويدل على فضيلة الزهد جميع الآيات والأخبار الواردة قال تعالى: **﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾**[١] وقال تعالى: **﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه، ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب﴾**[٢].

وقال ﷺ : **«من أصبح وهمه الدنيا شتت الله تعالى عليه أمره، وفرق عليه ضيعته، وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له. ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه، وحفظ عليه ضيعته، وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة».**

وقال ﷺ : **«إذا رأيتم العبد قد أوتي صمتاً وزهداً في الدنيا فاقربوا منه، فإنه يلقي الحكمة»** وقال عليه السلام: **«إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا يحبك الله».**

(١) الكهف ٧. (٢) الشورى ٢٠.

ولما قال حارثة لرسول الله ﷺ : **«أنا مؤمن حقاً قال: وما حقيقة إيمانك، فقال: عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها. وكأني بالجنة والنار، وكأني بعرش ربي بارزاً»**. فقال ﷺ عرفت فالزم، عبد نور الله قلبه بالإيمان.

ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى: **﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾**(1) وفي قوله تعالى: **﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام﴾**(2) وقيل ما هذا الشرح فقال ﷺ : **«إن النور إذا دخل القلب انشرح له الصدر فانفتح، قيل يا رسول الله وهل لذلك علامة قال نعم التجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله»**.

وقال جابر رضي الله عنه خطبنا رسول الله ﷺ قال: **«من جاء بلا إلّه إلا الله لا يخلط معها غيرها دخل الجنة»** فقال علي رضي الله عنه بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما لا يخلط بها غيرها فسره لنا، فقال عليه السلام: **«حب الدنيا طلباً لها واتباعاً لها. قوم يقولون قول الأنبياء ويعملون أعمال الجبابرة فمن جاء بلا إلّه إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة»**.

وفي الخبر السخاء من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك.

بيان درجات الزهد وله ثلاث درجات:

الأولى: أن يتكلف الزهد في الدنيا، ويجاهد نفسه في تركها مع اشتهائها، فهذا متزهد ولعله يديم، فيصل إلى الزهد.

الثانية: أن يزهد في الدنيا طوعاً لاستحقاره إياها بالاضافة إلى ما طمع فيه، كالذي يترك درهماً لأجل درهمين وهذا لا يشق عليه، ولكنه لا يخلو عن ملاحظة ما تركه وملاحظة حالة نفسه وهذا أيضاً فيه نقصان.

الثالثة وهي العليا: وهي أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده، إذ لا يرى أنه ترك

(1) الزمر ٢٢. (2) الانعام ١٢٥.

شيئاً لمعرفته بأن الدنيا لا شيء. فيكون كمن ترك خزفة وأخذ جوهرة. فلا يرى ذلك معارضة، والدنيا بالنسبة إلى الآخرة لا نسبة بينهما.

قال أبو يزيد رضي الله عنه، لأبي موسى عبد الرحمن، في أي شيء تتكلم؟ قال: في الزهد، قال: في أي شيء قال في الدنيا، فنفض يده فقال ظننت أنه يتكلم في شيء الدنيا لا شيء، يزهد فيه.

ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب المعمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه عن باب الملك كلب، فألقى إليه لقمة من الخبز فشغله بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك، حتى أنفذ أمره في جميع مملكته. أفترى أنه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما يناله، والشيطان كلب على باب الملك، وهو الله تعالى، يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في الحال. وتفنى على قرب بالابتلاع، ثم تبقى ثقيلة في المعدة، ثم تنتهي إلى النتن، وتحتاج إلى إخراج التفل، فمن تركها لينال عند الملك قرباً، كيف يلتفت إليها.

ونسبة الدنيا أعني ما يسلم لكل واحد منها بالنسبة إلى الآخرة أقل من لقمة بالاضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة لمتناه إلى ما لا نهاية له، والدنيا متناهية على القرب ولو تمادت ألف ألف سنة صافية عن الكدورات، فمصيرها إلى الزوال.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن أعلى الدرجات أن تزهد فيما سوى الله تعالى، طلباً لوجهه وذلك بمعرفته وعلو رتبته، فلا تأخذ من المطعم والملبس والمنكح والمسكن وكل ما أنت محتاج إليه إلا قدر الضرورة الذي به قوام بدنك، وما تقدر به على المدافعة، هذا هو الزهد الحقيقي والله أعلم.

***

الباب الخامس والثلاثون

في التوحيد والتوكل

أما التوكل ففضيلته تعرف بالآيات والأخبار قال الله تعالى: **﴿وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين﴾**[١].

وقال تعالى: **﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾**[٢] وقال تعالى: **﴿إن الله يحب المتوكلين﴾**[٣].

وقال عليه السلام فيما رواه ابن مسعود: **«رأيت الأمم في الموسم فرأيت أمتي قد ملأوا السهل والجبل فأعجبني كثرتهم وهيئتهم فقيل لي أرضيت قلت نعم، قال ومع هؤلاء سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب قيل من هم قال الذين لا يكتوون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال يا رسول الله ادع الله تعالى أن يجعلني منهم فقال ﷺ اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال ادع الله تعالى أن يجعلني منهم فقال ﷺ سبقك بها عكاشة»**.

قال ﷺ: «لو أنكم تتوكلون على الله تعالى حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً» ولما قرأ الخواص رضي الله تعالى عنه قوله تعالى: ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾[٤] إلى آخر الآية. قال: لا ينبغي للعبد بعد هذه أن يلتجىء إلى أحد غير الله تعالى.

(١) المائدة ٢٣. (٢) الطلاق ٣.
(٣) آل عمران ١٥٩. (٤) الفرقان ٥٨.

فصـــل

في بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل ودرجاته

فاعلم أن معنى التوحيد الذي هو أصل التوكل ما يترجمه قولك: لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالقدرة التي يترجمها قولك: له الملك. والإيمان بالجود والحكمة التي يدل عليها قولك: وله الحمد فمن غلب معنى هذه الجملة على قلبه صار متوكلاً.

وأصل ذلك التوحيد وله اربع مراتب:

فهو ينقسم إلى لب وإلى لب اللب وإلى قشر اللب وقشر القشر كالجوز.

الأول: الإيمان بالقول المحض قشر القشر وهو إيمان المنافقين والعياذ بالله.

الثاني: التصديق بمعنى الكلمة وهو إيمان عموم المسلمين.

الثالث: أن يشاهد ذلك بطريق الكشف، وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أسباباً كثيرة ولكن مع كثرتها صدرت من الواحد القهار.

الرابع: أن لا يرى إلا واحداً وهو مشاهدة الصديقين، وتسمية الصوفية الفناء في التوحيد، فلا يرى نفسه لكون باطنه مستغرقاً بالواحد الحق وهو المراد بقول أبي يزيد أنساني ذكر نفسي.

فالأول: هو الإيمان باللسان وحده، ولا ينفع إلا في دفع السيف وعصمة المال والدم. لقوله عليه السلام: **«فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم»**.

والثاني: موحد، بمعنى أن يعتقد بقلبه معنى الكلمة خالياً عن شك فيه، ولكن لا انشراح في باطنه، فهذه الحالة تحفظ صاحبها عن العذاب في الآخرة إن توفي عليها، ولم يضعها بالمواظبة على المعاصي. ولهذا العقد تتطرق حيلة المبتدع بالنقص وحيلة المتكلم بدفع النقص.

الثالث: موحد، بمعنى أنه انشرح له الصدر فلم يشاهد إلا واحداً، وإن كثرت الأسباب فعلم أن مصدرها من الواحد الحق.

والرابع: موحد، بمعنى أنه لم يحضر في شهوده وقلبه إلا الواحد الحق، وفني

عن الوسائط، وعن نفسه، وهذه الحالة هي العليا وهي دهن اللب من الجوز مثلاً ولا كلام في هذه الحالة الرابعة، بل الكلام في الثالث وهو الذي يرى الواحد الحق، ويرى الكل واحداً لصدوره من الواحد الحق.

وعند هذا يقول من لم يشرق على قلبه نور الله المراد بقوله تعالى: **﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾**(١) كيف يرى الكل واحداً وهو يرى تعدد الأسباب من السموات والأرض، ويرى الأعداد الكثيرة.

واعلم أن كشف هذه الأسرار لا يمكن إذ قال بعض العارفين إفشاء سر الربوبية كفر، ولكن نورد ما يسكن به استبعادك، وهو أن الشيء يكون كثيراً باعتبار وقليلاً باعتبار كالانسان من حيث أجزاؤه كثير ومن حيث أنه شخص واحد يراه واحداً لا عد فيه.

فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات كثيرة وهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد، ومثال الإنسان وإن كان لا يطابق لكنه ينبه على أن الشيء قد يكون باعتبار ما كثيراً وباعتبار ما واحداً. وإلى هذا أشار الحسين بن منصور حيث رأى الخواص يبعد في الأسفار فقال: فيماذا أنت، فقال: أبعد في الأسفار لأصحح حالي في التوكل، قال الحسين: قد افنيت عمرك في عمران باطنك فأين أنت من الفناء في التوحيد. فالخواص في المقام الثالث، فطالبه بالعبور إلى الرابع.

فإن قلت فاشرح لنا الحالة الثالثة إن كنت لا تشرح الرابعة فأقول ذلك بأن تعلم أنه لا خالق إلا الله تعالى، وأنه لا تتحرك ذرة في السموات والأرض إلا بإذن الله تعالى. وأنه لا فقر ولا غنى ولا موت ولا حياة إلا بإذن الله تعالى، وأنه مخترع الكل، فمن شاهد هذا وعلم أنه لا إله إلا هو، استغنى عما سواه، ولا ينظر إلى شيء؛ إذ الكل مسخر تحت قدرته.

وهذا كما أن الملك إذا وقع منه العفو فلم ينظر إلى القلم والكاغد والشكر لهما،

(١) الزمر ٢٢.

بل نظر إلى الكاتب وهو الملك فشكره، ومن ينظر سوى الله تعالى من الأسباب فهو كمن ينظر إلى القلم ويشكره والكاغد والمداد. والموحد الذي ذكرناه: هو الذي أدهشه جمال الملك عن أن يشاهد القلم، أو أن يخطر بباله وجود القلم والمداد بل لا يراه ولا يذكره.

فإن قلت هذا في الجمادات المسخرات قد فهمته ولكن كيف أفهم ذلك في الإنسان المختار للخير والعفو والاعطاء والمنع، وكيف لي بحوالة فعله على الأصل فأقول هذا زل فيه أقدام الأكثرين، إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشياطين، فشاهدوا بنور البصائر كون الكاتب مسخراً مضطراً. كما شاهد جميع الضعفاء كون القلم في يد الكاتب مسخراً. وإن غلط الضعفاء في ذلك كغلط نملة على كاغد يكتب عليه قصر بصرها عن إدراك الكاتب فأبصرت القلم وأحالت الكتابة عليه، وهذا كبصر الضعفاء.

والذين أمدهم الله تعالى بتوفيقه وشرح صدورهم بنوره شاهدوا ما فوق ذلك إذ قد أنطق الله في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته، التي أنطق بها كل شيء، حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله وشهادتها على أنفسها بالعجز، بلسان طلق تكلمهم بلا صوت ولا حرف لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون فلكل ذرة في العالم مع أرباب القلوب مناجاة وذلك من سر كلام الله تعالى، الذي لا نهاية له كما قال تعالى: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾**(١) الآية.

فهذا أبداً يناجي أرباب القلوب بأسرار الملكوت، ولكن إفشاء سره لؤم، بل صدور الأحرار قبور الأسرار، وهل رأيت قط أميناً على سر الملك نادى على ملأ من الأشهاد بسره.

ولو جاز إفشاء كل سر لما قال عليه الصلاة والسلام: **«لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً»** بل كان يذكر لهم ذلك حتى لا يضحكون بل يبكون ولما نهى عن إفشاء سر القدر، ولما قال: **«إذا ذكرت النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القضاء**

(١) الكهف ١٠٩.

فأمسكوا، ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض أسراره، ونحن نودع بعض ما كنا فيه مثالاً فلعلك تفهمه فنقول:

قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى، للكاغد وقد رآه اسود وجهه بالحبر، ما بال وجهك أسود وما السبب فيه، فقال الكاغد ما انصفتني في هذه المطالبة، فإني ما سودت وجهي بنفسي ولكن سل الحبر فإنه كان مجموعاً في المحبرة فسافر من وطنه ونزل بساحة وجهي ظلماً وعدواناً، فقال صدقت.

فسأل الحبر عن ذلك، فقال الحبر ما أنصفتني، فإني كنت ساكناً في قعر المحبرة عازماً على أن لا أبرح، فاعتدى علي القلم واختطفني من وطني وفرق جمعي وبددني على ساحة بيضاء كما تراني، فالسؤال عليه لا علي، قال صدقت.

ثم سأل القلم عن السبب في ظلمه وعدوانه باخراجه الحبر من أوطانه، قال اسأل اليد والأصابع فاني كنت قصباً نابتاً على شط الانهار متنزهاً بين خضرة الأشجار، فجاءتني اليد بسكين فخت عني القشر، واقتلعتني من أصلي، وفرقت بين أنابيبي ثم برتني، وشقت رأسي وغمرتني في سواد الحبر وهي التي تستخدمني وتمشيني على قمة رأسي، فلقد نثرت الملح على جرحي بسؤالك وعتابك، فتنح عني وسل من قهرني، فقال صدقت.

ثم سأل اليد عن ظلمها القلم، فقالت ما أنا إلا لحم ودم وعصب وعظم، وهل رأيت جسداً يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبني فارس يقال له القدرة والقوة، فهي التي ترددني وتجول بي في نواحي الأرض. أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها عن مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر. أما ترى أيدي الموتى مساوية لهؤلاء في الصورة. ثم هي لا تتحرك ولا معاملة بينها وبين القلم. وأنا أيضاً من حيث أنا لا معاملة بيني وبين القلم. فسل القدرة عن شأني فاني مركب أزعجني من ركبني. فقال صدقت.

ثم سأل القدرة عن شأنها في استعمالها اليد واستخدامها. فقالت دع عنك لومي ومعاتبتي فكم من لائم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له، فكيف خفي عليك أمري وكيف ظننت أني ظلمت اليد وقد كنت راكبة لها قبل التحريك، وما كنت احركها ولا استسخرها بل كنت هادئاً ساكناً ظن الظانون بي أني ميت أو معدوم، لأني كنت ما

أحرك ولا إتحرك حتى جاءني موكل فأزعجني وأرهقني إلى ما تراه مني، فكانت لي قوة على مساعدته، ولم يكن لي قوة على مخالفته، وهذا الموكل يسمى إرادة ولا أعرفه إلا باسمه وبهجومه وصياله إذ أزعجني من غمرة النوم. وأرهقني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي فقال صدقت.

ثم سأل الارادة ما الذي جرأك على القدرة الساكنة المطمئنة حتى صرفتيها إلى التحريك إصرافاً لم تجد عنه مخلصاً، فقالت الارادة لا تعجل علي فلعل لنا عذراً وأنت تلوم فاني ما انتهضت بنفسي، ولكني انهضت وما انبعثت ولكني بعثت، بحكم قاهر وأمر جازم. ولقد كنت ساكنة قبل مجيئه ولكن ورد علي من حضرة القلب رسول على العلم لسان العقل بالاشخاص للقدرة فاشخصتها باضطرار. فانا مسكينة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري لأي سبب سخرت له وألزمت طاعته، لكني أدري أني في دعة وسكون ما لم يرد علي هذا الوارد وهذا الحاكم العادل أو الظالم. وقد وقفت عليه وقفاً وألزمت طاعته إلزاماً بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة في المخالفة. لعمري ما دام هو في التردد مع نفسه والتحير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استشعار وانتظار لحكمه فإذا انجزم حكمه انزعجت بطبع وقهر تحت طاعته. وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فاسأل العلم عن شأني فاني كما قال القائل:

مهما ترحلت عن قوم وقد قدروا ... أن لا تفارقهم فالراحلون هم

فقال صدقت.

فأقبل على العلم والعقل والقلب مطالباً لهم ومعاتباً إياهم على استنهاض الإرادة وتسخيرها لاستنهاض القدرة.

فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسي ولكني شعلت.

وقال القلب وأما أنا فلوح ما انبسطت بنفسي، ولكن بسطت.

وقال العلم أما أنا فنقش نقشت في بياض اللوح الذي هو القلب، لما أشرق سراج العقل وما تخططت بنفسي فكم كان هذا اللوح قبلي خالياً عني فاسأل القلم عني، فإن الخط لا يكون إلا بالقلم.

فعند هذا تتعتع السائل ولم ينفعه جوابه، وقال طال تعبي في هذا الطريق

وكثرت منازلي ولا يزال يحيلني من طمعت فيه على غيره، ولكن كنت أطيب نفسي بكثرة التردد لما كنت اسمع كلاماً مقبولاً في الفؤاد وعذراً ظاهراً في دفع السؤال.

فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطني قلم فلست أفهمه فأني لا أعلم قلماً إلا من القصب ولا لوحاً إلا من الحديد أو الخشب ولا خطاً إلا بالحبر ولا سراجاً إلا من النار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد منه شيئاً أسمع جعجعة ولا أرى طحناً.

فقال له العلم إن صدقت فيما قلت، فبضاعتك مزجاة، وزادك قليل، ومركبك ضعيف، والمهالك في الطريق الذي توجهت إليه كثيرة، فالصواب لك أن تنصرف وتدع ما أنت فيه، فما هذا بعشك فادرج عنه، فكل ميسر لما خلق له. وإن كنت راغباً في استتمام الطريق إلى المقصد فألق سمعك وأنت شهيد.

واعلم أن العوالم في طريقك هذا ثلاثة: عالم الملك والشهادة أولها، ولقد كان الكاغد، والحبر، والقلم واليد من هذا العالم، وقد جاوزت تلك المنازل على سهولة.

والثاني: عالم الملكوت وهو ورائي، فإذا جاوزته وانتهيت إلى منازله وفيه المهامه الفسيحة، والجبال الشاهقة، والبحار المغرقة، ولا أدري كيف تسلم فيها.

والثالث: عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت، ولقد قطعت منها ثلاثة منازل إذ في أوائلها القدرة والارادة والعلم، وهو واسطة بين عالم الملك والملكوت، لأن عالم الملك أسهل منه طريقاً، وعالم الملكوت أوعر منه منهجاً.

وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت، يشبه السفينة التي بين الأرض والماء، فلا هي في حد اضطراب الماء ولا هي في حد سكون الأرض وثباتها، فكل من يمشي على الأرض في عالم الملك والشهادة، فإن جاوزت قوته إلى أن يقوى على ركوب السفينة كان كمن يمشي في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن يمشي على الماء من غير سفينة، مشى في عالم الملكوت من غير تتعتع تعب، فإن كنت لا تقدر على المشي على الماء فانصرف فقد جاوزت الأرض وخلفت السفينة، ولم يبق إلا الماء الصافي.

وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم، وحصول اليقين

الذي يمشي به على الماء أما سمعت قول رسول الله ﷺ في عيسى عليه السلام: **«لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء»** لما قيل له كان يمشي على الماء.

فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفاً مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطيق قطع هذه الهامة التي وصفتها أم لا، فهل لذلك من علامة، فقال نعم إفتح بصرك واجمع ضوء عينيك واصرفه نحوي، فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب، فيشبه أن تكون اهلاً لذلك الطريق فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع أول باب من أبواب الملكوت كوشف بالقلم.

أما ترى أن النبي أول ما كوشف بالقلم ونزل عليه قوله تعالى: **﴿اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾**[1] فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته والله ما أرى قصباً ولا خشباً ولا أعلم قلماً إلا كذلك.

فقال العلم لقد أبعدت النجعة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الذوات، فكذلك لا تشبه يده سائر الأيدي، ولا قلمه الاقلام، ولا كلامه سائر الكلام، ولا خطه سائر الخطوط، وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره، ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي، ولا قلمه من قصب، ولا لوحه من خشب، ولا كلامه بصوت وحرف، ولا خطه رقم ورسم، ولا حبره زاج ولا عفص، وإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فما أراك إلا مخنثاً بين فحولة التنزيه، وأنوثة التشبيه مذبذباً بين هذا وذاك، لا إلى هؤلاء ولا هؤلاء فكيف نزهت ذاته تعالى وصفاته عن الأجسام، وكيف نزهت كلامه عن معاني الحروف والاصوات، وأخذت تتوقف في يده وقلمه ولوحه وخطه.

فإن كنت قد فهمت من قوله ﷺ: **«أن الله خلق آدم على صورته الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكن مشبهاً مطلقاً كما يقال كن يهودياً صرفاً وإلا فلا تلعب بالتوراة، وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصائر لا بالأبصار فكن منزهاً صرفاً ومقدساً محلاً واطو الطريق فإنك بالواد المقدس طوى».**

(١) العلق ٣.

واسمع بسر قلبك لما يوحى، فلعلك تجد على النار هدى، ولعلك من سرادقات العز تنادى، بما نودي به موسى عليه السلام، إني أنا ربك، فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه، وإنه يحنث في التشبيه والتنزيه فاشتد قلبه ناراً من حدة غضبه على نفسه لما رآها بعين النقص، ولقد كان زيته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولو لم تمسسه نار فلما نفخ فيه العلم بحدته اشتعل زيته فأصبح نوراً على نور.

فقال العلم اغتنم الآن هذه الفرصة وافتح بصرك فلعلك تجد على النار هدى، ففتح بصره فانكشف له القلم الإلهي وانه كما وصفه العلم في التنزيه، لا هو خشب ولا قصب، ولا له رأس ولا ذنب، وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم، وكان له في كل قلب رأس ولا رأس له، فقضى منه العجب فقال نعم الرفيق العلم جزاه الله عني خيراً، إذ الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم، فإني أراه قلماً لا كالأقلام هذا ودع العلم وشكره.

وقال طال مقامي عندك ومراداتي لك وأنا عازم أن أسافر إلى حضرة القلم فأسأله عن شانه فسافر إليه وقال ما بالك تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبعث به الإرادة إلى أشخاص القدرة وصرفها إلى المقدورات، فقال لقد نسيت ما رأيت في عالم الغيب والشهادة وسمعته في جواب القلم، إذ سألته فأحالك على اليد فقال لا، قال فجوابي مثل جوابه قال فكيف وأنت لا تشبهه.

قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته، قال نعم قال فسل عن شاني الملقب بيمين الملك فإني في قبضته هو الذي يرددني وأنا مقهور ومسخر ولا فرق بين القلم الإلهي وقلم الأدمي في معنى التسخير، وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فما يمين الملك.

قال القلم أما سمعت قوله تعالى: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾[1] قال نعم قال فالاقلام أيضاً في قبضة يمينه هو الذي يرددها، فسافر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائبه ما يزيد على عجائب القلم ولا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحوي مجلدات كثيرة عشر عشير وصفه، والجملة فيه أنه يمين لا

(١) الزمر ٦٧.

كالأيمان، ويد لا كالأيدي، وأصبع لا كالأصابع، فرأى القلم محركاً في قبضته فظهر له عذر القلم.

فسأل اليمين عن شأنها وتحريكها للقلم فقالت جوابي ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة، وهي الحوالة على القدرة، إذ اليد لا حكم لها في نفسها وإنما تحركها القدرة لا محالة فسار إلى عالم القدرة ورأى فيها من العجائب ما استحقر فيها ما قبله.

وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العهدة على الموصوفات لا على الصفات، وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجراءة لسان السؤال، فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء سرادقات الحضرة لا يسأل عما يفعل وهم يسألون فغشيته هيبة الحضرة فخر صعقاً يضطرب في غشيته مدة.

فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك تبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بعفوك من عقابك، وبرضاك من سخطك، ونرجع إلى الغرض ونبين معنى التوكل فنقول التوكل هو اعتماد القلب على الوكيل وحده للعلم بأنه لا يخرج شيء عن علمه وقدرته وإن غيره لا يقدر على ضره ونفعه كما سبق.

بيان ما قاله الشيوخ في التوكل:

قال أبو موسى الديلي قلت لأبي يزيد: ما التوكل؟ فقال: ما تقول أنت قلت: إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي عن يمينك ويسارك، ما تحرك لذلك سرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب، لكن لو أن أهل الجنة في الجنة يتنعمون، وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع لك تمييز بينهما، خرجت من جملة التوكل وسئل أبو عبدالله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله في كل حال فقال السائل زدني فقال ترك كل سبب لا يوصل إلى الله.

فصل

في بيان درجات التوكل وله ثلاث درجات

أولها: أن يكون وثوقه به كوثوقه بوكيل قد عرف صدقه وأمانته وعنايته وهدايته وشفقته.

وثانيها: أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل في حق أمه فإنه لا يعرف غيرها ولا يفزع في الأمور إلا إليها فهي أول خاطر له فيما يخطر بباله، وهذا المقام يقتضي ترك الدعاء والسؤال لغير الله تعالى ثقة بكرمه وشفقته.

وثالثها: مثل صفرة المريض قد تدوم وقد تزول، فإن قلت فهل يبقى مع العبد تدبير، وتعلق بالأسباب.

فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دام باقياً على تلك الحالة والمقام الثاني ينفي التدبير إلا من حيث الفزع إلى الله تعالى بالدعاء والابتهال كالطفل الذي لا يدعو إلا أمه.

بيان أعمال المتوكلين:

وقد ظن الظانون أن المتوكل ينبغي أن يكون كلحم على وضم وهذا غلط ونحن نبين ذلك فنقول تلك الأعمال تنقسم إلى جلب النافع وحفظه ودفع الضار وقطعه. أما جلب النافع فمنقسم إلى ما جرت به سنة الله تعالى فلا يعهد خلافه كمضغ الطعام الموضوع بين يديك أو حمله إلى الفم فإن تركه حمق وجنون، وأما ما يجري مجرى الغالب حتى يعد حصوله دون ذلك بعيداً كالذي يفارق الامصار والقوافل ويسافر في البوداي التي لا يطرقها الناس إلا على الندور من غير زاد فهذا ليس شرطاً في التوكل. ولكن إن فعل ذلك من غير استصحاب الزاد فذلك أعلى درجات المتوكلين.

وأما ما لا يفضي إلى المقصود إلا على الندور كدقيق التدبير في تفاصيل الاكتساب فذلك يبطل التوكل بالكلية.

المقام الثاني: أن يقعد في بيته أو في مسجده في بعض القرى أو الأمصار، فهذا من التوكل بكونه تاركاً للكسب، ولكنه أضعف من الأول لتمرضه بمجرد حاله لتعهد الناس وجلوسه في موضع يتعهد الناس.

والمقام الثالث: أن يكتسب على السنة كما سبق في باب الكسب، وقد قيل إن هذا لا يخرجه عن التوكل، ولكنه أضعف المقامات، ولكنه من شرطه أن لا يكون اتكاله على بضاعته، وعلامته أن لا يحزن بالسرقة وضياع ماله.

بيان توكل المعيل:

إعلم أن المعيل لا يصح توكله في حق عياله، لانه إنما يصح توكله بأمور منها القدرة على الإمساك عن الطعام مثلاً أسبوعاً. وأن يرضى بالموت إن لم يأته رزقه وأمور أخر. وهذا لا يتصور في حق العيال، فلابد له من الكسب لهم كما نقل عن الصديق رضي الله عنه. إذ خرج إلى الكسب لعياله، وهذا هو المقام الثالث الذي ذكرناه.

فادخار الطعام سنة منقول بسبب العيال فأما من ليس له عيال وظهر له مال بإرث مثلاً أو سبب من الأسباب فأعلى الدرجات أن يأخذ قدر الحاجة في الوقت ويفرق الباقي ولا يدخره لغده.

الثانية: أن يدخر لاربعين يوماً فما دونها وقد اختلفوا في أن هذا هل يخرجه من التوكل وهل يوجب حرمانه عن الدرجة الموعودة للمتوكلين.

الثالثة: أن يدخر لشهر أو لسنة وهذا يوجب الحرمان عن درجة المتوكلين فقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاث الفأرة والنملة وابن آدم.

الثالثة أن يدخر لشهر أو لسنة وهذا يوجب الحرمان عن درجة المتوكلين فقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاث الفأرة والنملة وابن آدم.

الفن الاخر أن يدفع الضرر عن نفسه أو يحترز بأن يهرب من الجدار المائل والمسبعة والسقف المنكسر وذلك لا يبطل التوكل بل كل ذلك منقول.

وهذه الأسباب تنقسم إلى موهوم ومظنون ومقطوع فالموهم لابد من تركه كالرقية وما يشبهها ولم يصف رسول الله ﷺ المتوكلين إلا بترك الرقية والكي والطيرة ولم يصفهم بأنهم لا يلبسون ما يدفع البرد.

نعم إذا أمكنه أن يصبر على أذى الغير واحتماله فهو من شروط التوكل، إذ قال تعالى: ﴿ودع أذاهم وتوكل على الله﴾(١) وعلى هذا القياس ترك التداوي في بعض الأحوال، فذلك أيضاً منقول، وذلك بحسب قوة مقام المتوكل.

***

(١) الاحزاب ٤٨.

الباب السادس والثلاثون

في المحبة والشوق والرضا

اعلم أن المحبة لله هي الغاية القصوى، وهي من الدرجات العلى وما عداها من الشوق والأنس والرضا تابع للمحبة.

وقد أنكر بعض من أحرمه الله هذه اللذة وإمكانها ونحن نبين ذلك بالآيات والأخبار قال الله تعالى: ﴿ والذين آمنوا أشد حباً لله ﴾[1] وقوله تعالى: ﴿ يحبهم ويحبونه ﴾[2] وفي الحديث: « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين ».

وفي الخبر المشهور أن إبراهيم ﷺ قال لملك الموت حين جاءه ليقبض روحه: هل رأيت خليلاً يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه فهل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن اقبض روحي.

وقال رسول الله ﷺ: « اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك وحب ما يقربني إلى حبك، واجعل نفسك أحب إلي من الماء البارد » وقال أعرابي: « يا رسول الله متى الساعة فقال: ما الذي أعددت لها؟ قال: ما أعددت لها كثرة صيام ولا صلاة إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ له: « المرء مع من أحب » قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بشيء بعد الإسلام فرحهم بذلك.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: من ذاق خالص محبة الله ورسوله شغله ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عن جميع البشر.

(١) البقرة ١٦٥. (٢) المائدة ٥٤.

فصل

في بيان معنى المحبة

وهو أن يميل الطبع إليه لكونه لذيذاً عنده والبغض ضده وهو نفرة الطبع لكونه غير موافق له وكل ما زادت لذته كان أبلغ في الحب، فلذة العين في الإبصار، ولذة السمع في السماع، ولذة الشم في المشمومات الطيبة، وكذا كل واحد من الحواس له موافق يلتذ به فيحبه بسببه.

وقال عليه السلام: « حبب إلي من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وقرة عيني في الصلاة » بين أن وراء المحسوس بالحواس الخمس محبوباً ملتذاً به إذ ليست الصلاة مما يلتذ به شيء من الحواس الخمس، فإذا البصيرة الباطنة، أقوى من البصيرة الظاهرة، والقلب أشد إدراكاً من العين، وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم وأتم من جمال الصورة الظاهرة، فلا محالة تكون لذة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية، التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم إليه أبلغ وأقوى ولا معنى للحب، إلا الميل إلى ما في إدراكه لذة. فلا ينكر هذه اللذة إلا من قعد به القصور في درجة البهائم، فلم يجاوز إدراك الحواس أصلاً.

واعلم أن أحب الأشياء إلى الإنسان دوام نفسه لأنه أعظم الأشياء ملايمة لنفسه فهو محب لدوام نفسه، ثم من أحسن إليه إذ الإنسان عبد للإحسان، وقد يحب الشيء لذاته لكونه جميلاً حسناً في نفسه، وذلك أبلغ أنواع الحب الذي لا يشوبه غرض، فإن كل جمال محبوب، بقي أن المحبوس في مضيق الخيالات يظن أن لا جمال إلا المحسوس أو المتخيل.

فنقول: اعلم أن الحسن الجميل عبارة عن كل ما حضر كماله الممكن له، حتى أنا نعلم أن الفرس يحسن بما لا يحسن به الآدمي، والخط يحسن بما لا يحسن به الصوت والصورة وكل ذلك محبوب.

وإن تخيل متخيل أن ذلك راجع إلى الحس، فالأخلاق الحسنة والعلم والقدرة والعقل كل ذلك حسن ومحبوب مع أنه غير محسوس بالحس الظاهر، بل يدرك بنور البصيرة.

وكذلك حب النبي ﷺ وأصحابه، والشافعي وأرباب المذاهب ممكن وهو غير محسوس وغير مدرك بالحواس الخمس، بل لما سمع باجتماع خصال الخير، وكل ما خرج من المحسوس، واستحسن فهو مستحسن بنور البصيرة.

وإذا ثبت هذا فلا مستحق للمحبة غير الله تعالى إذ هو الخالق والواهب لأصل الفطرة. ثم هو سبب الدوام والبقاء والسلامة، وهو المحسن بكل حال، وهو الجميل الحسن الذي كل جمال وحسن أثر من آثار جوده فمن أحب الأنبياء والصحابة والأئمة لاستجماعهم خصال الخير فكل خير منه وإليه، وله الجمال الذي كل جمال أثر من آثاره، وقد عرفت ان كل جميل محبوب لذاته.

وقد عرفت أيضاً أن خاصية الإنسان تمكنه من التحلي بالصفات الحميدة، حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله تعالى، ففي باطن الإنسان حقيقة لا يلائمها إلا الله تعالى ففي القلب غريزة تسمى النور الإلهي. لقوله تعالى: ﴿ **أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه** ﴾[1]. وهذه الغريزة هي التي تدرك جمال الحضرة الربوبية بقدر قوته، وإذا كان الجمال محبوباً، فهل في الوجود شيء أجل وأعلى وأشرف وأعظم وأكمل من كل جمال مستعار من فضله، فبقدر ما يدرك يلتذ وبقدر ما يلتذ يحب.

فصل

اعلم أن المدركات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور، وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى، وكل ما ليس بجسم ولا صورة كالعلم والقدرة والإرادة.

ومن رأى إنساناً ثم غض بصره وجد صورته حاضرة في خياله، وكأنه ينظر إليها، ولكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما، ولا ترجع التفرقة إلى خلاف بين الصورتين بل إلى مزيد وضوح وكشف، فهو كمن يرى شخصاً في وقت الإسفار قبل انتشار ضوء النهار، ثم رآه في حال تمام طلوع الشمس فإنه لا فرق في الأمرين إلا بمزيد الكشف والوضوح.

(١) الزمر ٢٢.

فإذا عرفت هذا فاعلم أن سنة الله جارية بأن النفس ما دامت محجوبة بصفاتها الذميمة، لا تصل إلى مشاهدة المعاني الخارجة عن عالم الحس والخيال، بل تلك الصفات للنفس كالأجفان المطبقة للعين فبقدر ما يمحى من تلك الصفات تزداد كشفاً ووضوحاً ولذة وحباً.

بيان الأسباب المقربة لحب الله تعالى:

اعلم أن أسعد الخلق في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، إذ الآخرة هي القدوم على الله تعالى ودرك لقائه. وما أعظم نعيم المحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من دوام النظر من غير مشوش ولا مزاحم ولزيادة الحب سببان:

أحدهما: خلو القلب عما سواه فإن الإناء كلما خلا عن شيء اتسع لغيره، وقطع العلائق سبب للتجريد والتفريد، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ **قل الله ثم ذرهم** ﴾[1].

والسبب الثاني: هو كمال المعرفة، فالأول مثاله تطهير الأرض عن الشوك والحشيش، والثاني مثاله وضع البذر في الأرض ينمو فيتولد منه شجرة المعرفة، وهي الكلمة الطيبة كما قال تعالى: ﴿ **أصلها ثابت وفرعها في السماء** ﴾[2] والله أعلم.

فصل
في الشوق

وإذا ثبتت المحبة صح الشوق إلى المحبوب، ودلت عليه الأخبار والآثار. فقد روي أن أبا الدرداء قال لكعب أخبرني عن أخص آية في التوراة، فقال يقول الله عز وجل: طال شوق الأبرار إلى لقائي وأنا إلى لقائهم أشد شوقاً، قال ومكتوب في جنبها من طلبني وجدني ومن طلب غيري لم يجدني. فقال أبو الدرداء: أشهد أني سمعت رسول الله ﷺ يقول هذا.

وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى قال يا داود بلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني، وجليس لمن جالسني، ومؤنس لمن أنس بذكري، وصاحب لمن

(١) الانعام ٩١.　　(٢) إبراهيم ٢٤.

صاحبني، ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني، ما أحبني عبد أعلم ذلك يقيناً من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حباً لا يتقدم عليه أحد من خلقي.

من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني، فارفضوا يا أهل الأرض ما أنتم عليه من غرورها وهلموا إلى كرامتي ومصاحبتي وانئسوا بي أونسكم وأسارع إلى محبتكم. فإني خلقت طينة أحبابي من طينة إبراهيم خليلي، وموسى نجيي، ومحمد صفوتي، إني خلقت قلوب المشتاقين من نوري ونعمتها بجلالي.

وروي عن بعض السلف، أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين أن لي عباداً من عبادي يحبونني وأحبهم، ويشتاقون لي وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إلي وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقتهم أحببتك، وإن عدلت عنهم مقتك.

قال يا رب ما علاماتهم، قال يراعون الظلال بالنهار، كما يراعي الراعي الشفيق غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا أجنهم الليل واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، وخلا كل حبيب بحبيبته نصبوا لي أقدامهم وفرشوا لي وجوههم، وناجوني بكلامي وتملقوا لي بأنعامي، ما بين صارخ وباك ومتأوه وشاك، وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من محبتي، أول ما أعطيتهم ثلاث:

إحداهن: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم.

والثانية: لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم.

والثالثة: أقبل بوجهي عليهم أفترى من اقبلت بوجهي عليه، يعلم أحد ما أريد أن أعطيه.

وفي خبر داود: أن الله تعالى أوحى إليه: يا داود إلى كم تذكر الجنة ولا تسألني الشوق إلي.

قال: يا رب من المشتاقون إليك. قال: إن المشتاقين إلي صفيتهم من كل كدر ونبهتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم إلي خرقاً ينظرون إلي وإني لأحمل قلوبهم بيدي فأضعها على سمائي.

ثم أدعو نجباء ملائكتي فإذا اجتمعوا سجدوا لي، فأقول: إني لم أدعكم لتسجدوا لي، وإنما دعوتكم لأعرض عليكم قلوب المشتاقين إلي وأباهي بأهل الشوق إلي، وإن قلوبهم لتضيء في سمائي لملائكتي، كما تضيء الشمس لأهل الأرض.

يا داود إني خلقت قلوب المشتاقين من رضواني، ونعمتها بنور وجهي، واتخذتهم لنفسي محدثين وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض، وقطعت من قلوبهم طريقاً ينظرون به إلي، يزدادون في كل يوم شوقاً.

قال داود: ربِّ أرني أهل محبتك فقال: يا داود آئت جبل لبنان فإن فيه أربعة عشر نفساً فيهم شبان وفيهم كهول، وفيهم مشايخ.

فإذا أتيتهم أقرئهم مني السلام وقل لهم إن ربكم يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فإنكم أحبابي وأصفيائي وأوليائي، أفرح لفرحكم، وأسارع إلى محبتكم.

فأتاهم داود، فوجدهم عند عين من العيون، يتفكرون في عظمة الله تعالى، فلما نظروا إلى داود نهضوا ليتفرقوا عنه، فقال داود إني رسول الله إليكم جئتكم لأبلغكم رسالة ربكم، فأقبلوا نحوه وألقوا بأسماعهم نحو قوله، وألقوا أبصارهم إلى الأرض، فقال داود إني رسول الله إليكم إن الله يقرئكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تنادوني أسمع أصواتكم وكلامكم، وأنظر إليكم في كل ساعة نظرة الوالدة الشفيقة الرفيقة.

قال: فجرت دموعهم على خدودهم فقال شيخهم سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من عمرنا.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامنن علينا بحسن النظر فيما بيننا وبينك.

وقال الآخر: سبحانك سبحانك، نحن عبيدك وبنو عبيدك، أفنجترىء على الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدم لنا لزوم الطريق إليك، وأتم تلك المنة علينا.

وقال الآخر: من نطفة خلقتنا، ومننت علينا بالتفكر في عظمتك، أفيجترىء على

الكلام من هو مشغول بعظمتك، متفكر في جلالك، وطلبتنا الدنو من نورك.

وقال الآخر: كلت الألسنة عن دعائك لعظم شأنك، وقربك من أوليائك، وكثرة منتك على أهل محبتك.

وقال الآخر: أنت هديت قلوبنا لذكرك وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك.

وقال الآخر: قد عرفت حاجتنا إنما هي النظر إلى وجهك الكريم.

وقال الآخر: نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا.

وقال الآخر: لا حاجة لنا بشيء من خلقك فامنن علينا بالنظر إلى جمال وجهك الكريم.

وقال الآخر: أسألك من بينهم أن تعمي عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة.

وقال الآخر: قد عرفت أنك تباركت وتعاليت تحب أولياءك فامنن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء سواك.

فأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم، وأجبتكم إلى ما أحببتم، فليفارق كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سرباً، فإني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري وجمالي، فقال داود: يا رب بم نالوا منك، قال: بحسن الظن والكف عن الدنيا وأهلها والخلوات بي، ومناجاتهم لي.

وإن هذا منزل لا يناله إلا من رفض الدنيا وأهها ولم يشتغل بشيء من ذكرها وفرغ قلبه إلي، واختارني على جميع خلقي، فعند ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه واكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى ينظر إلي نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقربه من نور وجهي، إن مرض مرضته كما تمرض الوالدة الشفيقة ولدها، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكري.

فإذا فعلت ذلك به يا داود أعميت نفسه عن الدنيا وأهلها، ولم احببها إليه لا يفتر عن الاشتغال بي، يستعجلني القدوم، وأنا أكره أن أميته لأنه موقع نظري من

بين خلقي لا يرى غيري، ولا أرى غيره، فلو رأيته يا داود وقد ذابت نفسه ونحل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بذكري أباهي به ملائكتي، وأهل سماواتي يزداد خوفاً وعبادة، وعزتي وجلالي يا داود لأقعدنه في الفردوس ولأشفين صدره من النظر إلي حتى يرضى وفوق الرضا.

وفي أخبار داود أيضاً عليه السلام، قل لعبادي المتوجهين إلي بمحبتي، ما ضركم إذا احتجبتم عن خلقي ورفعت الحجاب فيما بيني وبينكم، حتى تنظروا إلي بعيون قلوبكم وما ضركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت يدي لكم، وما ضركم مسخطة الخلق إذا التمستم رضاي.

وفي أخبار داود عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبني فإن كنت تحبني فأخرج حب الدنيا من قلبك، فإن حبي وحبها لا يجتمعان في قلب، يا داود، خالص أهل محبتي مخالصة، وخالط أهل الدنيا مخالطة، ودينك فقلدنيه ولا تقلد دينك الرجال، أما ما استبان لك مما وافق محبتي فتمسك به.

وأما ما أشكل عليك فقلدنيه حقاً علي أني أسارع إلى سياستك وتقويمك وأكون قائدك ودليلك، أعطيك من غير أن تسألني، وأعينك على الشدائد فإني قد حلفت على نفسي أن لا أثيب عبداً، إلا عبداً عرفت من طلبه وإرادته خوف المقام بين يدي، وإنه لا غنى به عني، فإذا كنت كذلك نزعت الذلة والوحشة عنك، وأسكن الغنى قلبك، وإني قد حلفت على نفسي أنه لا يطمئن عبد إلى نفسه وينظر إلى أفعالها إلا وكلته إليها.

وأضف الأشياء إلي لا تضاد عملك فتكون متعنتاً، ولا ينتفع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفتي حداً، فليس لها غاية، ومتى طلبت مني الزيادة أعطيك ولا تجد للزيادة مني حداً.

ثم أعلم بني إسرائيل أنه ليس بيني وبين أحد من خلقي نسب، فلتعظم رغبتهم وإرادتهم فيما عندي، أبح لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ضعني بين عينيك وانظر إلي ببصر قلبك، ولا تنظر بعينيك إلى الذين حجبت قلوبهم عني فأمرجوها، وسخت قلوبهم بانقطاع ثوابي عنها. فإني حلفت وعزتي وجلالي لا أفتح ثوابي لعبد دخل في طاعتي للتجربة والتسويف.

يا داود تواضع لمن تعلمه ولا تتطاول على المريدين فلو علم أهل محبتي منزلة المريدين عندي لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها، يا داود لأن تخرج مريداً من سكرة هو فيها تستنقذه منها، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، فأكتبك عبداً جهيداً، لا تكون عليه وحشة ولا فاقة إلى المخلوقين.

يا داود تمسك بكلامي وخذ من نفسك لنفسك، ولا تؤتين منها فاحجب عنك محبتي، لا تؤيس عبادي من رحمتي، إقطع شهوتك إلي، فإنما أبحت الشهوات لضعفة خلقي، وما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات، فإنها تنقص مناجاتي، وإنما عقوبة الأقوياء عندي في موضع التناول، وأدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عني، فإني لم أرض الدنيا لحبيبي ونزهته عنها.

يا داود لا تجعل بيني وبينك عالماً أسكره حب الدنيا، فيحجبك بسكره عن محبتي، أولئك قطاع الطريق على عبادي المريدين، إستعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم وإياك والتخمة في الإفطار فإن محبتي للصوم إدمانه..

يا داود تحبب إلي بمعاداة نفسك ومنعها الشهوات، أنظر إليك وترى الحجب بيني وبينك مرفوعة، إنما أوازرك موازرة التقوى على ثوابي إذا مننت به عليك، ولن أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعتي وهذه الأخبار دلت على إمكان الشوق والله أعلم.

بيان محبة الله تعالى للعبد:

فقد دلت عليه الآيات والآثار، قال تعالى: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً ﴾(١) الآية. وقال تعالى: ﴿ إن الله يحب التوابين ﴾(٢). وروى أنس عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له. ثم تلا إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين »(٢)، ومعناه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت، فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضره الكفر الماضي بعد الإسلام.

(١) الصف ٤. (٢) البقرة ٢٢٢.

وقد اشترط الله تعالى لمحبته غفران الذنب فقال: ﴿ يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم ﴾(١)، وقال ﷺ: « إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الإيمان إلا لمن يحب » وقال عليه السلام: « من تواضع لله رفعه ومن تكبر وضعه، ومن أكثر ذكر الله أحبه فيكون سمعه الذي يسمع به » الحديث. وقال زيد بن أسلم: « إن الله تعالى ليحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول إعمل ما شئت فقد غفرت لك ». وقال عليه السلام: « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه » الحديث.

وعلامة حب الله تعالى العبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين جميع أسبابه. وقال ﷺ: « إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإن أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له مالاً ولا أهلاً ». وقيل لعيسى عليه السلام: لم لم تشتر حماراً فتركبه، فقال: أنا أعز على الله من أن يشغلني عن نفسه بحمار، وفي الخبر: إذا أحب الله عبداً ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه، وقالوا من علامة حب العبد لله عز وجل أن يؤثر ما يحبه على محبوب نفسه، وإن يكثر ذكره فلا يفتر وتكون الخلوة والمناجاة أحب إليه من الاشتغال بغيره.

بيان فضيلة الرضا:

قال الله تعالى: ﴿ رضي الله عنهم ورضوا عنه ﴾(٢). وفي الحديث: « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك فسؤالهم الرضا بعد النظر غاية التفضيل ». وروي أنه عليه السلام سأل طائفة من أصحابه فقال: « ما أنتم فقالوا مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر عند البلاء ونشكر عند الرخاء ونرضى بمواقع القضاء، فقال: مؤمنون ورب الكعبة» وفي خبر آخر أنه قال: « حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء ».

وقال موسى عليه السلام: يا رب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه، إن رضاي في كرهك وأنت لا تصبر على ما تكرهه. فقال يا رب دلني عليه. قال: فإن رضاي في رضاك بقضائي. واعلم أن الرضى باب الله تعالى الأعظم فمن وجد إليه سبيلاً فهو أعلى الدرجات والرتب.

(١) آل عمران ٣١. (٢) المائدة ١١٩.

فصــل

ومما جاء في حكايات المحبين (ما حكي) أن أبا تراب النخشبي كان معجباً ببعض المريدين ، وكان يدنيه ويقوم بمصالحه ، والمريد مشغول بعبادته ومواجيده فقال له أبو تراب يوماً : لو رأيت أبا يزيد ، فقال المريد إني عنه منغول ، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله ، لو رأيت أبا يزيد هاج وجد المريد ، وقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد وقد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد ، فقال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويلك تغتر بالله تعالى لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة .

قال فبهت الفتى من قولي وأنكره قال وكيف ذلك ، قال له ويلك إنما ترى الله عندك فيظهر لك على مقدارك ويرى أبا يزيد عند الله تعالى قد ظهر له على مقداره ، فعرف ما قلت فقال احملني إليه فذكر قصة قال في آخرها فوقفنا على تل ننتظره ليخرج علينا من الغيضة ، وكان يأوي إلى غيضة فيها سباع ، قال فمر بنا وقد قلب فروة على ظهره ، فقلت للفتى هذا أبو يزيد فنظر إليه الفتى فصعق صعقة فحركناه فإذا هو ميت ، فتعاونا على دفنه فقلت لأبي يزيد يا سيدي نظرة منك قتلته ، قال لا ولكن كان صاحبك صادقاً واستكن في قلبه سر لم ينكشف له بوصفه ، فلما رآنا انكشف له سر قلبه فضاق عن حمله لأنه في مقام الضعفاء المريدين فقتله ذلك .

وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إنما اتخذ لخلتي من لا يفتر عن ذكري، ولا يكون له غيري ، ولا يؤثر علي شيئاً من خلقي ، وإن أحرق بالنار لم يجد لحرق النار وجعاً وإن تقطع بالمناشير لم يجد من الحديد ألماً ، فمن لم يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء الإيمان .

وفي الحديث « إن الله تعالى خلق ثلثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر رضي الله عنه : هل في خلق منها فقال : كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله تعالى السخاء» وقال عليه السلام : « **رأيت ميزاناً دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمتي ووضعت أمتي في كفة فرجحت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمتي فوضعت في كفة فرجح بهم** » .

ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله ﷺ بالله تعالى بحيث لا يسع قلبه للخلة مع غيره ولذلك قال : « **لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله** » وقال الشبلي : الحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم،وقال الشوق نار الله أشعلها في قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما في قلوبهم من الخواطر والإرادات والحاجات والعوارض فافهم تغنم والله أعلم بالصواب .

***

الباب السابع والثلاثون

في النية والإخـلاص والصدق

قال الله تعالى: **﴿ ولا تطرد الـذين يدعـون ربهـم بالغـداة والعشـيّ يريدون وجهه ﴾**[1] والمراد بتلك الإرادة النية وقال ﷺ: « **إنما الأعمال بالنيات** » وقال ﷺ: « **الناس أربعة رجل آتاه الله تعالى علماً ومالاً، فهو يعمل بعلمه في ماله. فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتى فلاناً كنت أعمل كما عمل فهما في الأجر سواء** » وفي حديث الأحنف: « **إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه** » وقـال عليه الصلاة والسـلام: « **من تطيب لغير الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنتن من الجيفة ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك** ».

بيان حقيقة النية:

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد، وهو حال وصفة للقلب يكتنفها اقتران علم وعمل، العلم له كالمقدمة، والشرط والعمل يتبعه.

فالنية هي عبارة عن الإرادة المتوسطة بين العلم السابق والعمـل اللاحـق، فيعلم الشيء فتنبعث إرادته ليعمل على وفق العلم، وقوله ﷺ: « **نية المؤمن خير من عمله ونية الفاسق شر من عمله** » فإن قوبل العمل بلا نية والنية بلا عمل فلا شك أن النية بلا عمل خير من العمل بلا نية.

وإن وزن العمل الذي تقدم عليه النية بتلك النية السابقة، فالنية أيضاً خير لأنها هي الإرادة المنبعثة من أصل العمل، وهي أقرب إلى القلب، فعلى كل حال نية

(١) الانعام ٥٢.

المؤمن خير من عمله، كما نطق به الحديث، أما الأعمال فهي منقسمة إلى المعاصي والطاعات والمباحات، فما كان في نفسه معصية لا يصير بالنية عبادة.

أما الطاعات فلا بد فيها من النية فلا يصير أصلها طاعات إلا بالنية ثم بدوام النية وحسن النية، يضاعف درجة الطاعات، ورب فعل هو فعل واحد من حيث العدد، ويمكن أن يصير بسبب حسن النية عبادات، كما لو جلس في المسجد فنوى زيارة الله سبحانه وتعالى.

كما ورد في الخبر أن من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق المزور أن يكرم الزائر، ونوى انتظار الصلاة والمنتظر للصلاة في الصلاة ونوى الإعتكاف في المسجد ونوى كف الجوارح عن المعاصي والتحصن بالمسجد ونـوى الإستماع إلى ذكر الله تعالى، وتلاوة القرآن فكل ذلك خيرات تترادف وتكتسب بالنية.

فأما المباحات فتصير عبادات بحسن النية وهذا الفن ينبغي أن يقع الاعتناء به وفيه تصير جميع الحركات والسكنات عبـادات بحسـن النية، فيفضي به إلى أن لا يضيع من عمره لحظة واحدة، ويتميز عن البهائـم بذلك. فإن من شأن البهائـم الإتيان بما يتفق من غير قصد ونية.

وقد قال ﷺ: « **إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كحل عينيه، وعن فتات الطين بأصبعيه، وعن لبسه ثوب أخيه** » ومن حافظ على أعماله لتكون على قدر السنة ونية الخير كان من المقـربين وقـد قال الله تعـالى: **﴿ ما يلفظ من قـول إلا لديـه رقيب عتيد ﴾**[1].

وقال بعض السلف كتبت كتاباً فأردت أن أتربه من منزل جار لي فتحرجت، ثم قلت تراب وما تراب، فتربته فهتف بي هاتف، سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غداً من سوء الحساب. وصلى رجل مع الثوري فرآه منقلب الثوب، فعرّفه فمد يده ليصلحه، ثم قبضها فلم يسوه فسأله عن ذلك قال إني لبسته لله ولا أريد أن أسويه لغير الله، وقال الحسن إن الرجل ليتعلق بالجار يوم القيامة، فيقول بيني وبينك الله،

(١) ق ١٨.

فيقول والله ما أعرفك ، فيقول بلى أنت أخذت لبنة من حائطي وأخذت خيطاً من ثوبي .

بيان أن النية لا تدخل تحت الاختيار :

فنقول ربما سمع الجاهل كلامنا في النية ، فيقول أنا أنوي أن أدرس لله أو أتجر لله أو آكل لله وهيهات هيهات ، إنما ذلك حديث نفس وانتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمعزل عن ذلك . وإنما النية انبعاث النفس وميلها إلى ما ظهر لها من الغرض المطلوب المهم له إما عاجلاً أو آجلاً ، والميل ما لم يكن في الباطن لا يمكن اكتسابه واختراعه بالكسب والتكلف بل ذلك يرجع حاصله إلى نقل خاطر من شيء إلى شيء كما يقول الشبعان نويت أن أجوع أو آكل بسبب الجوع أو يقول الفارغ نويت أن أعشق فلاناً أو أحب أو أحترم وليس ذلك في باطنه فهو محال فما لم يتقدم سبب ذلك لا يتصور انبعاث النفس إذ الانبعاث إجابة للداعية والغرض الباعث .

وهذا مثاله النكاح فإن من غلبت الشهوة عليه وأراد النكاح ثم أراد أن يتكلف نية الاقتداء برسول الله ﷺ وسننه ونية الولد الصالح ، فذلك لا يتأتى لأنه ليس في باطنه هذه البواعث بل في باطنه الشهوة فحسب .

وقد نقل عن بعض السلف التأخر عن جملة من القربات لتخلف النية ، حتى أن ابن سيرين تخلف عن الصلاة على الحسن البصري ، فقال ليس يحضرني نية ، ومات حماد بن سليمان ، وكان من أعيان علماء الكوفة ، فقيل للثوري ألا تشهد جنازتـه ، فقال لو كانت لي نية لفعلت ، وكان طاوس لا يحدث إلا بنية ، فكان يسأل أن يحدث فلا يحدث فقيل له في ذلك فقال أتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرت لي نية فعلت وقيل لطاوس أدع لنا فقال حتى أجد له نية .

فصـل
في الأخلاص

قال الله تعالى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين ﴾[1] وقال تعالى :

(١) البينة ٥ .

﴿ ألا لله الدين الخالص ﴾[1] وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالى الإخلاص سر من سري استودعته قلب من أحببته من عبادي » .

وكان في بني إسرائيل رجل عابد كان يعبد الله تعالى دهراً طويلاً فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوماً يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك فأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها .

فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد قال أريد أن اقطع هذه الشجرة فقال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك قال إن هذا من عبادتي قال إني لا أتركك أن تقطعها .

فقاتله فأخذه العابد وطرحه على الأرض وقعد على صدره فقال إبليس اطلقني حتى أكلمك فقام عنه وقال له إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك أنت ما تعبدها وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها ، فقال العابد لا بد لي من قطعها فقاتله الشيطان فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر يفصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع ، قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه .

فقال إبليس أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ، ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك ، وتشبع وتستغني عن الناس ، قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر لك علي أن أجعل عند رأسك كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك ، ويكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ، ولا يضرهم قطعها ، ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطع هذه الشجرة ، فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست نبياً فليزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله تعالى أن أقطعها فأكون عاصياً بتركها وما ذكره أكثر منفعة ، فعاهده على الوفاء بذلك ، وحلف له ، فرجع العابد إلى متعبده .

فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد، ثم أصبح اليوم

(١) الزمر ٣.

الثالث وما بعده فلم ير شيئاً فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة الشيخ فقال إلى أين فقال أقطع تلك الشجرة، فقال كذبت والله ما أنت بقادر عليها ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليأخذه كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر وإلا قتلتك، فنظر العابد فإذا لا طاقة له به، فقال يا هذا غلبتني خل عني، وأخبرني كيف غلبتك أول مرة وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله تعالى، وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله تعالى لك، وهذه المرة غضبت لنفسك والدنيا فصرعتك، وهذه الحكاية تصديق لقوله تعالى: ﴿ إلا عبادك منهم المخلصين ﴾[1] وكان معروف يضرب نفسه ويقول يا نفس اخلصي تخلصي.

بيان حقيقة الإخلاص:

أعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفى عن شوبه وتخلص عنه سمي خالصاً،ويسمى الفعل المصفى المخلص إخلاصاً قال الله تعالى: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴾[2] فإذا خلص الفعل عن الرياء وكان لله تعالى كان خالصاً.

بيان أقاويل المشايخ في الإخلاص:

قال السوسي: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، لأن من شاهد في إخلاصه الإخلاص احتاج إخلاصه إلى اخلاص، وقيل لسهل أي شيء أشد على النفس فقال الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب، وقال الإخلاص سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة.

وقال الجنيد: الإخلاص تصفية الأعمال من الكدرات، وقال الفضيل ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيه الله تعالى عنهما، وقيل الإخلاص دوام المراقبة ونسيان الحظوظ كلها والله أعلم.

بيان حقيقة الصدق:

قال الله تعالى: ﴿ رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ﴾[3] وقال عليه الصلاة

(١) الحجر ٤٠. (٢) النحل ٦٦. (٣) الاحزاب ٢٣.

والسلام: « أن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور وإن الفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » وقال تعالى في معرض المدح: ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً ﴾[1].

بيان معنى الصديق:

اعلم أن لفظ الصدق مستعمل في ستة مواضع: صدق في القول، وصدق في العمل، وصدق في النية والإرادة، وصدق في الوفاء بالعزم، وصدق في العمل، وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها، فمن اتصف بالصدق في جميع ذلك فهو صديق لأنه مبالغة من الصدق، وبقدر ما يتمكن من هذه المقامات، فهو صادق بالنسبة إليه، والله أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب.

* * *

(١) مريم ٤١.

الباب الثامن والثلاثون

في المراقبة والمحاسبة

اعلم أن الإيمان بالحساب يوم العرض الأكبر، يوجب تعجيل المحاسبة والاستعداد، قال عليه الصلاة والسلام: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا » وقال الله تعالى: ﴿ **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً. وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين** ﴾[1] وقال تعالى: ﴿ **ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها** ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ **واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروه** ﴾[3].

واعلم أن من حاسب نفسه على اللحظات والخطرات خفت في القيامة حسراته، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته، وكثرت في عرصات القيامة وقفاته، وقال تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا** ﴾[4] رابطوا أنفسكم أولاً بالمشارطة، ثم بالمراقبة، ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة، ثم بالمجاهدة ثم بالمعاينة، فهذه ست مقامات.

ونحن نشرح ذلك المقام الأول؛ المشارطة:

اعلم أن العقل هو التاجر في طريق الآخرة، وشريكه النفس إذ بمعاونتها يصل إلى المقصود، وهذا الشريك لا يؤدي الأمانة إن خلي ورأيه إلا حياء ورياء فيحتاج العقل إلى مشارطة أولاً ومراقبته ومعاقبته بعد ذلك فيوظف عليه الأمر ويشترط عليه الشروط ويرشده إلى طريق الفلاح ويحزم عليه الأمر.

(١) الأنبياء ٤٧. (٢) الكهف ٤٩.
(٣) البقرة ٢٣٥. (٤) آل عمران ٢٠٠.

المقام الثاني؛ المراقبة:

لأنه إذا كانت النفس كالشريك الخائن، فلا سبيل إلى إهمالها لحظة، لئلا تخون فيفسد رأس المال فضلاً عن الربح فاذاً لا بد من المراقبة على الدوام في السكنات والحركات واللحظات، قال عليه الصلاة والسلام: « **أعبد الله تعالى كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » وقال تعالى: ﴿ **إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾[1] وقال المرتعش: المراقبة مراعاة السر بملاحظة الغيب مع كل لحظة ولفظة.

المقام الثالث: محاسبة النفس بعد العمل:

قال الله تعالى: ﴿ **ولتنظر نفس ما قدمت لغد** ﴾[2] وفي الخبر ينبغي أن يكون للعاقل أربع ساعات، منها ساعة يحاسب فيها نفسه، وعن عمر رضي الله عنه: أنه كان يضرب قدميه بالدرة، إذا جنح الليل ويقول لنفسه ماذا عملت. فقد علمت بهذا إنه ينبغي لك أن تحاسب نفسك في آخر النهار على عمل اليوم.

المقام الرابع؛ المعاقبة:

وذلك بأن يظهر تقصير النفس في الطاعات وارتكابها المعاصي بعد الحساب، فلا ينبغي أن يهمل، لأنه إن أهملها سهل عليها الرجوع إلى مثلها، فإذا ظهر منها أكل لقمة بشبهة فليعاقبها بالجوع، وإذا نظرت إلى غير محرم فليعاقبها بمنع النظر، ومنع النوم، وكذا يعاقب كل طرف من أطرافه إذا طغى بمنع شهوته، كذلك نقل عن سالكي طريق الآخرة.

المقام الخامس؛ المجاهدة:

وذلك بأن تظهر خيانتها فيعاقبها، فلعلها لا تحتمل ولا تطيع فيجاهدها ويحملها على المجاهدات الشاقة مثلاً لو توانى عن صلاة الجماعة أو عن الإتيان بنافلة فيلزمها إحياء ليلة، وإن أبت فعلاجها أن تتلو على نفسك ما ورد من الأخبار والآيات في فضل المجاهدة.

المقام السادس؛ المعاتبة:

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك، قد خلقت أمارة بالسوء ميالة

(١) النساء ١. (٢) الحشر ١٨.

إلى الشر فرارة من الخير وأنت مأمور بمجاهدتها وحملها على عبادة ربك بالقهر، وتزكيتها بالعبادات، وترك الشهوات، فإن أهملتها شردت، وجمحت واستولت عليك، فلا تعطيك بعد ذلك، وإن أدمت توبيخها ومعاتبتها ربما أذعنت وترقت إلى أن صارت لوامة، وإن ترقت عن اللوامة صارت مطمئنة فتدخل في عباد الله راضية مرضية.

فلا تغفلن عنها ساعة ولا تشتغل بوعظ غيرك ما لم تفرغ عنها قال الله تعالى لعيسى عليه السلام: يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس وإلا فاستحي مني. وقال تعالى: ﴿ **وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين** ﴾[1] فعليك أن تقبل على نفسك، وتكرر عليها حماقتها وجهلها واغترارها، وتقول لها أما تستحين أن تنسبي الناس إلى الحمق والجهل، وأنت أجهل الناس فانك صائرة إلى الجنة أو إلى النار فما لك تشتغلين باللهو والضحك، وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم. فلعلك ترين الموت بعيداً وهو قريب ولعله يكون اليوم أو الليلة أو غداً وكل ما هو آت قريب أما علمت أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول.

وحكي أن منصور بن عمار قال سمعت في بعض الليالي عابداً بالكوفة يناجي ربه ويقول: يا رب وعزتك ما أردت بمعصيتك مخالفتك ولا عصيتك إذا عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض، ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لي نفسي وأعانني على ذلك شوقي، وغرني سترك المرخي علي فعصيتك بجهلي وخالفتك بفعلي فمن عذابك الآن من يستنقذني أو بحبل من اعتصم إن قطعت حبلك عني واسوأتاه من الوقوف بين يديك إذا قيل للمخفين جوزوا وللمثقلين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المثقلين أحط، ويلي كلما كبرت سني كثرت ذنوبي، ويلي كلما طال عمري كثرت معاصي، فإلى متى أتوب وإلى متى أعود، أما آن لي أن أستحي من ربي؟

فاذن لك طريقان طريق في معاتبة النفس وطريق في مناجاة الرب تعالى وتقدس، والاستعانة به عليها والتبري من الحول والقوة والتضرع والاستكانة بين يديه لعله بفضله يكفيك شرها والله أعلم.

* * *

(١) الذاريات ٥٥.

الباب التاسع والثلاثون

في التفكر

قد ورد في السنة أن تفكر ساعة خير من عبادة سنة، والحث على التفكر والتدبر والنظر والاعتبار معلوم من الايات والأخبار إذ هو مفتاح الأنوار، ومبدأ الاستنصار وشبكة العلوم.

أما فضيلته فقد قال تعالى في معرض المدح: ﴿ **ويتفكرون في خلق السموات والأرض** ﴾[1] وقال ابن عباس لقوم: لا تتفكروا في الله عز وجل فقال النبي ﷺ: « **تفكروا في خلق الله ولا تتفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره** ».

وعن النبي ﷺ: « **أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال ما لكم لا تتكلمون قالوا نتفكر في خلق الله تعالى قال: فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تتفكروا فيه فإن بهذا المغرب أرضاً بيضاء نورها بياضها أو بياضها نورها مسيرة الشمس أربعين يوماً، بها خلق من خلق الله تعالى لم يعصوا الله طرفة عين قالوا يا رسول الله فأين الشيطان منهم قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا، قالوا من ولد آدم قال لا يدرون خلق آدم أم لا** ».

وعن عطاء قال انطلقت يوماً أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضي الله عنها وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما يمنعك من زيارتنا قال قول النبي ﷺ: « **زر غباً تزدد حباً** » قال ابن عمير حدثينا بأعجب ما رأيته من رسول الله ﷺ فبكت وقالت: كل امره كان عجباً أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي فقال: « **ذريني أصلي لربي** » فقام إلى القربة فتوضأ منها ثم قام يصلي فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم

(١) آل عمران ١٩١.

اضطجع على جنبه حتى أتى بلال يؤذنه بصلاة الصبح فقال يا رسول الله وما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فقال ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله تعالى علي في هذه الليلة أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها ».

قيل للأوزاعي ما غاية التفكر فيهن قال: يقرؤهن ويعقلهن قال الجنيد رضي الله عنه أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنسيم المعرفة والشرب بكأس المحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن بالله تعالى، ثم قال يا لها من مجالس ما أجلها ومن شراب ما ألذه طوبى لمن رزقه.

بيان حقيقة الفكر وثمرته:

اعلم أن معنى الفكر هو احضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة، ومثاله أن يعرف أن الآخرة خير وأبقى وما كان خيراً وأبقى كان بالاختيار أحرى والغرض من التفكر تحصيل العلم في قلبه فيوجب ذلك حالاً وفعلاً بهما نجاته وهما من ثمرات العلم والعلم ثمرة التفكر.

بيان مجاري الفكر:

اعلم أن العبد تارة ينظر في حال نفسه ويتفكر فيها كما سبق وتارة في كتاب الله تعالى وفي صفاته وأفعاله.

وأما التفكر في ذات الله تعالى فلا سبيل إليه إلا بمجرد الذكر.

أما التفكر في صفاته وملكه وملكوته فبقدر ما يتفكر في ملكه وملكوته وصفاته يزداد حبه والتفكر فيما خلق له لانكشاف حاله به وذلك كالتدبر في معاني أسمائه وصفاته والتفكر في السموات والأرض والكواكب وكل شيء سوى الله تعالى فإنه خلقه وصنعه قال الله تعالى: ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق ﴾(١) الآية. وقال الله تعالى: ﴿ وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾(٢) فمجاري التفكر نفسك ثم جميع خلق الله تعالى فافهم تغنم والله أعلم.

(١) فصلت ٥٣. (٢) الذاريات ٢١.

الباب الأربعون

في ذكر الموت وما بعده

قال الله تعالى: ﴿ قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم ﴾(١) فمن الناس من لا يذكر الموت إلا على الندور وإذا ذكره كرهه لانهماكه في الدنيا وهذا يزيده ذكر الموت من الله تعالى بعداً، ومن الناس من أقبل بوجهه على الله تعالى فتاب عما لا ينبغي فذكر الموت يزيده خشية وتأهباً، واستعداداً ووفاء بتمام التوبة، فهذا لا يكره الموت لانهماكه في الدنيا، وإنما يكرهه لقلة زاده وعدم استعداده فهذه الكراهية ليست كراهية للقاء الله تعالى، بل هو غير مذموم، فإنه يريد الحياة للتأهب والاستعداد وبوده لو كفى ما هو فيه فيفضي به الموت إلى لقاء الله تعالى وجواره الكريم.

وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً، لكونه موعد اللقاء الحبيب، والمحب لا ينسى قط موعد حبيبه، ومثل هذا العبد يستبطىء مجيء الموت، كما روي عن حذيفة رضي الله عنه أنه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة لا أفلح من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إليّ من الغنى والسقم أحب إليّ من الصحة والموت أحب إلي من الحياة فسهل علي الموت حتى ألقاك.

وأعلى الرتب أن يفوض أمره إلى الله تعالى، فلا يختار لنفسه موتاً ولا حياة، وقد انتهى الحب به إلى مقام التسليم فلا يختار لنفسه شيئاً إلا ما يختاره له مولاه.

بيان فضل ذكر الموت:

قال ﷺ: « **أكثروا من ذكر هاذم اللذات** » وقال ﷺ: « **لو أن البهائم تعلم من الموت ما تعلمون ما أكلتم منها سميناً** » وقالت عائشة رضي الله عنها: « يا رسول الله

(١) الجمعة ٨.

هل يحشر مع الشهداء أحد، قال: نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة » وقال ﷺ: « تحفة المؤمن الموت » وقال ﷺ: « كفى بالموت واعظاً » وخرج ﷺ ذات يوم إلى المسجد، وإذا قوم يتحدثون ويضحكون، فقال: « اذكروا الموت » أما والذي نفسي بيده لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً.

واعلم أن الموت أمر هائل عظيم، والتفكر فيه يوجب التجافي عن دار الغرور، وقلة السرور والتأهب له، نعم الإنسان إذا ذكره بقلب مشغول لا يظهر أثره فيه، فالسبيل فيه أن يفرغ قلبه عما عداه، ويتفكر فيه كما يتفكر في سفره الذي عزم عليه، في بر أو بحر، فإنه يكون الغالب على قلبه التفكر فيه والاستعداد له لا غير.

فضيلة قصر الأمل وذم طوله:

قال ﷺ لعبدالله بن عمر: « **إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك،فإنك يا عبد الله ما تدري ما اسمك غداً** ».

وروى علي رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « **إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان، اتباع الهوى وطول الأمل، أما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه يوجب الحب للدنيا، ثم قال: ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويبغض وإذا أحب عبداً أعطاه الإيمان ألا إن للدين أبناء وللدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، ألا إن الدنيا قد ارتحلت وهي مولية ألا وان الأخرة قد جاءت وهي مقبلة، ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون أن تصيروا في يوم حساب ليس فيه عمل** ».

وقال ﷺ: « **أيها الناس أما تستحيون من الله تعالى؟ قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون** ».

وقال أبو سعيد الخدري: اشترى أسامة بن زيد وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعه رسول الله ﷺ فقال: « **ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة لطويل الأمل، ووالذي نفسي بيده ما طرفت عيناي إلا ظننت أن شفري لا يلتقيان حتى يقبض الله روحي، ولا رفعت طرفي فظننت أني واضعه حتى أقبض، ولا لقمت لقمة إلا**

ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم إن كنتم تعقلون فعدوا أنفسكم من الموتى والذي نفسي بيده إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين ».

وروى ابن عباس أنه كان يخرج ﷺ يهريق الماء فيتمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول: « **ما يدريني لعلي لا أبلغه** » وروي أنه ﷺ أخذ ثلاثة أعواد فغرس عوداً بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبعده فقال: « **هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل** ».

فصـل
في سكرات الموت وما يستجب عنده من الأحوال

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي ابن آدم هول سوى سكرات الموت، لكان جديراً بأن لا يهنأ له عيش، وحقيق بأن يطول فيه تأمله وفكرته، ويحسن له استعداده وتأهبه. كما قال بعض الحكماء رحمه الله تعالى: كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك.

وقال لقمان لابنه: يا بني أمر لا تدري متى يلقاك استعد له قبل أن يفجاك، والعجب أن الإنسان لو كان يتوقع أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس خشبات لتنغص عيشه، وهو في كل نفس بصدد أن يدخل عليك ملك الموت، كيف لا يتنغص عيشه.

واعلم أن شدة الألم في سكرات الموت لا يعرفها إلا من ذاقها، ومن لم يذقها فإنما يعرفها بالقياس على الآلام التي أدركها أو بالاستدلال بأحوال الموتى. إذا شاهدها، أما القياس فبأن يعلم أن الآلام إنما يصل إلى الروح منها شيء قليل.

وأما الموت فهو ألم في نفس الروح وشدته في جميع الأعضاء فما أعظمه من ألم، ألا ترى النار إذا باشرت الجسد بالاحراق يزيد على الجرح المه لأنه يلقي سائر جسده أجزاء الروح وإنما انقطع صياحه وصوته مع ألمه لأن الكرب فيه قد تصاعد إلى قلبه واستغرق جميع أعضائه فهد منه كل عضو وقوة ولم يبق له قوة الاستغاثة.

أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد

أضعفها، ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغاثة، ولكنه لا يقدر على ذلك فإن بقيت فيه بقية قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خواراً وغرغرة في حلقه وصدره وقد تغير لونه واربد حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته، فتنزع الروح من كل عرق من عروقه على حياله، ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجاً فتبرد أولاً قدماه ثم ساقاه ثم فخذاه، ولكل عضو سكرة وحسرة على حيالها حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فعند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها، ويغلق دونه باب التوبة.

وقال عليه السلام: « **تقبل توبة العبد ما لم يغرغر** »، وعن الحسن: « أنه ﷺ ذكر الموت وغصته وألمه فقال قدر ثلثمائة ضربة بالسيف »، وعن زياد بن أسلم عن أبيه قال: إذا بقي على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله، شدد عليه الموت ليبلغ بسكرات الموت وكربه درجته في الجنة، وإذا كان للكافر معروف لم يجز به في الدنيا هون عليه الموت ليستكمل ثواب معروفه فيصير إلى النار. وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيراً من المرضى كيف تجدون الموت، فلما مرض سئل فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسي تخرج من ثقب إبرة. وقال عليه السلام: « **موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر** ».

الداهية الثانية: مشاهدة صورة ملك الموت، ودخول الروع والخوف منه على القلب. روي عن الخليل ﷺ أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح الفاجر، قال لا تطيق ذلك، قال فأعرض عني فأعرض عنه فالتفت فإذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الرائحة أسود الثياب يخرج من فيه ومناخره لهب نار ودخان فغشي على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى، فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه.

وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **إن داود عليه السلام كان رجلاً غيوراً، وكان إذا خرج غلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فإذا هي برجل في الدار فقالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء، فجاء داود فرآه فقال: من أنت فقال أنا الذي لا أهاب الملوك ولا يمنعني الحجاب، فقال فأنت والله إذاً ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه.**

وروي أن عيسى عليه السلام مر بجمجمة فضربها برجله وقال كلميني بإذن الله تعالى، فقالت يا روح الله إنما أنا ملك زمان كذا وكذا، أتاني آت وأنا جالس في ملكي وعلي تاجي وحولي جنودي وحشمي على سرير ملكي إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت نفسي إليه، فيا ليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن إبراهيم عليه السلام كان رجلاً غيوراً وكان له بيت يتعبد فيه فإذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فإذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك داري فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك، فقال من أنت من الملائكة، قال أنا ملك الموت، قال هل تستطيع أن تريني الصورة التي تقبض فيها روح المؤمن، قال نعم فأعرض ثم التفت فإذا هو شاب وقد ذكر من حسنه وحسن ثيابه وطيب ريحه، فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه.

ومنها مشاهدة الملكين الحافظين، قال وهيب بلغنا أنه ما من ميت يموت حتى يتراءى ملكاه الكاتبان عمله فإن كان مطيعاً قالا له جزاك الله عنا كل خير فرب مجلس صدق أجلستنا ورب عمل صالح أحضرتنا وإن كان فاجراً قالا له لا جزاك الله عنا خيراً فرب مجلس سوء أجلستنا ومن كلام قبيح أسمعتنا فذلك شخوص بصره إليهما.

الداهية الثالثة: مشاهدة العصاة ومواضعهم من النار وخوفهم، لأنهم لن تخرج أرواحهم ما لم يسمعوا ملك الموت بإحدى كلمتين، أبشر يا عدو الله بالنار وأبشر يا ولي الله بالجنة. ومن هذا كان خوف أرباب الألباب، قال عليه السلام: « **لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره، وحتى يرى مقعده من الجنة والنار** ».

بيان ما يستحب من أحوال المحتضر:

والمستحب هو الهدوء والسكون، وأن يكون لسانه ناطقاً بالشهادة ويستحب من قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى، راجياً لغفرانه قال ﷺ: « **ارقبوا الميت عند ثلاث: إذا رشح جبينه وذرفت عيناه ويبست شفتاه فهو من رحمة الله تعالى وقد نزلت به**»، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه ﷺ قال: « **لقنوا موتاكم قول لا إله إلا الله** » وفي رواية حذيفة: « فإنها تهدم ما قبلها من الخطايا ».

وقال أبو هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**حضر ملك الموت رجلا يموت فنظر في قلبه فلم يجد فيه شيئاً ففك لحيته فوجد طرف لسانه لاصقاً بحنكه وهو يقول لا إله إلا الله فغفر له بكلمة الإخلاص** »، ويستحب الرفق في التلقين فلعل لسانه لا ينطلق للضعف فإن ألح عليه يخشى أن يكره الكلمة، وأما حسن الظن فيستحب لقوله عليه السلام: « **أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي خيراً** ».

بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت:

قال وهب بن منبه: كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض، فدعا بثياب ليلبسها فلم تعجبه وطلب غيرها ليلبسها، فما أعجبته، ثم لبس ما اعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتي بها فلم تعجبه، حتى أتي بدواب فركب أحسنها، فجاء ابليس فنفخ في منخره فملأه كبراً ثم سار وسارت معه الخيول وهو لا ينظر إلى الناس كبراً، فجاءه رجل رث الهيئة فسلم فلم يرد السلام، فأخذ بلجام دابته، فقال أرسل اللجام فقد تعاطيت امراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال إصبر حتى أنزل قال لا الآن فقهره على لجام دابته فقال له أذكرها قال هو سر فأدنى إليه رأسه فساره، وقال أنا ملك الموت فتغير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى بيتي وأقضي حاجتي وأودعهم، فقال والله لا ترى أهلك وثقلك أبداً فقبض روحه فخرَّ كأنه خشبة.

ثم لقي عبداً صالحاً في تلك الحال فسلم فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة، قال فاذكرها لي، فساره وقال أنا ملك الموت فقال مرحباً وأهلاً وسهلاً بمن طالت غيبته علي، فوالله ما كان في الأرض غائب أحب إلي أن ألقاه منك، فقال له ملك الموت أقض حاجتك التي خرجت لها، فقال ما لي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك، فقال تقدر على ذلك قال نعم إني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي فاقبض روحي وأنا ساجد فقبض روحه وهو ساجد.

وقال أبو بكر بن عبدالله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالاً فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتي بشيء كثير من الخيل والإبل والرقيق فلما نظر إليه بكى تحسراً عليه، فرآه ملك الموت وهو يبكي، فقال له ما يبكيك فوالذي

خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيهات انقطعت عنك المهلة فهلا كان ذلك قبل حضور أجلك، فقبض روحه.

فصل

في وفاة رسول الله ﷺ والخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين

اعلم أن في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حياً وميتاً، وإذ توفي هو فلا طمع لأحد في البقاء، قال الله تعالى: ﴿ **أفإن مت فهم الخالدون** ﴾(١). وقال الله تعالى: ﴿ **كل نفس ذائقة الموت** ﴾(٢).

قال ابن مسعود رضي الله عنه: « دخلنا على رسول الله ﷺ في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين إذ دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه ﷺ ثم قال مرحباً حياكم الله آواكم الله، نصركم الله، أوصيكم بتقوى الله، وأوصي بكم الله، إني لكم منه نذير مبين أن لا تعلوا على الله في عباده وبلاده، وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله تعالى وإلى سدرة المنتهى وإلى جنة المأوى وإلى الكأس الأوفى فاقرأوا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدي مني السلام ».

وروي أنه ﷺ قال لجبريل عليه السلام عند موته: « **من لأمتي بعدي فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذله في أمته، وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض، إذا بعثوا، وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته، فقال الآن قد قرت عيني** ».

وروي أن عائشة رضي الله عنها قالت: « قبض رسول الله ﷺ في بيتي وفي يومي وبين سحري ونحري وجمع الله بين ريقي وريقه عند الموت، فدخل علي أخي عبد الرحمن وبيده سواك فجعل ينظر إليه فعرفت أنه يعجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأومأ برأسه أن نعم فناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت ألينه لك، فأومأ برأسه أن نعم فلينته، وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل يده فيها ويقول لا إلَه إلا الله، إن للموت لسكرات، ثم نصب يده، ويقول الرفيق الأعلى، الرفيق الأعلى، فقلت إذاً والله لا يختارنا ».

(١) الانبياء ٣٤. (٢) آل عمران ١٨٥.

وروي ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لأبي بكر : « سل يا أبا بكر، فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا وتدلى ، ليهنك يا نبي الله ما عند الله فليت شعري عن منقلبنا فقال إلى الله وإلى سدرة المنتهى ثم إلى جنة المأوى والفردوس الأعلى والكأس الأوفى والرفيق الأعلى والحظ والعيش المهنا فقال : يا نبي الله من يلي غسلك قال رجل من أهل بيتي الأدنى فالأدنى فقلنا ففيم نكفنك قال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي قباطي مصر قال كيف الصلاة عليك منا .

وبكينا وبكى ثم قال مهلاً غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيراً إذا غسلتموني وكفنتموني فضعوني على سريري في بيتي هذا على شفير قبري . ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من يصلي علي الله عز وجل هو الذي يصلي عليكم وملائكته ثم يأذن للملائكة في الصلاة علي فأول من يدخل علي من خلق الله ويصلي علي جبريل عليه السلام ثم ميكائيل عليه السلام ثم إسرافيل عليه السلام ثم ملك الموت مع جنود كثيرة ثم الملائكة بأجمعها ثم أنتم فادخلوا علي أفواجاً فصلوا علي أفواجاً زمراً وسلموا تسليماً ولا تؤذوني بتزكية ولا صيحة ولا صرخة ولا رنة ، وليبدأ منكم الإمام وأهل بيتي الأدنى فالأدنى ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان ، قال فمن يدخل القبر قال زمر أهل بيتي الأدنى فالأدنى مع ملائكة كثيرة لا ترونهم وهم يرونكم ، قوموا فأدوا عني إلى من بعدي السلام.

وقالت عائشة رضي الله عنها : « لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله ﷺ رأوا منه خفة في أول النهار فتفرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائجهم مستبشرين وأخلوا رسول الله ﷺ بالنساء .

فبينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح مثل ذلك فقال رسول الله ﷺ : أخرجن عني هذا الملك يستأذن علي فخرج من في البيت غيري ورأسه في حجري وجلس وتنحيت في جانب البيت فناجى الملك طويلاً .

ثم إنه عاد وأعاد رأسه في حجري وقال للنساء ادخلن فقلت ما هذا بحس جبريل عليه السلام، فقال رسول الله ﷺ : أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال يا رسول الله إن الله تعالى أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بإذن فإن لم تأذن

أرجع وإن أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فماذا أمرك؟ فقال النبي ﷺ : اكفف عني حتى يأتيني جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر لكم يكن له عندنا جواب ولا رأي فوجمنا كأنما ضربنا بصاخة ما نحير إليه شيئاً وما يتكلم أحد من أهل البيت تعظماً لذلك الأمر وهيبة .

قالت وجاء جبريل عليه السلام في ساعته فسلم فعرفت حسه وخرج أهل البيت ودخل جبريل فقال إن الله عز وجل يقرئك السلام ويقول لك كيف تجدك وهو أعلم بالذي تجد منا ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرفاً وأن يتم كرامتك وشرفك على الخلق وتكون سنة في أمتك فقال أجد وجعاً قال أبشر فإن الله تعالى أراد أن يبلغك ما أعدّ لك .

فقال يا جبريل إن ملك الموت استأذن علي وأخبره الخبر قال عليه السلام: يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم أعلمك الذي يريد بك لا والله ما استأذن ملك الموت على احد قط ولا يستأذن عليه أبداً إلا أن ربك متم لك وهو إليك مشتاق قال فلا تبرح إذاً حتى يجيء .

وأذن للنساء فقال يا فاطمة أدني فأكبت عليه وجهها فناجاها فرفعت رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ، ثم قال أدني مني رأسك فأكبت عليه فناجاها فرفعت رأسها وهي تضحك وما تطيق الكلام ، فكان الذي رأينا منها عجباً فسألناها بعد ذلك فقالت قال إني ميت اليوم فبكيت ثم قال إني دعوت الله أن يلحقك في أول أهلي بي وأن يجعلك معي فضحكت .

قال وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك ما تأمر يا محمد، قال ألحقني بربي الآن ، قال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ، ولم يتردد عن أحد تردده عنك ، ولم ينهني عن الدخول على أحد إلا بإذن غيرك ، ولكن ساعتك أمامك وخرج .

قالت وجاء جبريل عليه السلام فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض وطوي الوحي وطويت الدنيا ، وما كان لي في الأرض حاجة غيرك وما لي فيها إلا صورتك ثم لزوم موقفي لا والذي بعث محمداً ﷺ بالحق ، ما في

البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يبعث إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقنا.

قالت فقمت إلى النبي ﷺ حتى أضع رأسه بين ثديي وأمسكت بصدره وجعل يغمى عليه، حتى يغلب وجبهته ترشح عرقاً ما رأيت من إنسان قط أطيب منه، وجعلت أرسل ذلك العرق وما وجدت رائحة شيء قط أطيب منه، فكنت أقول له إذا أفاق بأبي وأمي ونفسي وأهلي ومالي ما تلقى جبهتك من العرق والرسح، فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شدقه كنفس الحمار.

فعند ذلك ارتعنا وبعثنا إلى أهلينا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إلى أبي فمات رسول الله ﷺ قبل أن يجيء أحد وإنما صدهم الله عز وجل عنه لأنه تولاه جبريل وميكائيل وجعل إذا أغمي عليه قال بل الرفيق الأعلى».

قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله ﷺ بين ارتفاع الضحى وانتصاف النهار يوم الاثنين فصلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين أجمعين.

وفاة أبي بكر الصديق رضي الله عنه:

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها وتمثلت بهذا البيت:

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر

فكشف عن وجهه وقال: ليس كذلك ولكن قولي: ﴿ وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد ﴾[1] انظروا ثوبيَّ هذين فاغسلوهما وكفنوني فيهما فإن الحي إلى الجديد أحوج من الميت.

قالت عائشة رضي الله عنها عند موته هذا البيت:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر رضي الله عنه ذاك رسول الله ﷺ ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعو

(١) ق ١٩.

لك طبيباً ينظر إليك، فقال قد نظر إلي وقال إني فعال لما أريد ودخل سلمان الفارسي رضي الله عنه يعوده فقال يا أبا بكر أوصنا فقال إن الله فاتح عليكم الدنيا فلا تأخذوا منا إلا بلاغكم.

واعلم أن من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله تعالى فلا تخفرن الله في ذمته فيكبك في النار على وجهك ولما ثقل أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وأراد الناس منه أن يستخلف فاستخلف عمر رضي الله عنهما، فقال الناس له استخلفت علينا فظاً غليظ القلب فما تقول لربك، فقال أقول استخلفت على خلقك خير خلقك رضي الله عنهما آمين.

وفاة عمر رضي الله عنه:

قال عمر بن ميمون: كنت قائماً غداة أصيب عمر ما بيني وبينه إلا عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، فكان إذا مر بين الصفين قام بينهما فإذا رأى خللاً قال استووا، حتى إذا لم ير فيهم خللاً تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو غير ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس، فما هو إلا أن كبر فسمعته يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة، وطار العلج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً وشمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم تسعة أو سبعة. فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنساً فلما ظن العلج أنه مأخوذ نحر نفسه.

وروي أنه بعث عبدالله إلى عائشة رضي الله عنها وقال لها يقرأ عليك عمر السلام لا تقل أمير المؤمنين فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبدالله فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت كنت أريده لنفسي ولأوثرنه اليوم على نفسي.

فلما أقبل قيل هذا عبدالله بن عمر قد جاء قال ارفعوني فأسنده رجل إليه قال ما لديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أهم لي من ذلك. فإذا أنا قبضت فاحملوني ثم اسلموا وقولوا يستأذن عمر فإن أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني فردوني إلى مقابر المسلمين.

وجاءت أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا

فولجت عليه وبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فولجت داخلا فسمعنا بكاءها من داخل، فقيل أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم فسمى علياً وعثمان والزبير وطلحة وسعداً وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبدالله بن عمر وليس له من الأمر شيء، قال ﷺ : **« قال لي جبريل ليبكي الإسلام على موت عمر »**.

وفاة عثمان رضي الله عنه:

والحديث في قتله مشهور قال عبدالله بن سلام أتيت أخي عثمان لأسلم عليه وهو محصور فدخلت عليه فقال مرحباً يا أخي، رأيت رسول الله ﷺ في هذه الخوخة وهي خوخة في البيت، فقال يا عثمان حصروك قلت نعم، قال أعطشوك قلت نعم، فأدلى إلي دلواً فيه ماء فشربت حتى رويت حتى أني لأجد برده بين ثديي وبين كتفي، وقال لي إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رحمه الله تعالى.

وقال عبدالله بن سلام لمن حضر تشحط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشحط قالوا سمعناه يقول: اللهم اجمع أمة محمد ثلاثاً قال والذي نفسي بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبداً ما اجتمعوا إلى يوم القيامة.

وفاة علي رضي الله عنه وأرضاه:

قال الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها علي رضي الله عنه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متثاقل فعاد الثانية وهو كذلك متثاقل فعاد الثالثة فقام ومشى وهو يقول هذه الأبيات:

أشدد حيازيمك للمو ت فإن الموت لاقيكا
ولا تجزع من المو ت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه. فخرجت أم كلثوم بنت علي رضي الله تعالى عنها فجعلت تقول ما لي ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة، وعن شيخ من قريش أن علياً رضي الله تعالى عنه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة.

فصل
في كلام المحتضرين

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أقعدوني فأقعدوه، فجعل يذكر الله ويسبحه، ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطام إلا كان هذا. وغصن الشباب نضر وبكى حتى علا بكاؤه، وقال يا رب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسي، اللهم أقل العثرة واغفر الزلة وعد بحلمك على من لا يرجو غيرك ولم يثق بأحد سواك.

ولما حضرت معاذ الوفاة قال: اللهم إني كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك، اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجري الأنهار وغرس الأشجار ولكن لظمأ الهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب. وقيل لذي النون ما تشتهي قال أن أعرفه قبل موتي بلحظة.

بيان حال القبر وأقاويلهم على القبور:

قال الضحاك قال رسول الله ﷺ : **« لما قيل له من أزهد الناس، قال من لم ينس القبر والبلى وترك أفضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى، ولم يعد غداً من أيامه وعد نفسه من أهل القبور »**.

وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القبور، قال ما أحسن ظواهرك إنما الدواهي في بواطنك، ومر داود عليه السلام على امرأة تبكي وهي تقول على قبر:

عدمت الحياة فلا أنلها إذا أنت في القبر قد ألحدوك
فكيف أذوق طعم الكرى وأنت يمناك قد وسدوك

ثم قالت يا أبتاه ليت شعري بأي خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشياً عليه.

بيان الأدب عند موت الولد:

إذا مات ولدك أو قرابتك، فنزله منزلة من تقدم عليك في سفر، لا بد وأن تتبعه أو من رجع قبلك إلى الوطن وأنت تتبعه، فإنك إذا علمت أنك ستلحق به لا يشق عليك، ويستحب أحياناً زيارة القبور، فقد أذن فيها بعد أن كنا نهينا عنها.

قال أبو ذر قال رسول الله ﷺ: «زوروا القبور تذكروا بها الآخرة واغسلوا الموتى فإن معالجة جسد خاوٍ موعظة بليغة» قال: «وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فإن الحزين في ظل الله تعالى» وقال عليه السلام: «زوروا أمواتكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم فإن لكم فيها عبرة».

بيان حقيقة الموت:

اعلم أن حقيقة الموت على ما دلت عليه الآيات والأخبار وشهدت له طرق الاعتبار مفارقة الروح البدن لا عدم الروح. أما الآيات فقال الله تعالى: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين﴾[1] هذا في الشهداء. والخبر يدل على الأشقياء أيضاً، قال عليه السلام يوم بدر لصناديد قريش لما قتلوا: «يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً فقيل يا رسول الله أتناديهم وهم أموات قال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام منكم إلا أنهم لا يقدرون على الجواب» وقد روى أبو أيوب الأنصاري عن النبي ﷺ أنه قال: «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله تعالى كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون انظروا أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت فلانة؟ فإذا سألوه عن رجل مات قبله وقال مات قبلي قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية».

بيان كلام القبر للميت حين يوضع فيه:

قال رسول الله ﷺ: «يقول القبر للميت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك بي، ألم تعلم أني بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود، ما غرك بي إذ كنت تمر بي فذاذا. فإن كان عمله صالحاً أجاب عنه مجيب للقبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول القبر إني إذاً أتحول عليه خضراً ويعود جسمه نوراً وتصعد روحه إلى الله تعالى» والفذاذ هو الذي يقدم رجلاً ويؤخر أخرى كذلك فسره الراوي.

(١) آل عمران ١٦٩.

بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير:

قال البراء بن عازب: خرجنا مع رسول الله ﷺ نصلي على جنازة رجل من الأنصار فجلس على قبره منكساً رأسه ثم قال: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثاً ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة، بعث الله تعالى ملائكة كأن وجوههم الشمس ومعهم حنوط وكفن، فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يحب أن يدخل بروحه منه. فإذا صعد بروحه منه قيل أي رب إني عبدك، فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الكرامة فإني وعدته، ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[1] وإنه ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك، فيقول ربي الله تعالى وديني الإسلام ونبيي محمد، فينتهرانه انتهاراً شديداً وهي آخر فتنة تعرض على الميت، فإذا قال ذلك، نادى مناد أن قد صدقت وهو معنى قوله تعالى: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[2].

ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الرائحة حسن الثياب، فيقول أبشر برحمة من ربك وجنات لهم فيها نعيم مقيم، فيقول وأنت بشرك الله بخير من أنت، فيقول أنا عملك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريعاً إلى طاعة الله تعالى بطيئاً عن معصية الله تعالى فجزاك الله خيراً.

قال ثم ينادي منادٍ أن افرشوا له فراشاً من فرش الجنة وافتحوا له باباً إلى الجنة، فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

قال وأما الكافر فإنه إذا كان في قبل من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسرابيل من قطران، فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه، فإذا صعد بروحه نبذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض، فيقول ارجعوه فأروه ما أعددت له من الشر، فإني وعدته ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾[3] وإنه

(١ و ٣) طه ٥٥. (٢) إبراهيم ٢٧.

ليسمع خفق نعالهم إذا ولوا مدبرين، حتى يقال له يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك، فيقول لا أدري فيقال لا دريت.

ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب، فيقول له أبشر بسخط من الله تعالى وبعذاب أليم مقيم، فيقول بشرك الله تعالى بشر، من أنت فيقول أنا عملك الخبيث، والله ما علمت أن كنت لسريعاً في معصية الله تعالى، بطيئاً عن طاعة الله تعالى، فجزاك الله تعالى شراً، فيقول وأنت فجزاك الله شراً.

ثم يقبض له اصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يحملوها لم يستطيعوا، لو ضرب بها جبل صار تراباً فيضربه بها ضربة فيصير تراباً ثم تعود فيه الروح، فيضربه بها بين عينيه ضربة يسمعها من على الأرضين ليس الثقلين، قال ثم ينادي مناد أن افرشوا له لوحين من نار وافتحوا له باباً إلى النار، فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار.

وقال ﷺ: **« المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعاً، ويضيء حتى يكون كالقمر ليلة البدر، هل تدرون فيماذا أنزلت: ﴿ فإن له معيشة ضنكا ﴾[١] قالوا الله ورسوله أعلم. قال ﷺ: عذاب الكافر في قبرة يسلط عليه تسعة وتسعون تنيناً هل تدرون ما التنين تسع وتسعون حية لكل حية سبعة رؤوس يخدشونه ويلحسونه وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون ».**

وقالت عائشة رضي الله عنها قال رسول الله ﷺ: إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجا منها أحد، لنجا منها سعد بن معاذ، ولما قال ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في منكر ونكير. قال يا رسول الله ويكون معي عقلي، قال رسول الله ﷺ: « نعم قال إذن أكفيكهما » فدل ذلك على أن العقل لا يزول بالموت كما سبق ذكره.

فصل
فيما يلقى الميت من نفخة الصور وما بعده

قد عرفت فيما سبق شدة أهوال الموت وسكراته وخطره في خوف الخاتمة، ثم

(١) طه ١٢٤.

مقاساته لظلمة القبر وديدانه ثم منكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر إن كان شقياً.

وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور والعرض على الجبار والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير ثم جواز الصراط مع دقته وحدته ثم انتظار النداء عند فصل القضاء، إما بالإسعاد وإما بالإشقاء فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم إمعان الفكر فيها لينبعث من قلبك دواعي الاستعداد لها.

وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويداء افئدتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها.

أما نفخ الصور فقال الله تعالى: ﴿ **ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون** ﴾[١] صعق أي مات إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت. ثم يأمر ملك الموت بقبض روح جبريل ثم روح إسرافيل ثم روح ميكائيل ثم يأمر ملك الموت فيموت.

ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون، ثم يساقون إلى أرض المحشر، وهم حفاة عراة قد غرقوا في العرق كل واحد على قدر ذنوبه، فيقفون في طول يوم القيامة شاخصة أبصارهم كل على قدر حسابه، فيسأل عن النقير والقطمير، ثم يوزن بالميزان حسناته وسيئاته وعند ذلك تطالبه الخصماء بالمظالم، ثم يساقون إلى الصراط كما سبق في الاعتقاد فيسألون عند ذلك، وهو قوله تعالى: ﴿ **فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون** ﴾[٢].

صفة الشفاعة:

اعلم أنه إذا حق العذاب على طوائف من المؤمنين، فالله سبحانه وتعالى يقبل فيهم شفاعة الأنبياء والأولياء والعلماء وكل من له عند الله منزلة.

صفة الحوض:

قال أنس رضي الله عنه أغفى رسول الله ﷺ إغفاء فرفع رأسه متبسماً فقالوا له

(١) الزمر ٦٨. (٢) الصافات ٢٣، ٢٤.

يا رسول الله لم ضحكت فقال ﷺ : « **آية أنزلت علي آنفاً** » فقرأ : ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم إنا أعطيناك الكوثر** ﴾[1] حتى ختمها ثم قال أتدرون ما الكوثر قلنا الله ورسوله أعلم، قال ﷺ إنه نهر وعدنيه ربي جل جلاله في الجنة، عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آنيته عدد الكواكب » اللهم ارزقنا الورود عليه.

صفة جهنم وأهوالها وأنكالها أجارنا الله تعالى منها:

اعلم أن النار يردها كل أحد، قال الله تعالى : ﴿ **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً** ﴾[2].

اعلم أنه لا نجاة إلا بالتقوى قال الله تعالى : ﴿ **ثم ننجي الذين اتقوا** ﴾[3] فالورود يقيناً والتقوى التي بها النجاة مشكوك فيها.

فاستشعر أيها المسكين في قلبك هول ذلك المورد والناس في غمرات الأهوال مما قاسوا من تلك الدواهي، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب وسمعوا لها زفيراً وجرجرة تفصح عن شدة الغيظ والغضب فأيقن المجرمون بالعطب وجثت الأمم على الركب، حتى أشفق البرءاة من سوء المنقلب. وخرج المنادي من الزبانية قائلاً أين فلان ابن فلان المسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل، المضيع عمره في سوء العمل، فيبادرونه بمقامع من حديد، نعوذ بالله منها، ويسوقونه إلى العذاب الشديد وينكسونه في قرار الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم.

القول في صفة الجنة ونعيمها:

اعلم أن دار البوار يقابلها دار القرار وهي الجنة وبقدر البعد من أحدهما يصل إلى الأخرة، فاذكر النار ليستثير به الخوف من قلبك، واذكر الجنة ليستثير الرجاء إذا خفت على نفسك القنوط من كثرة الذنوب وغلبة الخوف، والآيات والأخبار دالة على صفة أهل الجنة ونعيمهم وأمنهم وطعامهم وشرابهم وفواكههم فلا يحتاج إلى الإطناب فيه.

وقد وردت الأخبار الدالة على الرؤية وهي أعلى درجات النعيم. قال جرير

(١) الكوثر ١. (٢ و٣) مريم ٧١، ٧٢.

ابن عبد الله البجلي كنا جلوساً عند رسول الله ﷺ فرأى القمر ليلة البدر فقال ﷺ : « **إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ:** ﴿ **وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها** ﴾[1]». وهو مخرج في الصحيحين.

وروى مسلم في الصحيح عن صهيب قال قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **للذين أحسنوا الحسنى وزيادة** ﴾[2] قال ﷺ : « إذا دخل أهل الجنة الجنة قال إن لكم عند الله موعداً يشتهي أن ينجزكموه، قالوا ما هذا الموعد ألم يثقل ميزاننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة، ونجانا من النار، قال فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله تعالى، فما أعطوا شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ».

وقد روى حديث الرؤية جماعة من الصحابة وهي غاية الحسنى ونهاية النعيم وكل ما فصلناه من نعيم عند هذه النعمة ينسى، وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى، بل لا نسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء وقد ذكرنا طرفاً من ذلك في باب المحبة، وعلى الجملة فلا ينبغي أن تكون همة العبد من الجنة سوى لقاء المولى جل جلاله فأما سائر نعم الجنة فإنه يشارك فيها البهيمة المسرحة في المرعى فافهم تغنم.

(١) طه ١٣٠. (٢) يونس ٢٦.

خاتمة الكتاب

بأخبار تدل على سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل

فقد كان ﷺ يحب الفأل، ونحن نرجو من فضل الله تعالى ورحمته وسعة مغفرته، أن يختم بالسعادة آجالنا كما ختمنا هذا الكتاب بالأخبار الدالة على سعة المغفرة والرحمة.

أما الآيات فقد قال الله تعالى: ﴿ إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك ﴾[1] الآية. وقال الله تعالى: ﴿ ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً ﴾[2] ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زل به القلم.

قال رسول الله ﷺ: «إن لله عز وجل مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والبهائم والهوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة».

ويروى أنه إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتاباً من تحت العرش فيه أن رحمتي سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين، فيخرج من النار مثلا أهل الجنة.

وقال رسول الله ﷺ: «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول: أبشروا معشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت في النار مكانه يهودياً أو نصرانياً».

وقال ﷺ: «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف

(١) النساء ٤٨. (٢) النساء ١١٠.

وعشرة آلاف ألف» وقال ﷺ: «يقول الله عز وجل أخرجوا من النار من ذكرني يوماً أو خافني في مقام».

وقال رسول الله ﷺ: «إذا اجتمع أهل النار في النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة، قال لهم الكفار: ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى، قالوا فما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا في النار، فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فيسمع الله عز وجل ما قالوا، فيأمر بإخراج من كان في النار من أهل القبلة فيخرجون، فإذا رأى الكفار ذلك قالوا يا ليتنا كنا مسلمين، فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ﴾[1].

وقال ﷺ: «لله أرحم بالعبد المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها» وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنه من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته يوم القيامة فذلك الذي يحاسب حساباً يسيراً ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله ﷺ لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره.

وروي أن الله تعالى قال لموسى عليه السلام: استغاث بك قارون فلم تغثه وعزتي وجلالي لو استغاث بي لأغثته وعفوت عنه.

وقال الصنابحي: دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكيت فقال: مهلاً لم تبكي فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثاً واحداً وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحيط بنفسي: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله تعالى عليه النار».

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ: «إن الله يستخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً كل سجل منها مد البصر، ثم يقول أتنكر من هذا شيئاً أظلمتك كتبتي الحافظون؟ فيقول لا يا رب، فيقول ألك عذر؟ فيقول لا يا رب، فيقول بلى إن لك عندنا حسنة، فإنه لا

(١) الحجر ٢.

ظلم عليك اليوم، فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فيقول يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تظلم. قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وثقلت البطاقة فلا يثقل مع اسم الله شيء » والحمد لله وحده والصلاة على نبيه.

تم الكتاب والحمد لله تعالى

***

فهرست مختصر الأحياء

فهرست مختصر الأحياء

* * *